المحتويات

البيان	الصفحة
تصدير بقلم ا.د. عثمان محمد الخشت رئيس جامعة القاهرة	٥-٦
القسم الأول : شهادات شخصية	
كلمة الاستاذ الدكتور / احمد الشربينى عميد الكلية	٧
حسنين ربيع الاستاذ الإنسان .....ا.د. السيد السيد الحسينى	٨-٩
دكتور حسنين ربيع ..... ا.د. عبد الستار الحلوجى	١٠
تحية اخوية للاستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع بعد رحيله الفاجع ا.د. حسن الشافعى.	١١-١٢
كلمةتابين للاستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع ا.د. احمد محمد رفعت	١٣
كلمة عن الاستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع ا.د. محمد عيسى الحريرى	١٥-١٧
اخى وصديقى وزميلى ا.د.حسنين محمد ربيع ا.د. حامد زيان غانم	١٨
كلمة الاستاذ الدكتور على بن محمد عودة الغامدى	١٩-٢١
Hassanein Mohamed Rabie (1938 – 2019) Jere L. Bacharach	٢٢-٢٣
كلمة اسرة الاستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع	٢٤-٢٦
القسم الثاني : دراسات مهداه لسيادته	
الفندلاوي والحلحولي (ت ١١٤٨م) بطلان شعبيان من عصر الحروب الصليبية **أ.د. محمد مؤنس عوض**	٢٩
ظاهرة الخطف كأحد روافد الاسترقاق في بلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام د. خالد حسين محمود	٤٣-٦٩
الحشاشون في إيران **د. حامد زيان غانم**	٧٠-٧٥
الحرب بين الروم والفرس في ضوء سورة الروم (الإعجاز التاريخي في سورة الروم) **أ.د. علي بن محمد عودة الغامدي**	٧٦-١٠٩
أضواء على بعض المواقع المهمشة في الساحل الشمالى **أ.د. محمد السيد عبد الغنى**	١١٠-١٢٤
إبن الملقن عمر الوادياشي الأندلسي ودوره في الحياة العلمية بمصر والشام في القرن الثامن الهجري – الرابع عشر الميلادي	١٢٥-١٦٣

أ.د. عفاف سيد محمد صبرة	
القسم الثانى : السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع	١٦٤-١٨١

الـكـلـمـات

كلمة أ.د. محمد عثمان الخشت
رئيس جامعة القاهرة
تصدير كتاب د. حسنين ربيع

عرفناه أستاذا للتاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة وعلما من أعلامها البارزين منذ ألف كتابه المبكر حول الحضارة الإسلامية الذي تناول فيه تاريخ العلوم منذ تكلم العلم بالعربية على مدى ثمانية قرون من عمر الزمان في الطب والفلك والكيمياء والعقاقير والهندسة والفيزياء والحساب، إلى جانب نبوغ العقل العربي في الجغرافيا والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع، بالإضافة إلى تفوق البيان العربي في الشعر والقص ومختلف فنون القول.

قدّم المرحوم الدكتور حسنين ربيع نفسه للمجتمع الجامعي مع أوائل سبعينيات القرن الماضي من خلال السرد التاريخي المتميز لدور العرب في صناعة الحضارة الإنسانية منذ ضرب الغرب في تيه التخلف والجمود إلى أن نقل عن أبرز العلماء العرب من أمثال ابن سينا والرازي وابن حيان وابن الهيثم والإدريسي والكندي والفارابي وابن رشد وأمثالهم من علماء العربية الكبار الذين رادوا حركة العلم في التأليف بالعربية والترجمة منها وإليها.

ثم عرفناه أستاذا وطنيا في كتابه حول (القدس: عربية إسلامية) والذي احتفت به وزارة التربية والتعليم ضمن مناهجها في المواد القرائية في المرحلة الثانوية، فكان للكتاب طبيعة خاصة من المنظور التاريخي والقومي والوطني والإنساني في حرص المؤلف على توثيق التاريخ العربي والإسلامي للقدس.

وقد تعددت مؤلفات المرحوم الدكتور ربيع فكان مشهودًا له بالأصالة في أستاذيته ودقة المنهج ومستوى المعالجة التاريخية للأخبار تمحيصا ونقدا وتحليلا وتعليقا من خلال الرؤى الصائبة للمؤرخ العربي الأصيل.

كما تعددت المواقع القيادية التي تولاها الدكتور ربيع في كليته وجامعته وخارجها، حيث ترك بصمات إدارية متميزة منذ تولي وكالة كلية الآداب، ثم العمادة، ثم عمل نائبا لرئيس الجامعة لخدمة المجتمع والبيئة مع إشرافه وقتها على برامج التعليم المفتوح المستحدثة في تلك الفترة، إلى جانب حرصه على نشر حصاد الموسم الثقافي وحصاد احتفالية عيد العلم سنويا بالجامعة.

وامتد نشاطه خارج الجامعة منذ انتخب عضوا بمجمع اللغة العربية إلى توليه رئاسة التعليم المفتوح بالجامعة المفتوحة، إلى انتدابات متعددة له بالجامعة الأمريكية، ومعهد الدراسات الإسلامية، وعمله مقررًا للجنة ترقيات الأساتذة في تخصص التاريخ لعدة سنوات.

كان له دوره أيضا في النهوض باتحاد المؤرخين العرب وتطوير صيغ الأداء المنهجي به حتى أصبح من القلاع المهمة في حراسة تاريخ الوطن والأمة، والمحافظة على الوثائق والحرص على تحقيقها وإخراجها لحيز النور في المكتبة العربية.

أسهم المرحوم الدكتور حسنين ربيع في كل موقع تولاه علميا كان أو إداريا، فكان نموذجا متميزا من نماذج العطاء العلمي والإنساني الذي تجلى في شخصه الكريم أستاذا وعالما وإنسانا يعرف حق وطنه وأمته وتاريخه ولغته، فلا يفرط في واجب يسند إليه، ولا يتهاون في مهمة يقوم بها، فكان شريكا في كثير من المؤتمرات الهادفة إلى تطوير التعليم العالي مع مطلع الألفية الجديدة، وفي صياغة خمسة وعشرين مشروعا لتطوير المنظومة على المدى القصير والمتوسط والبعيد.

كما شارك بحماس منقطع النظير في الدفاع عن قضايا اللغة العربية وتدريسها كمتطلب جامعة منذ نهاية القرن الماضي، وكذا كانت مشاركاته في كثير من فعاليات العمل الثقافي في الجامعة بحكم سعة خبراته، ورحابة صدره، وقدرته على التفاعل مع زملائه وطلابه ومريديه الذين اتسعت دوائرهم وزادت أعدادهم في مختلف الجامعات العربية والمصرية.

رحم الله الدكتور حسنين ربيع رحمة واسعة، يشفع له علم ينتفع به، وولد صالح يدعو له وصدقة جارية تقدمها أسرته الصغيرة وأسرته الكبيرة في قسم التاريخ وكلية الآداب وجامعة القاهرة، غفر الله له وأدخله فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا، و"إنا لله وإنا إليه راجعون".

كلمة أ.د. أحمد الشربيني
عميد الكلية

يعد الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع، أحد رموز كلية الآداب العلمية والادارية، التي نذرت نفسها لكليتها وجامعتها، و أعطت لهما بإخلاص وتفان على مدار سنوات طويلة، فهو أستاذ تاريخ العصور الوسطي المرموق الذي قضى جل حياته الجامعية- منذ ان أصبح استاذاً- في العمل الإداري بكلية الآداب وجامعة القاهرة؛ حيث بدأ عمله الإداري وكيلاً لكلية الآداب لشئون التعليم والطلاب، فعميدًا للكلية، ثم نائبًا لرئيس جامعة القاهرة لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة، ويشهد كل من عمل مع الأستاذ الدكتور حسنين ربيع في مواقع العمل الإداري المختلفة سواءً بكلية الآداب، أو بالجامعة له بالدأب والدقة والإخلاص في العمل، وهي خصال وقفت وراء الإنجازات التي سيذكرها له التاريخ بكل موقع اداري تقلده بالكلية والجامعة علي حد سواء.

وللأستاذ الدكتور/ حسنين ربيع مدرسة علمية، يشهد لها انتشار طلابه بالجامعات المصرية، والعربية، وبخاصة جامعات المملكة العربية السعودية، وهي مدرسة جاءت نتيجة خبرات تراكمت لديه نتيجة تلمذته علي يد الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في مرحلة الماجستير، ثم دراسته للدكتوراه في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS) بجامعة لندن، والتي اتاحت له فرصة للاحتكاك لسنوات بثلة من أساتذة العصور الوسطى المرموقين في المملكة المتحدة، والذين كان من بينهم عتاة مدرسة الاستشراق في النصف الثاني من القرن العشرين.

و رغم مشاغل الأستاذ الدكتور/ حسنين ربيع، وأعبائه الإدارية، فقد استمرت علاقته الوطيدة بقسمه العلمي، وبأساتذته وزملائه من أبناء جيله، وتلاميذه، حيث ضرب مثلًا في الوفاء لأساتذته وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور/ سعيد عبدالفتاح عاشور، و الأستاذ الدكتور/ عبداللطيف أحمد علي، الذي كان بارًا بهما حتي لقيا ربهما، كما ظلت علاقته بزملائه من أبناء جيله يحتذى بها، أما تلاميذه وطلابه فظل يقدم لهم الرعاية والدعم حتى لقي ربه.

كذلك تحمل الأستاذ الدكتور حسنين ربيع مهمة إدارة شئون اتحاد المؤرخين العرب بمسئولية مع استاذه الأستاذ الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، بعد أن قرر أعضاء الاتحاد نقل مقره إلي القاهرة، ثم تولي الأستاذ الدكتور حسنين ربيع المهمة كاملة بعد استاذه، وقد مكن الاتحاد في فترة رئاسته لأن يكون له مقراً مستقلاً بالقاهرة، يجعل منه الآن مؤسسة علمية متكاملة الأركان.

رحم الله الأستاذ الدكتور/ حسنين ربيع القامة والقيمة العلمية والإدارية، وأسكنه فسيح جناته، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

حسنين ربيع
الأستاذ والإنسان

أ.د. السيد السيد الحسينى

أستاذ الجغرافيا وعميد كلية الآداب –جامعة القاهرة الأسبق

يعز علي أن أكتب في تأبين صديق عزيز قلما يجود الزمان بمثله , إنه المرحوم الأستاذ الجليل الدكتور حسنين محمد ربيع الذي رحل عن دنيانا ليترك مكانا شاغرا في قلبي لا يملؤه غيره . جمعني بالراحل العظيم رحلة عمر طويلة امتدت علي مدار أكثر من خمسين عاما , بداية كمعيدين بالكلية , سبقني في السفر إلي لندن بالمملكة المتحدة في بعثة للحصول علي الدكتوراه , ولحقته و أنا في طريقي لمدينة نيوكاسل في بعثة لجامعتها في أكتوبر عام ١٩٦٤ , وكان هو أول من قابلني في لندن , و أصر علي زيارتي له في منزله حيث اسرته الكريمة فوجدت منهم كرم الضيافة وشدة الترحيب وكانني وسط عائلتي رغم أجواء الغربة التي تصاحب الفرد عندما تطأ قدماه مكانا جديدا وسط محيط يختلف عنك في كل شيء لغويا وثقافيا وحضاريا وسياسيا , فبعث في نفسي حالة من التفاؤل والأمل والطمأنينة , وكان تشجيعه لي وأنا في أول مشواري للدكتوراه دافعا للتغلب علي الصعاب وتحقيق النجاح المأمول .

وتابعنا الزمالة والصداقة والأخوة الحقة بعد العودة إلي كليتنا العزيزة , نلتقي أحيانا في ردهاتها وقد نجتمع معا في قاعاتها , أوفي لجانها ومجالسها . كان رحمه الله نعم الزميل والصديق . حباه الله بخصال حميدة جميلة قلما تجتمع في واحد , تواضع رغم سمو المكانة , دماثة خلق , عمل الخير للبعيد قبل القريب , تفان وإخلاص في العمل منقطع النظير , ود وإيثار للمحيطين به , إنسانية صادقة تشع علي من يتعامل معه . أبوة لطلابه ولكل من طلب منه نصحا أو رأيا , لا ينتظر طلب العون أو المساعدة لمن يحتاجها حتي قبل طلبها منه , مترفع عن الصغائر مهما كثرت او تدنت , إنه كان نموذجا وقدوة رائعة للأستاذ الجامعي في أبهي صوره , يتمسك بإصرار بالقيم الرفيعة والمثل العليا , ولا ننسي دوره المبدع في بلورة ميثاق شرف الأعراف والقيم الجامعية الذي صدر عن الكلية عام ٢٠٠٠ , مشاركا في بحوثه وفي لجانه ورئيسا للجنة صياغته . شغل العديد من المناصب العليا في الجامعة وكيلا للكلية ثم عميدا لها فنائبا لرئيس الجامعة , شهدت جامعة القاهرة مواسم ثقافية غير مسبوقة آنذاك عندما كان نائبا لرئيس الجامعة . شرفت به كل المناصب القيادية فأضاف إليها وطور من طبيعتها . كان رائدا في كل عمل يحظي برئاسته . ان محبوبا محترما بين رؤسائه ومرؤوسيه ,وبين أساتذته وطلابه . ترك سيرة ذاتية عطرة .

لم أتحدث عن إنتاجه العلمي الغزير وما تركه من كتابات رائدة في مجال تخصصه, فهذا ما يذكرة بكل إعجاب واحترام وتقدير أقرانه وأجيال من طلابه . ولكنني آثرت أن اتحدث عن قطرة صغيرة في نهر عذب المياه متدفق دائم الجريان من العطاء , إنه حسنين ربيع .

أخي وصديقي الأعز

لن أنساك ما حييت , لا يتوقف شريط الذكريات كل حين . أدعو الله متضرعا أن يتغمده بواسع رحمته ورضوانه وأن يسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولائك رفيقا لقاء ما قدم لوطنه وأمته وجامعته وكليته , وجعل ما قدمه في ميزان حسناته . وألهم أسرته الكريمة , قرينته ورفيقة دربه وأبناءه والزميلة الغالية الدكتورة سحر وزملاءه وطلابه وأصدقاءه ومحبيه والعارفين بفضله الصبر والسلوان , وإنا لله وإنا إليه راجعون . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الدكتور حسنين ربيع

أ.د. عبد الستار الحلوجى
أستاذ المكتبات والمعلومات
قسم المكتبات والوثائق وتقنية المعلومات
كلية الآداب – جامعة القاهرة

الحديث عن الدكتور حسنين ربيع حديث عن قامة وقيمة. قامة علمية شامخة وقيمة خُلقية رفيعة. عرفته منذ أكثر من ثلاثين عاما، وكان كل يوم يمضي يقربنى إليه ويزيدنى محبة له وتقديرًا لعلمه وخُلقه. كثيرون جدًا عرفتهم وتعاملت معهم، ولكن الذين أحببتهم قليلون، والذين احترمتهم قليلون أيضا. وأقل القليل هم الذين اجتمع لهم في نفس الحب والاحترام معًا. ومن هذه القلة القليلة الأخ والصديق الدكتور حسنين، فقد كان بالنسبة لى أخاً بكل ما تحمله كلمة الأخوة من معانى البر والصفاء والنقاء، وكان صديقا بكل ما تحمله الصداقة من نُصح وإخلاص ومودّة متصلة لم تفتر في يوم من الأيام. ولم يخطر على بالى قط أنه سيتركنى ويمضى إلى جوار ربه ويلحق بمجموعة الأحبة الذين سبقونى إلى رحاب الله، وكانوا أعمدة أركن إليها كلما حزننى أمر من أمور الحياة، وكان كل واحد منهم بالنسبة لى مرجعا أرجع إليه أستنصحه وأستشيره فى كل أمورى، وأضع قلبى بين يديه كتابا مفتوحا يقرأ فيه كل كلمة خطّتها يد الزمن.

وحينما تمتد يدى إلى القلم لتكتب عن الأخ والصديق الدكتور حسنين ربيع يمرّ بعقلى شريط من الذكريات أخذ بعضها برقاب بعض. فقد صحبته ولازمته فترة في المملكة العربية السعودية، كنت فيها أستاذاً بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، وكان هو أستاذا زائرًا للجامعة نفسها، وقضينا معاً أكثر من شهر لا نكاد نفترق. ما أكثر ما تجاذبنا أطراف الحديث، وما أجمل الأوقات التي كنا نقضيها معاً في جوار بيت الله الحرام فى مكة المكرمة، وفى مسجد رسولنا المصطفى صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة. فى تلك الفترة التي مضى عليها ثلاثة عقود من الزمن خبرت الدكتور حسنين وخبرنى، أحببته وأحبنى، تعلقت به وتعلق بى، وأصبح كل منا مرآة لصاحبه، يخلص لنا النصح، ويفضى إليه بمكنون نفسه ولواعجه وخواطره.

ويتولى الدكتور حسنين وكالة كلية الآداب ومن بعدها عمادة الكلية، ويرشح مستشارا ثقافيا فى لندن فيعتذر. ويختاره الدكتور مفيد شهاب رئيس جامعة القاهرة آنذاك نائباً لهن وتظل حبال المودّه موصولة بيننا لا تنقطع.

وفي كل المواقع التي شغلها، أستاذا وعميدا، ورئيسا لاتحاد المؤرخين العرب، وعضوا بمجمع اللغة العربية كان نموذجا رائعا للعالم الجليل، والإنسان المتواضع الذى يحب الخير للناس، كل الناس، لا يردّ من يقصده، ولا يتوانى في خدمة من يلجأ إليه. ولهذا أحبه كل من عرفه أو تعامل معه. وأحسب أن ما فعله من خير، وما اكتسبه من حب الناس سيبقى له فى ميزان حسناته، إلى جانب ما خلّفه من علم يُنتفع به وولد صالح يدعو له.

رحمه الله رحمة واسعة، وألهمنا وألهم عائلته ومحبيه صبرًا على فراقه. ولا نقول إلا ما يرضى الله "إنا لله وإنا إليه راجعون".

تحية أخوية للأستاذ الدكتور حسنين ربيع
(بعد رحيله الفاجع)

كتبه :أ.د حسن الشافعى

رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدينوبعد،

فقد روى الإمام أحمد ـ في مسنده ـ قوله – صلى الله عليه وسلم: "إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله – تعالى – يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه." أو كما قال – صلى الله عليه وسلم .

وثبت فى الصحيح: "أثقل ما يوضع فى الميزان خُلُق حسن." وثبت أيضًا قوله – عليه الصلاة والسلام: "إن أحَبَّكُم إلى، وأقربَكمُ مِنِى مجالس يوم القيامة، أحاسِنُكم أخلاقًا، الموطِّؤون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون".

أرجو، ولا أتألى على الله، أن يكون من بين هؤلاء أخونا الكبير وزميلنا الفاضل، فى جامعة القاهرة أولًا، ثم فى مجمع اللغة العربية، أخيرًا عالم التاريخ المُحَقِّق، ورئيسُ اتحاد المؤرخين العرب، الأستاذ الدكتور حسنين ربيع – حفظه الله ..

لقد اتصلت به وأنا معار من جامعة القاهرة للعمل فى الجامعة الإسلامية بإسلام آباد فكان خير عون لي حينذاك، ثم عملت معه حينما عدت وصرت وكيلًا لكلية دار العلوم، وكان سيادته مازال يعمل نائبًا لرئيس جامعة القاهرة، ولمستُ عن قرب بما رزقه الله من حسن الخلق، ودماثة الطبع، وحسن الملتقى، وتوطئة الكنف، ولين الجانب، والتواضع الجم الذى هو خلق العلماء الحقيقيين، فجمع الله – تعالى – له بين العلم والعمل، نحسبه كذلك ولا نزكى على الله أحدًا.

ولقد زاده منزلة في نفسى – وذلك أمر شخصى – ما علمت حينذاك، أنه من رجال الواحات المصرية، تلك المنطقة العزيزة من الوطن التى يتميز أهلها بالأمانة وحسن الخلق، والتعاطف والتراحم والتوادّ، وقد أطمعنى ذلك أن أبعث إلى مكتبه، بالعديد من أبنائنا الطلبة في دار العلوم، بنين وبنات، من أصحاب الحاجات، فما عاد أحد من رحابه إلا راضيًا – جزاه الله عنا وعنهم خير الجزاء.

وقد ازدادت سعادتى – علم الله – عندما تزاملنا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وأنا حسن وهو حسنان؛ فالاسمان مقترنان، ولعلمه وفضله اختير مقرّرًا للجنة التاريخ والآثار بالمجمع، وكنت – دون اختصاص – محبًّا لهذه المادة التى ترتبط بمختلف وجوه الثقافة، ومنها الثقافة الإسلامية، فأفدت من تحقيقات هذه اللجنة الموقرة وجهودها العلمية واللغوية، وتابعت دوره الفعَّال في ريادة اللجنة وخدمة إنتاجها الوفير، وشاركت قليلًا فيما يتصل بتخصصي ــ من أعمال اللجنة ــ في التصوف والفلسفة الإسلامية.

ويشاء الله ـ تعالى – أن أزداد منه قُربًا، وبه حبًّا، عندما اختارنى زملائي وهو منهم، رئيسًا للمجمع، واختاروه عضوًا "بمكتب المجمع"، الذى يعدّ "مجلس إدارة المجمع" فى شئونه العملية والعلمية؛ فكان مثالًا للتعاون والتضافر، وإيثار المصلحة العامة، حتى حدَّت الظروف الصحية أخيرًا من إسهاماته فى هذا "المكتب"، ومن جهوده المجمعية بوجه عام، وإن ظل حريصًا – برغم ذلك – على حضور الاجتماعات ذات الأهمية الخاصة للإفادة من رأيه وتجربته الطويلة العلمية والعملية.

وفى إطار هذه الزمالة الخصبة، والعلاقة الأخوية الحميمة: دعانى سيادته لحضور بعض

الملتقيات العلمية، فى اتحاد المؤرخين العرب. مشاركًا ومستمعًا، وقد أسعدنى المناخ العلمى، والطابع الموضوعى للمناقشات والمساجلات الدقيقة، رفيعة المستوى، فى هذه المؤسسة من مؤسسات المجتمع العلمى المدنى في وطننا الحبيب.

ولا يفوتنى أن أنوه بالعمل العلمى القيم، البالغ الثراء، ويكفى أن نعلم أنه يتعرض لمصطلحات وأفكار علمية، فى نحو عشر لغات عالمية قديمة وحديثة، غير اللغة العربية، وأعنى به "معجم مصطلحات التاريخ والآثار" الذى أصدره المجمع عام ١٤٣٢هـ، الموافق ٢٠١١ ميلادية، فى مجلد كبير حافل، وقدم له أستاذنا الراحل، رئيس المجمع حينئذ، الأستاذ الدكتور محمود حافظ – رحمه الله – مقدرًا عمل اللجنة الموقرة، للتاريخ والآثار بالمجمع بقيادة مقررها، ورائد المؤرخين العرب، الأستاذ الدكتور حسنين ربيع – حفظه الله – فى إنجازه، شاهد صدق على عملها الدءوب، وإخلاصها العلمى، وبراعتها المشهودة فى الجانبين العلمى الموضوعى، واللغوى المتنوع المجالات واللغات فى الوقت نفسه. على أن لصديقنا العزيز الدكتور ربيع مؤلفاته الخاصة، وإنجازاته العلمية المتميزة، خلال حياته الجامعية الحافلة، ومشاركاته وأنشطته البارزة على مستوى العالم العربى والعالم الإسلامى على السواء، وفي المؤتمرات العالمية.

إن شخصية الدكتور حسنين ربيع جماع آداب وتقاليد رفيعة أرساها ورسخها أساتذة كبار، في هذا الوطن العزيز، الذي يتميز في مراحل التاريخ جميعًا ـ قديمه ووسيطه وحديثه ـ بمكانته الخاصة المشهود بها عالميًا، وفي مقدمة شيوخ "المدرسة التاريخية المصرية" الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال، الذي تلمذ له وأفاد منه فقيدنا الراحل الدكتور ربيع، وكان في جيلنا صورة من هذا الأستاذ العظيم.

أسأل الله أن يرحمه رحمة واسعة، وينزل عليه شآبيب رحمته، وأن ينفع بعلمه، وأن يكثر من أمثاله؛ فاستيعاب التاريخ هو السبيل القويم لإثراء الحاضر، والتطلع إلى المستقبل؛ إنه خير مسئول وأعظم مأمول. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

كلمة تأبين للمرحوم أ.د. حسنين محمد ربيع

د. أحمد محمد رفعت
عميد المعهد العالي للدراسات الإسلامية
رئيس جامعة بنى سويف السابق
سفير مصر الأسبق لدى منظمة
اليونسكو ـ باريس

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

ما كنت أظن أن أقف اليوم في هذا الموقف مؤبناً إبناً باراً من أبناء مصر وهو العالم الجليل والمفكر الكبير المرحوم الأستاذ الدكتور/ حسنين محمد ربيع، الذى عرفته أستاذاً لتاريخ العصور الوسطى، وعميداً لكلية الأداب، ونائباً لرئيس جامعة القاهرة، ورئيساً لاتحاد المؤرخين العرب، وأستاذ التاريخ الإسلامى بالمعهد العالي للدراسات الإسلاميةوعضو مجلس إدارة المعهد، وعلماً من أعلام الجامعة المصرية حيث ثراء العطاء، والتنوع العلمي، والتجسيد السلوكي. وأشهد أنه كان وطنياً فى مقام العشق للوطن بما قدمه من علم وثقافة وفكر على الصعيد العلمى، والوطنى، والاجتماعي.

إن الحديث عن راحلنا العظيم الأستاذ الدكتور / حسنين ربيع ــ رحمه الله ــ متعدد المناهل، والسيرُ فيه هو سير في أمور كثيرة متنوعة، وإذا كنت ممن كان قريباً منه لفترة تزيد على ربع قرن، فأعتقد أن هذه السنوات كافية بأن تعطيني صورة صحيحة تلخص ما علمنا عنه في هذه العجالة .

فعلى الصعيد العلمي كان الأستاذ الدكتور/ حسنين ربيع بعطاءاته عالماً متميزاً في طريق الصعود العلمي منذ أن نشأ وترعرع، ومنذ أن اعتلى منابر الفكر، ومجالات المعرفة، فأعطى ما استطاع أن يُعطي، وأفنى حياته فى خدمة العلم، وكان رحمه الله عالماً جليلاً ومربياً فاضلاً وأستاذاً

مرموقاً، ومثقفاً موسوعياً، قدم لمصر ولجامعة القاهرة وللمعهد العالى للدراسات الإسلامية أجل الخدمات لسنوات طويلة، مما جعل منه منارة علمية متميزة فى التاريخ الإسلامي فى مصر والعالم العربى. وكان رحمه الله مثالاً يحتذى به فى العطاء بعلمه الغزير وخلقه الرفيع وتواضعه الجم، وهو العالم والمثقف الذى سعت إليه محافل دولية وعربية وإسلامية كثيرة، ومازالت إسهاماته العلمية مرجعاً لصفوة أساتذة التاريخ فى شتى بقاع العالم.

وعلى المستوى الوطنى كان ـ رحمه الله ـ عاشقاً لوطنه .. مدافعاً عنه .. متبنياً لقضاياه .. قادراً على التمييز بين الجوهر والقشور .. يتميز بالوضوح والحماس .. وصفاء المعدن والأخلاص .. وصلابة المواقف..إنساناً صادقاً خلوقاً محترماً مهذباً، ومثالاً يحتذى به فى الأخلاق والقيم العالية، وكان يقدس العمل ويبذل مجهوداً كبيراً من أجل رفعة راية الوطن، حتى أصابه المرض من كثرة العمل والمجهود الذى كان يبذله.

وعلى المستوى الشخصى .. كان ـ رحمه الله ـ عصامياً بامتياز .. دمث الأخلاق متواضعاً .. كريماً من غير من .. بسيطاً في مسلكه .. صلباًفي مواقفه .. شديد الإعتزاز برأيه متواضعاً أمام رأي الآخرين .. عفيفاًفي حياته قريباًمن الزهد .. هادئ وصبوراً .. نزيهاً في حكمه علي الناس والوقائع والظروف .. وواقعياًفي فهمه للحقائق.

لقد فجعنا بفقدان الراحل العظيم فى وقت عصيب .. ورغم أننى على يقين من أن (لا أحد يرحل قبل أوانه) فالموت نقاد على كفه جواهرا ينتقى منها ويختار، ومع ذلك فقد تمنيته حياً اليوم ليواصل رحلة العطاء والكفاح التى بدأها من أجل الانتصار لمبادئه .. ورعاية أبنائه الطلاب .. ورفع راية مصرنا الغالية عالية فى عنان السماء.

وأرجو أن تتذكروا، أن ما يدفن في التراب هو أثمن الأشياء (الكنوز ورفات الأحبة) أما الأرث العظيم للأسلاف فيبقي، يبعث علي الفخر ويحصن الأجيال الجديدة من الوقوع في مواطن الزلل.وهؤلاء لا ينبغي أن تنتهي حياتهم بحياتنا لمُجرَّد أنهم رحلوا، إنما انتقلوا أبداناً، وبقيت علومهم، وأخلاقهم، ومواقفهم، وعطاءاتهم التي يجب أن تبقى تتفاعل في داخلنا، فنعكسها كأمانة إلى الأجيال اللاحقة.

رحمك الله أيها الراحل الكريم، وإن معهد الدراسات الإسلامية عميداً وأساتذة وباحثين وطلاب وعاملين ينعون بمزيد من الحزن والأسى المرحوم الأستاذ الدكتور/ حسنين محمد ربيع، والذى تخرج على يديه العديد من الطلاب من أكثر من سبعين دولة فى مختلف بقاع العالم، ويدعون له بالرحمة الواسعة والمغفرة، وأن يسكنه الله فسيح جناته ويلهم أهله وذويه وتلاميذه ومحبيه الصبر والسلوان . وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كلمة عن:
أ.د .حسنين محمد ربيع

أ.د .محمد عيسى الحريرى
رئيس مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب

السادة الأفاضل .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

" يتوافق أصحاب المعارف الرفيعة، والثقافات العالية؛ على ما تقتضيه القيم السامية؛ من إسناد الأمر لأهله، والإقرار بجهودهم العلمية، ومعرفة قيمتها للدراسات التاريخية .اتحدث إليكم عن أستاذي العالم الكبير الذي ملئ حياتنا بالمودة والمحبة وحب العلم والتنافس العظيم في الوصول إلى غاياته العظيمة في تاريخنا العلمي والحضاري، أستاذي العظيم الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع عشت معه فترة طويلة في حياتي العلمية دامت أكثر من خمسين سنة وسرت معه طول حياتي وعشت معه مؤرخا عظيما ترك الكثير من مؤلفاته التاريخية في التاريخ في العصور الوسطي والإسلامية والحضارة الإسلامية عشت معه فترة طويلة عندما كان أستاذاً بقسم التاريخ ورئيسًا لهذا القسم في كلية الآداب بجامعة القاهرة وعميدًا لهذه الكلية ونائبًا لرئيس الجامعة وفي كل هذه المراحل عشت معه صديقا وزميلاً كريمًا وجدت فيه حبًا يملأ الحياة سعادة في ظل علم رائع عظيم.

أحب في هذه اللحظات الطيبة التى نذكر فيها اسمه العظيم أن ندعوا له بالمغفرة والرحمة وأن تكون له دارًا طيبة ينعم فيها برضى الله تعالى وجنته الطيبة.

في هذه الكلمات المنيرة والصادقة هي آخر ما سطره وكتبه الأستاذ الكبير والعالم الجليل الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع فى المجلة العلمية لاتحاد المؤرخين العرب والتى تصدر سنويا عن الاتحاد.

وعلى ضوء هذه الكلمات المضيئة .. فإني أود باسمي وباسم مجلس إدارة وأعضاء اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أن أشيد بمكانة وقدر هذا العالم الكبير وهو واحد من رواد التاريخ ومن كبار أعلام المؤرخين العرب بما قدمه طيلة حياته الكبيرة من علم وفكر وأياد بيضاء فى مجال العلم والمعرفة.

واسمحوا لي أن أشير إلى بعض البحوث والد اسات والأعمال الخاصة بسيادته والتى تحظى باهتمام المجتمع العلمى – داخليا وخارجيا -مما يجعلها موضع عناية واهتمام وتقدير.

أولا : فقد ولد شيخنا الجليل الأستاذ الدكتور حسنين ربيع بالقاهرة عام ١٩٣٨ م.

ثانيا : الشهادات:

- حاصل علي ليسانس الآداب من قسم التاريخ بآداب القاهرة عام ١٩٥٩ بتقدير عام جيد جداً .
- دبلوم في التربية وعلم النفس من كلية التربية جامعة عين شمس عام ١٩٦٠ بتقدير عام جيد جداً .
- ماجستير في) تاريخ العصور الوسطي (آداب القاهرة عام ١٩٦٤ بتقدير ممتاز .
- دكتوراه في تاريخ العصور الوسطي عام ١٩٦٩ من جامعة لندن – انجلترا .

ثالثا : الوظائف والمناصب والأعمال:

- وكيل كلية الآداب جامعة القاهرة لشئون التعليم والطلاب في الفترة من ١٩٨٥-١٩٨٩ م.
- منصب عميد الكلية في الفترة من ١٩٨٩ -١٩٩٣ م.
- نائباً لرئيس جامعة القاهرة في الفترة من ١٩٩٣ -١٩٩٨ م
- مدير مركز التعليم المفتوح بجامعة القاهرة ١٩٩٥ -١٩٩٨ م
- رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ٢٠٠٥ م .
- مدير فرع الجامعة العربية المفتوحة في مصر ٢٠٠٢-٢٠٠٦ م
- عضو مجمع اللغة العربية (مجمع الخالدين) بالقاهرة ٢٠٠٣ م .
- عضو المجمع العلمي المصري .
- عضو بالمجلس القومي للثقافة والفنون والآداب والإعلام (المجالس القومية المتخصصة)
- مقرر شعبة التراث الحضاري والأثري بالمجلس القومي للثقافة والفنون والآداب والإعلام .
- عضو اللجنة العلمية لمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية .
- مقرر اللجنة العلمية للترقيات للأساتذة والأساتذة المساعدين بالجامعات المصرية (تاريخ)
- عضو بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة ١٩٥٨ م .
- عضو بمركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٦٩ م .
- عضو مجلس إدارة الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية ١٩٩٨ م .
- عضو جمعية الدراسات الإسلامية بالقاهرة ١٩٩٨ م.
- عضو مجلس إدارة ا ربطة خريجي جامعة القاهرة ١٩٩٨ م .
- عضو المجمع العلمي المصري ٢٠١١ م.

رابعا : الجوائز الحاصل عليها:

- جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠١
- جائزة جامعة القاهرة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٩
- جائزة السلطان الظاهر بيبرس ووسام الاستحقاق من جمهورية كازاخستان عام ٢٠٠٤
- حاصل علي جائزة جامعة القاهرة للتميز لعام ٢٠٠٦ في مجال العلوم الإنسانية .

خامسا : المؤلفات والكتب والأبحاث:

- له (١٣) كتاب في تاريخ العصور الوسطي كتابان بالإنجليزية منشور في مطبعة جامعة أكسفورد بانجلترا.
- عدد(٤٠) بحث ودراسة علمية في التاريخ باللغتين العربية والإنجليزية منشورة في القاهرة ولندن وبرنستون وطوكيو وأنقرة واستانبول والرياض والكويت والشارقة والقيروان وأتيراو بكازاخستان ودائرة المعارف الإسلامية ودائرة المعارف البريطانية وغيرها.
- أشرف على ٤٠ رسالة ماجستير ودكتوراه في تخصص تاريخ العصور الوسطى في جامعة القاهرة والجامعة الأمريكية وجامعة أم القرى بمكة المكرمة وكلية التربية للبنات بجدة.
- شارك في مؤتمرات دولية وندوات يبلغ عددها ٨٢ مؤتمراً وندوة في تخصص التاريخ، عقدت في القاهرة والإسكندرية ولندن وبرنستون والرياض وديترويت بالولايات المتحدة ورودس وغرناطة وأشبيلية ومدريد وسالزبورج وطوكيو ومسقط ومدينة العين وبيروت ومكة المكرمة واستانبول والشارقة، وألماتا بجمهورية كازاخستان، وطشقند وسمرقند وبخارى في أوزبكستان، وتبليسى بجمهورية جورجيا، وأذربيجان.
- محاضرLecturerفي عامي ١٩٦٨-١٩٦٩بقسم التاريخ بمدرسة الد راسات الشرقية بجامعة لندن School of Oriental and African Studies, University of London
- أستاذ ا زئر بمعهد الشرق الأوسط بجامعة كولومبيا بنيويورك ومعهد دراسات الشرق الأدني بجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية (١٩٧٣-١٩٧٤)
- ألقي محاضرات عامة في التاريخ بجامعات ميتشجان آن آربور وبرنستون وهارفارد بالولايات
- المتحدة،وجامعة الفردوسي بمشهد إى ا رن، والأكاديمية القازافية للعلوم في جمهورية كازاخستان وجامعات طشقند وسمرقند وبخاري في جمهورية أوزبكستان، وفي جمهورية أذربيجان.

وختاما .. لا نملك إلا أن نرفع أيدينا - نحن أعضاء اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة - بأكف الدعاء الى المولى عز وجل أن يتغمده برحمته وواسع مغفرته ويسكنه فسيح جناته وان يجعل ما قدمه من صالح الأعمال للعلم ولتاريخ العرب وحضارتهم عبر العصور فى ميزان حسناته.

اخى وصديقى وزميلى الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع

أ.د. حامد زيان غانم

أستاذ تاريخ العصور الوسطي
كلية الآداب جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)

صدق الله العظيم

عشنا وتزاملنا سنوات طويلة، كنا خلالها أصدقاء وأحباء، وكنا دائما نتكامل فى كثير من الأعمال العلمية، فقد جمعنا تخصص واحد وأستاذ واحد، وعملنا سويا فى كثير من الجهات، ولم أذكر أننا اختلفنا على شئ فى يوم من الأيام.

رحمك الله رحمة واسعة، وأسكنك فسيح جناته، فقد كنت دائما ساعيا لفعل الخير، محبا له، دمث الخلق، كريم الأخلاق.

ففى كل المناصب التى توليتها كنت دائما نزيهًا شريفا عفيفا، تترفع عن الصغائر، دقيقا فى عملك، منصفا للكبير والصغير، الجميع يشهد لك بذلك.

إن للفراق لألم شديد، ولكن ها هى سُنة الحياة، فكل نفس ذائقة الموت، ولا نملك نحن إلا الدعاء لكم بأن يجزيكم الله عز وجل خير الجزاء على ما قدمتموه من أعمال الخير والبر ويلهمنا ويلهم أسرتكم الفاضلة وجميع الأصدقاء والزملاء الصبر والسلوان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

كـلـمـة

الأستاذ الدكتور / على بن محمد عودة الغامدى

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
قسم التاريخ جامعة أم القرى , مكة المكرمة

انتقل أستاذي القدير الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع الى رحمة الله تعالى في يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الآخرة سنة ١٤٤٠ هجرية الموافق للثامن من يناير ٢٠١٩ م. أسأل الله جل وعلا ان يتغمده بواسع رحمته ويسكنه الفردوس الأعلى. وهذه نبذة كتبتها عنه. الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع- رحمه الله- كما عرفته.

كانت معرفتي الأولى بأستاذي الرائع الدكتور حسنين محمد ربيع سنة ١٣٩٨هجرية/١٩٧٨م عندما عُيِّنتُ معيدا بقسم التاريخ بكلية الشريعة بمكة التي كانت حينذاك تابعة لجامعة الملك عبدالعزيز . وقد اخبرنا عميد الكلية ورئيس قسم التاريخ أنهم تعاقدوا مع استاذ متميز في التاريخ من جامعة القاهرة هو الدكتور حسنين محمد ربيع. والتقينا به في أول محاضرة في مادة منهج البحث التاريخي .في السنة المنهجية، وكنا خمسة طلاب . واستمر في محاضراته لنا في هذه المادة طوال العام الدراسي وكان فعلا استاذا متميزا علمنا بطريقة علمية بديعة خطوات البحث العلمي. وكان على خلق رفيع وتعامل قل نظيره فلم يتضايق البتة من أي سؤال ولم يغضب قط من أي طالب منا.

وفي آخر العام اخترته مشرفا لي وبعد مناقشات وتوجيهات صائبة منه لي اتفقنا على أن يكون موضوع رسالتي للماجستير بعنوان (بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ٤٦٣-٤٩٠هجرية).

وكان الطلاب في ذلك الحين يواجهون مشكلات عويصة بسبب عدم توفر المصادر والمراجع لقلة المكتبات وعدم توفر الفهارس وضعف وسائل الاتصال. وأخبرني استاذي الدكتور حسنين ربيع - رحمه الله – بأنه يُقام في القاهرة في حي الحسين في رمضان من كل عام معرض للكتب ونصحني بالسفر والافادة من هذا المعرض. ونفذت نصيحة أستاذي وقضيت شهر رمضان سنة ١٣٩٩ هجرية في القاهرة وتمكنت فعلا من شراء معظم مصادر ومراجع رسالتي.

وكان الدكتور حسنين ربيع -رحمه الله -يسكن حينها في شقته في مصر الجديدة. واصر عليّ عدة مرات على الإفطار معه في بيته فوجدت منه كرما جما قل نظيره وكنت أخرج من عنده وانا مصاب بالتخمة – ولا أبالغ في هذا القول- من اصراره على أن آكل من كل الاطباق التي اعدتها زوجته – جبر الله مصابها وجزاها خير الجزاء- وهي أطباق تشبع عشرات الرجال. ولكن ماذا أقول: أنه الكرم الحاتمي ولا شيء غيره. وقد استضافني قسرا في عيد الفطر ١٣٩٩ هجرية فكان الكرم نفسه.

وقد كثُرت الكتب التي اشتريتها وقد وصل وزنها الى نحو نصف طن وهي مكلفة بالطائرة فنصحني استاذي باتخاذ طريق البحر من السويس الى جدة فاخذت بنصيحته وعدت عن طريق البحر.

وبدأت في جمع مادة رسالتي العلمية في بطاقات تحت اشراف أستاذي الدكتور حسنين ربيع الذي كان يقرأ كل بطاقة ويكتب توجيهاته بالقلم الأحمر وبعد الانتهاء من جمع المادة العلمية بدأت في الكتابة وعلى المنهج العلمي نفسه . وقد استفدت كثيرا من توجيهاته -رحمه الله-

وبعد الانتهاء من الرسالة وكتابتها أراد استاذي رحمه الله افادتي أكثر واكثر بأن يكون احد المناقشين لرسالتي هو الرائد الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور رحمه الله الذي كان حينها في جامعة الكويت ونوقشت رسالتي وأجيزت بتقدير ممتاز سنة ١٤٠٢ هجرية/١٩٨٢م . وقد استفدت من ملاحظات وتوجيهات الدكتور سعيد عاشور الى اقصى حد وتحقق لي ما أراده لي استاذي حسنين ربيع -رحمه الله

وقد عاد الدكتور حسنين رحمه الله الي القاهرة في العام التالي ١٤٠٣هجرية/١٩٨٣م ليتقلد مناصب عديدة منها عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة ونائب رئيس جامعة القاهرة ورئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة وعضو لجنة الترقيات بالجامعات المصرية وغيرها من المناصب.

لكن العلاقة بيننا لم تنقطع فكنا على تواصل دائم. والمأزق الذي كنت أعانيه معه عندما أسافر الى القاهرة هو كرمه الفريد فيصر على دعوتي على مأدبة فاخرة تنم عن الكرم المتأصل في نفسه، وإجباري على أكل كمية فوق طاقتي خصوصا بعد اصابتي بالسكر بعد سن الأربعين وقد انجز الدكتور حسنين ربيع رسالته للماجستير بعنوان (النظم المالية زمن الأيوبيين) بجامعة القاهرة وحصلت على الامتياز مع التوصية بالطبع.

وابتعثته جامعة القاهرة الى جامعة لندن لدراسة الدكتوراه . ولم يسافر الا وله كتاب مطبوع ورغم أن جامعة لندن عينت للدكتور حسنين مشرفا يهوديا مغرضا على رسالته هو المستشرق برنارد لويس إلا أن الدكتور حسنين فوت عليه فرصة التأثير عليه بان اختار موضوعا ذا صلة برسالته للماجستير فاختار موضوعا يتعلق بالنظام الاقتصادي زمن المماليك بعيدا عن تاريخ الاسلام وعقائده ورموزه وحصلت رسالته للدكتوراه من جامعة لندن على مرتبة الشرف مع التوصية بالطبع.

ويعتبر الدكتور حسنين من رواد دراسة التاريخ الاقتصادي برسالتيه في الماجستير والدكتوراه. وهو اول باحث عربي استخدم وثائق الجنيزة العبرية في دراسته. ولن اتعرض هنا لذكر مؤلفات وتحقيقات وبحوث الدكتور حسنين ربيع الاخرى التي اتوقع ان يحصرها بعض تلاميذه.

والدكتور حسنين ربيع شديد الورع والتدين -رحمه الله -فكان خلال اقامته في مكة يذهب ليصلي في الحرم كل يوم تقريبا . وحج بعد عودته الى مصر مرات عديدة . ومن أعمال الخير التي قام بهافي قريته الاصلية التي تقع في الواحات الغربية أنه بنى فيها مسجدا على حسابه الخاص

وأصر أهل قريته على تسميته " جامع الدكتور حسنين ربيع ومن أفضال الدكتور حسنين ربيع – رحمه الله – التي لا أنساها توفير مصادر غربية مهمة لي في دراسة العدوان الفكري الغربي على الاسلام وعلى رأسها كتاب المستشرق والمنصر صمويل زويمر عن ريموند لول وكتاب المؤرخ البيزنطي نيكتاس خونياتس وغيرها.

حيث استطاع الدكتور حسنين ربيع بعلاقاته الجيدة تصويرها من بعض مكتبات الاديرة مثل دير الرهبان الدومنيكان، والرهبان الفرنسيسكان.

رحم الله استاذنا الدكتور حسنين محمد ربيع وأسكنه فسيح جنته وجمعنا به في مستقر رحمته.

Hassanein Mohamed Rabie (1938 – 2019)

Jere L. Bacharach
University of Washington, Seattle

In JAN., 2019, Hassanein Rabie, the Egyptian scholar of medieval Islamic history, passed away. Widely known in Europe and North America to an older generation of scholars because of his scholarship and lectures in many parts of the world before administrative work came to dominate his life, the following is a summary of Hassanein's academic career.

As an outstanding undergraduate and M.A. student at Cairo University in medieval Islamic history, Hassanein was awarded a scholarship in 1964 to undertake his Ph.D. at SOAS, London University, under the direction of Bernard Lewis, then the doyen of specialists on medieval Islamic history. Completing his degree in 1969 after serving as a lecturer in medieval Islamic history at SOAS, Hassanein joined the Department of History, which was his official academic home for the rest of his life.

As a scholar Hassanein was most active during the following decades. He published his dissertation as *The Financial System of Egypt (AH. 564-741/ A.D. 1169-1341)* (Oxford: Oxford University Press, 1972), which is still sited today in studies of Ayyubid and early Mamluk history, a well-deserved, long shelf life for any scholarly work. As Hassanein shared with me, his research priority then shifted to editing medieval Arabic texts as he felt that properly trained Egyptian scholars had the Arabic and the methodological skills to do this time consuming, extremely important work. He edited and annotated Ibn Wasil's *Mufarrij Al-Kurūb fi Akhbar Bani Ayyūb* (History of the Ayyubids) as well as oversaw the work of others.

Hassanein quickly established a reputation as a demanding, but effective teacher at Cairo University and to give his students a broader knowledge of the medieval Mediterranean world, he offered courses on Byzantine history. Discovering that there was very little for them to read in Arabic on that topic, he wrote "Studies in the history of the Byzantine State," which went through six editions from 1983 to 1998. What his colleagues also discovered was that Hassanein was an extremely effective administrator and it was no surprise that he became Chair of his Cairo University department, but what no one could have predicted was that he moved on become a Vice Dean, College of Arts, then Dean, and finally a Cairo University Vice President from 1993 to 1998 as well as Director of Cairo University's Open Education Center which focused on distance learning. Even after his mandatory retirement Hassanein maintained an active interest in distance learning for Egyptians.

For over four decades Hassanein served as an advisor to the American Research Center in Egypt where his primary responsibility involved reviewing the applications of Americans who applied for ARCE fellowships to work on Islamic or Coptic topics. He was particularly sensitive to the

changing political winds in Egypt indicating to the ARCE Cairo office personnel when the wording of a proposed research project would create a problem. He also played a major role in seeking an appropriate Egyptian academician who would serve as the American's "Egyptian academic advisor." Because of this input ARCE rarely had a problem with Egyptian authorities over the work of their fellows.

I first met Hassanein, briefly, in London in 1965 when we were both graduate students but it was from 1971 that our friendship started and continued until his last years when recurring hospital stays and declining health limited his contacts and movement. We quickly established a routine where each would aid the other in acquiring books or articles for our research interests. Over time we expanded our exchanges to aid colleagues and family members who needed academic material not easily acquired in our home countries. Always a welcoming host, an evening spent with Hassanein and his family was always a highlight for me during a visit to Cairo. The scholarly world has lost a demanding scholar, an exceptional teacher, and an effective administrator and, for me, a friend.

بسم الله الرحمن الرحيم
كلمة أسرة الأستاذ الدكتور / حسنين محمد ربيع

بقلم :الأستاذ الدكتور/محمد حسنين محمد ربيع
رئيس قسم الهندسة المدنية بكلية الهندسة جامعة حلوان

الدكتورة / سحر حسنين محمد ربيع
أستاذ مساعد –كلية الآداب –قسم المكتبات والوثائق وتقنية المعلومات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نود فى البداية أن نتوجه بأسمى آيات الشكر والتقدير لأسرة جامعة القاهرة على المجهود الرائع وشهادة الحب الصادقة من القلب للأستاذ الدكتور / حسنين محمد ربيع

ونخص بالشكر الأستاذ الدكتور / محمد عثمان الخشت ..... رئيس الجامعة

والأستاذ الدكتور / أحمد الشربيني ..... عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة

وأسرة قسم التاريخ ، لكم جميعا كل الشكر والامتنان والتقدير لما شعرنا به من خالص الود والتقدير لشخص والدي الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع .... رحمة الله عليه.

قال الله -تبارك وتعالى- في مُحكَم كتابه العزيز:

((يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً))

نُساهِم اليوم في تأبين عَلَم من أعلام الفكر، وطوداً من أطواد الجامعة ونتشرف بأن نتقدم برثاء والدنا العزيز رحمة الله عليه

= إلى من فقدنا بفقده أباً كريماً، وأخاً ناصحاً، ومُستشاراً مؤتمناً .

= إلى من سألنا الله أن يرزقنا بره في حياته، ونحن الآن نسأله تعالى أن يرزقنا بره بعد وفاته.

عليك سلام الله ورحمته وبركاته، أبينا الحبيب وبعد،

هذه الرسالة مهداة إلى روحك الطاهرة - بإذن الله تعالى - لتهدئ لوعة الفؤاد بعد أن حال بيننا وبينك عالم البرزخ ؛ ولتكون ضرباً من ضروب التواصل بين العطاء و الوفاء، ولتكون نوعاً من رد الجميل والاعتراف بالفضل بين الأبناء والآباء . وفيها نقول مُستعينين بالله وحده.

أبينا الحبيب أشتاقت أرواحنا إلى مناجاتك فقد جف الدمع في أعيننا فقط لأننا شعرنا أن الله عز وجل قد أعزك ورفعك منزلة الصديقين والشهداء إن شاء الله بعد رحلة المرض الأخيرة التي أمتحنك العلي القدير بها وصبرت وتحملت الى أن أسترد الله وديعته .

أبينا الحبيب كنا دائما نسعد بالقرب منك ونتعلم من بُعد نظرك وعطفك ودائما وابدا كنا نسعد بخدمتك وكنا نتألم لألمك في مرضك الأخير ولكننا أيقنا أن رحمة الله عز وجل بك هي كل ما تتمنى أنت ونحن .

إن ما زرعته فينا أبينا الحبيب من الأمانة و الصدق في الكلمة والموقف وحب تقوى الله العلي القدير كان لهم الدور الرئيسي في إحياء ضمائرنا وجعلت حب الله العلي القدير هو الغاية الأسمى التي نسعى دائما للوصول اليها من خلال أن يكون العمل موجه لوجهه الكريم .

أبينا الحبيب على المستوى العلمي والعملي، ألتقطنا منك الكثير ونحرص إن شاء الله على الحفاظ عليه ، الدقة والأمانة وكيف يكون الأستاذ الجامعي، علمتنا ميثاق للأخلاق ،وكيف نكون

قادرين على ما يقع على عاتقنا من أعباء سواء إدارية أو علمية، وقد كان كل ذلك دون توجيه كلمة واحدة ولكن فقط بتتبعنا نحن لتصرفاتك مع المواقف صغيرها وكبيرها .

أن ما منحك الله العلي القدير من الحكمة وبُعد النظر وخبرة في الحكم على الأمور ومشاهدة ما وراء السطور جعلت منك رحمة الله عليك كبير عائلة أمتدت فروعها لتظل أنت الكبير رغم رحيلك عنا و الكل يمشي على هداك بحب ورضا .

كنت تسعى رحمة الله عليك جاهداً لبناء أسرة كبيرة ممتدة، مقدما المشورة الصادقة للكبير والصغير بحنو وصبر وحكمة ينمي بداخلنا الإيمان والرضا والقناعة بالمال الحلال وكنت دائماً مردداً مقولة (بأن المال كاللبن أحرص على نقائه ولا تترك بعض الأتربة تصل اليه حتى لا يتلوث) .

على الصعيد المهني والانساني ايضا

فمنذ عودته لمصر بعد حصوله على درجة الدكتوراه من المملكة المتحدة لم يدخر الدكتور حسنين ربيع وسعاً في خدمة مجال تاريخ العصور الوسطى وعلم التاريخ بفروعه على وجه العموم فكان حبه لجامعته وفخره بالانتماء لها ولكليته وتخصصه هي من ابرز ما يميزه رحمة الله عليه.

وقد رفض كل ما عرض عليه فى بداية حياته العملية من عروض مغرية للعمل في الخارج بعد حصوله على الدكتوراه ،حيث عرض عليه مشرفه فى جامعة لندن ذلك ، وعندما تأكد أنه لا سبيل الا الرجوع لأرض الوطن أخبره قائلا

"أنا على يقين من نجاحك فى أى مكان تذهب إليه ولكن على يقين أكثر من أن حبك لوطنك مصر ورغبتك فى العودة لبلادك تفوق أى عرض يمكن أن يعرض عليك "

حين عُين مستشاراً لمصر فى المملكة المتحدة من قبل الأستاذ الدكتور / حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم العالى السابق وكان ذلك في عهد أستاذنا الدكتور مفيد شهاب رئيسا لجامعة القاهرة .

وبعدأصدار الجوزات الدبلوماسية له بالرغم من العائد المادي الكبير الذى كان سوف يحصل عليه ولكنه اختار أن يكون فى رحاب جامعة القاهرة كنائب لرئيس الجامعة لشئون البيئة وخدمة المجتمع مع ا.د.مفيد شهاب رئيس الجامعة فى حينه واهتموا بالمواسم الثقافية القوية مما غير فكر الشباب في حينه.

ولم ينس الفقيد مسقط رأسه الوادي الجديد حيث كان أباً لكل المغتربين من طلبة الوادى الجديد سواء بمساعدتهم في التسكين بالمدن الجامعية أو مراعاته الإنسانية لهم في تكملة مشوارهم العلمي. وكان حريصا على الرغم من معاناة السفر الى الوادي مع ظروفه الصحية الصعبة أن يقيم هناك مسجد آل ربيع بالوادى الجديد بالداخلة عسى الله أن يتقبله منه ويجعله في ميزان حسناته.

وفى النهاية :

الموت حقيقة واقعة لابد للجميع من الإيمان بها حيث يقول المولى تعالى: ((الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا))

غفر الله لك يا والدنا وتجاوز عن سيئاتك، وتغمدك بواسع رحمته، وجزاك الله عنا وعن والدتنا وأخواتنا وأفراد عائلتنا وتلاميذك ومحبيك وكل من تعلق قلبه بلقائك خير الجزاء يا من كنت لنا بحق الأب الحنون، والأخ الكريم، والصديق الصدوق . والله نسأل أن يُحسن عزاءنا، وأن يُعظِّم أجرنا، وأن يجبر مصيبتنا فيك، وأن يُلهمنا الصبر على فقدك، وأن يجعلنا من الصابرين الذين قال سبحانه وتعالى فيهم : { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ " وأن يجمعنا بك في جنان الخلد في الحياة الآخرة إن شاء الله.

وأخيرا اسمحوا لي أساتذتى الكرام أن أتقدم لكم بطلب من أسرة الفقيد وهو إن أمكن تسمية قاعة العصور الوسطى بقسم التاريخ باسم الفقيد الكريم حتى تظل ذكراه في أذهان تلاميذه وطلابه وخاصة أنه كان دائما وأبداً حريصاً على ان يدرس فى هذه القاعة لطلبة الدراسات العليا على الرغم من صعوبة الوصول اليها بعد مرضه فقد كان رحمة الله عليه محبا لتخصصه وقسمه .

شكراً جزيلاً وجزاكم الله جميعاً خيرالجزاء

أبحاث مهداه

الفندلاوي والحلحولي (ت ١١٤٨م)
بطلان شعبيان من عصر الحروب الصليبية

أ.د. محمد مؤنس عوض
أستاذ تاريخ العصور الوسطي
كلية الآداب جامعة عين شمس

يتناول هذا البحث بالدراسة أمر اثنين من الابطال الشعبيين في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، وتحديدا خلال القرن الثانى عشر م.، فى صورة الفندلاوى والحلحولى، ويتعرض لصعوبات الدراسة، ثم ما ذكرته المصادر التاريخية عن واقعة استشهادهما، ومن بعد ذلك النتائج الختامية التي أمكن التوصل إليها من خلال تلك المعالجة. والواقع أن الباحث فى هذا الموضوع يواجه مشكلة واضحة المعالم فى صورة قلة، إن لم تكن ندرة الإشارات المصدرية فى المصادر العربية، إن لم يكن تكراريتها، إذ يلاحظ أن المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث، وهما ابن القلانسى (ت ١١٦٠م) وابن عساكر (ت ١١٧٦م)، لم يوردا فى كتابيهما ذيل تاريخ دمشق، وتاريخ مدينة دمشق سوى بضعة أسطر قليلة عن العلمين المذكورين، كذلك وردت إشارات من مصادر تاريخية تالية للقرن الثانى عشر م فى صورة ما ألفه أبو شامه المقدسي (ت ١٢٦٧م)، وابن خلكان (ت ١٢٨٢ م)، والذهبى (ت ١٣٤٨م)، وكل أضاف إضافات يسيرة للغاية لا تشفي تحليل الباحث المتلهف لمزيد من المعلومات عن واقعة محورية ومهمة ذات بعد شعبى فى تاريخ الصراع الإسلامى- الصليبى.

ولا تعليل للوضع السابق إلا من خلال إدراكنا لحقيقة جلية تتمثل فى أن المؤرخين المسلمين المعاصرين لمرحلة الصراع بين الشرق الإسلامى والغرب الأوروبى الكاثوليكى، خصصوا مؤلفاتهم لتناول الأحداث السياسية والحربية الطابع مثلما نجد ذلك في كتب الحوليات وما أكثرها؛ كما أن منهم من خصص كتباً لقادة الجهاد الإسلامى مثل صلاح الدين الأيوبى (ت ١١٩٣م)، والظاهر بيبرس (ت ١٢٧٦م) مثلما فعل بهاء الدين بن شداد (ت ١٢٣٨م) فى النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، وابن عبد الظاهر (ت ١٢٩٣م) فى كتابه الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر؛ على حين نجد الأبطال الشعبيين الذين لم يعملوا فى مجال السياسة، لم يحظوا بذات القدر من الاهتمام، وهو أمر متوقع بطبيعة الحال من خلال تتبع تطور الكتابة التاريخية الإسلامية ذاتها، والانتماءات الطبقية، والارتباطات الرسمية للمؤرخين المسلمين أنفسهم.

ومن المهم هنا الإتجاه إلى كتب الوفيات والطبقات والتراجم من أجل تعويضنا النقص فى كتب الحوليات، إلا أنها – هى الأخرى- لا تقدم لنا إشارات ضافية عن الرجلين.

وبصفة عامة، وكنتيجة للوضع السابق، هناك العديد من الفجوات والتساؤلات التى تثار فى شأن واقعة استشهادهما، وبدون الافتراض واتباع المنهج التحليلى، ليس فى مقدور الباحث التوصل إلى نتائج علمية حقيقية وراء بحثه.

أضف إلى ذلك، أن المصادر التاريخية السالفة الذكر لا تفصح لنا عن تطور صورة البطلين المذكورين فى الوجدان الشعبى على نحو يجعل الباحث يحاول استنتاج وتحليل الشذرات المتناثرة ليعالج الفجوات المصدرية الحادثة المذكورة.

مهما يكن من أمر، إندلعت شرارة الحرب العالمية فى العصور الوسطى ما عرف بالحروب الصليبية Crusades, Croisades, Kreuzzuge، على إثر دعوة البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٩-١٠٩٩م) فى مجمع كليرمونت Clermont بفرنسا فى ٢٧ نوفمبر عام ١٠٩٥م[١]، وكان ظاهرها الدافع الدينى واسترداد الأماكن المقدسة لدى المسيحيين في فلسطين، وفى الواقع التاريخى وجدت عدة دوافع محورية واقتصادية وسياسية واجتماعية حركتها[٢].

وقد تمكن الغزاة من تكوين إمارات لهم فى بلاد الشام وأعالى الفرات فى صورة الرها Edessa، وأنطاكية Antioch، ومملكة بيت المقدس Jerusalem، وطرابلس Tripolis، وجاء ذلك من خلال تاريخ مخضب بالدماء من مظاهره مذبحة بيت المقدس الشهيرة ١٥- ٢٥ يوليو ١٠٩٩م [٣].

وقد تأكد للدارسين أنهم أمام حركة الإستعمار (أى الإستدمار) الأوروبى فى العصور الوسطى؛ وأن كيانات أوروبية مسيحية كاثوليكية تم غرسها قهراً على الأرض المسلمة، وتمكن الغزاة من تحقيق ذلك الأمر خلال أعوام قليلة من خلال كفاءتهم الحربية والتشرذم السياسى الذى كان عليه المسلمون وتصارعهم المذهبى والطائفى والعرقى، الذى جعل من بلاد الشام وأعالى

الفرات منطقة جذب لقوى سياسية خارجية اغتنمت لفرصة على حساب أهلها الأصليين، فالتقت مؤامرة الداخل والخارج معاً.

وقد قامت حركة الجهاد الإسلامى بدورها على نحو متدرج من خلال فعاليات شعبية ومنظمة بقيادة عدد من القيادات نذكر منهم، كربوغا(١٠٩٥- ١١٠١م)، وجكرمش (١١٠١- ١١٠٦م)، وجاولى سقاوة (١١٠٦- ١١٠٨م)، ومودود بن التونتكين (١١٠٨- ١١١٣م)، وأقسنقر (١١١٤- ١١١٥م، ١١٢١- ١١٢٦م) وصولا إلى عماد الدين زنكى (١١٢٧- ١١٤٦م)، والذى تمكن المسلمون بقيادته من تحقيق الإنجاز الأكبر خلال النصف الأول من القرن ١٢م فى صورة إسقاط إمارة الرها الصليبية، وهى أولى الإمارات التى أقامها الغزاة فى أعالى الفرات، وجاء سقوطها كنتاج طبيعى لتعاون عوامل السقوط الداخلية، وكذلك الخارجية؛ إذ أن السقوط فى التاريخ يبدأ دائما من الداخل، وتعطى العوامل الخارجية الشكل النهائى له، وحدث ذلك عام ١١٤٤م[٤].

والواقع أن ذلك الحدث التاريخى البارز عكس عدة دلالات، منها أن حركة الجهاد الإسلامى قد بلغت مرحلة النضج والفعالية التاريخية، إذ صارت قادرة على إسقاط إمارة صليبية عدت بمثابة رأس البلطة الصليبية التى تركز ذراعها فى الساحل الشامى، وهو الرئة التى تتنفس من خلالها الغزاة وربطهم بالوطن الأم فى الغرب الأوروبى، كما أنها مثلت محطة إنذار مبكر أنذرت شقيقاتها الصليبيات إلى الغرب منها بأية تحركات إسلامية قادمة من الشرق.

ومن المهم هنا الإقرار بأن ذلك الإنجاز لم يحدث إلا كتطور تاريخى طبيعى لمرحلة سابقة بدأت من مطلع القرن ١٢م، كما أن انتصار ١١٤٤م لا يرتكز حول أتابك الموصل عماد الدين زنكى "كبطل فرد"، بل لا بد هنا من إبراز دور "البطل الشعب" الذى أفرزه أصلاً حتى لا تقع فى أسر كاريزما البطل الفرد على نحو يتعارض مع ألف باء الموضوعية التاريخية الواجبة والملزمة؛ والواقع أن دراسة تاريخ الحروب الصليبية دون بعدها الشعبى سواءً لدى الغرب الأوروبى- الذى قام بالعدوان على الشرق- مثل التحدى التاريخى له. وكذلك الشرق الإسلامى الذى تعرض لذلك العدوان وقدم استجابته التاريخية، يجعلنا لا ندرك حقيقة تلك الظاهرة الفريدة فى أمر العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى.

وطوال ذلك العصر كان البعد الشعبى واضحا فى قضية الصراع مع الصليبيين، وفى هذا الصدد نلاحظ أن حركة الجهاد الإسلامى استقطبت عناصر مسلحة من خارج النطاق الجغرافى لبلاد الشام فى صورة المغاربة الذين شاركوا بفعالية واضحة على نحو أشار إليه الرحالة الأندلسى ابن جبير (ت ١٢١٧م) فى رحلته الشهيرة على نحو عكس أن تلك الحركة لم تكن مشرقية الطابع فحسب، بل امتدت إلى أقصى حدود العالم الإسلامى غرباً، مما عكس شموليتها.

وقد وجدت عدة دوافع، دفعت بالمغاربة للقدوم إلى بلاد الشام، إذ أن هناك الجانب الدينى فى صورة القيام برحلة الحج إلى المحارم الإسلامية المقدسة بالحجاز، ثم التوجه إلى بلاد الشام والإستقرار بها للمشاركة فى أمر الجهاد بصورة فعلية، كذلك هناك غض العمل المتعددة التى توافرت لهم على نحو أقر به الرحالة سالف الذكر، وقد قام بدعوة بنى تومه للقدوم إلى هناك، خاصة أن أهل بلاد الشام أحسنوا معاملة المغاربة[٥]، كما لا نغفل الرحلة لطلب العلم، وكذلك تدريسه على نحو جعل الموافد الشامية الكبرى مثل دمشق، وحلب وغيرها قبلة لمقدم الطلاب والعلماء المغاربة؛ وإذا أضفنا إلى ذلك كله مجاورة الشام لمصر جنوباً، والعراق شرقاً، أدركنا أن عبقرية الموقع الجغرافى لها كان من عناصر الجذب المغربى للقدوم إليها.

كما لا نغفل عدم وجود حدود سياسية فاصلة تخترق أرجاء العالم الإسلامى فى العصور الوسطى – وهو عكس واقعنا الحالى المرير- على نحو أدى إلى سهولة إنتقال الأفراد على نطاق جغرافى بالغ الإتساع بين ثلاث قارات، ولا ريب فى أن ذلك كله انعكس إيجابيات على مقدم المغرب إلى المشرق دزنما كبير عناء.

ومن خلال ذلك، يمكن إدراك وجود شخصية مثل يوسف بن دوناس بن عيسى، المعروف بأبو الحجاج الفندلاوى، وهو فقيه مالكى المذهب قدم إلى بلاد الشام، ونعرف أنه سكن بانياس (الداخلية)[٦] فى مرتفعات الجولان، وانتقل من بعدها إلى دمشق، حيث قام بتدريس الفقه المالكى بها[٧]، وبالتالى، كانت له قاعدة من طلابه ومريديه؛ ويلاحظ أنه انتسب إلى "مندلاو"، وقد حددها ياقوت بأنها موضع بالمغرب[٨]، دون أن يفصل لنا أمره؛ ومن المرجح أن قوله موضع يعكس أنه مكان لا يوصف بمدينة أو حتى بلدة، ومن المفترض وقوعه فى المغرب الأقصى نظرا لتوارد إسم دوناس هناكن وقد يكون من مضارب قبيلة زناته.

أما العلم الثانى فى بحثنا، فهو الحلحول، وهو عبد الرحمن بن عبد الله الحلحولى الحلبى، وهو ينتسب إلى قرية حلحول، وقد بعدت ٧ كم عن مدينة الخليل باتجاه الشمال، على طريق الخليل-

بيت المقدس، وقد وقعت في منبسط ارتفع ٩٩٧م عن سطح البحر فوق جبال الخليل، وهي منطقة عرفت بكثرة ينابيعها، إذ بلغت ما زاد على عشرين نبعاً أشهرها عين الذروة، وعين الحسا، وعين مرج السور[٩] ولا مراء في أن مثل تلك المنطقة الغنية بمواردها المائية والزراعية، لم تغب عن أطماع الغزاة الذين كانوا يلهثون وراء الأرض والمياه، كجزء من سياسة سلب ونهب موارد البلاد من أبنائها الأصليين.

وقد أقام الحلحولي في بلدته، وأقام بها مسجداً[١٠]، وذلك في ظل خضوعها للصليبيين، حيث ذكر الذهبي ما نصه: "يبنى بها مسجداً وتعبد فيه بين الافرنج"[١١]. بل الملفت للانتباه ارتفاع شأن تقواه وورعه، حتى أن الصليبيين أنفسهم كانوا يتبركون به ويعتقدون فيه[١٢]، وذلك يعكس لنا حجم التأثير الذي تركه الزهاد المسلمون على قلوب حتى أعدائهم الذين كانوا في بلادهم الأوروبية يتبركون بقديسيهم.

ومن المفترض – منطقيا- تزايد شعبيته لدى المسلمين الخاضعين للإحتلال الصليبي، خاصة أنهم كانوا في أمس الحاجة للالتفاف حول "رمز" ما من أجل أن يعينهم على الصمود في وجه الغزاة الذين جعلوهم في منزلة اجتماعية ودينية مقارنة بسواهم بين طبقات المجتمع الصليبي.

ويلاحظ أن أوضاع المسلمين الخاضعين للاحتلال الصليبي[١٣]، لا تزال تحتاج إلى دراسة، خاصة أنهم قاوموا الصليبيين عسكرياً؛ وطريق يافا-القدس[١٤] (٦٣ كم) الجبلي الوعر، خير برهان ودليل كما أفضت عن ذلك مؤلفات الرحالة الأوروبيين أنفسهم.

وهكذا؛ فنحن أمام متصوف عامل متفاعل مع الواقع المأساوي للمسلمين، الذي نتج عن الاحتلال الصليبي، وقد ترك فلسطين، ولا تحدد لنا المصادر متى حدث ذلك؛ وارتحل إلى مصر[١٥]، ودل ذلك على ظاهرة "الشامصر"، وهي تلك الرابطة الجغرافية والتاريخية الضاربة بجذورها بين بلاد الشام ومصر، خاصة أن أرض الكنانة قدم إليها الكثيرون من أهل فلسطين الذين هجّرهم الغزو الصليبي الآثم.

قم نراه من بعد ذلك اتجه إلى دمشق وارتفعت مكانته لدى الدماشقة، على نحو جعل مؤرخها الكبير ابن عساكر، يصفه بأنه كان من كبار الصالحين والعباد"[١٥]، بل زاد في قوله بأنه التقى به عدة مرات، وانتفع بعلمه، بل أقرّ صراحة: "ما رأيت بالشام في فنه"[١٦]، وهي شهادة صادرة عن مؤرخ قدير خبير بأقدار الرجال، فإذا ما أدركنا أن ابن عساكر تلقى العلم على أيدي نحو (١٢٨٢) شيخاً وشيخة، إلى درجة أنه ألف كتاباً في الشيوخ الذين علموه، أدركنا عندئذ قيمة وصفة الحلحولي بذلك الوصف.

والواقع؛ أننا لا نفهم انتقال الحلحولي من حلحول إلى مصر، ثم إلى دمشق، إلا من خلال حركة النزوح التي قام بها أبناء فلسطين[١٧] الذين تعرضوا للغزو الصليبي، أو ما أطلق عليه "الجفل" عندما واجهوا المذابح الصليبية.

وهكذا ندرك أن الفندلاوي كان فقيها، أما الحلحولي فكان متصوفاً، ولا نعرف أمام صمت المصادر التاريخية- متى التقى الاثنان معاً، غير أنه من المفترض أن صداقة ما نشأت بينهما، وجمعهما الكثير من عوامل الارتباط؛ إذ أن حركة الجهاد في الغرب الإسلامي، واشتداد ساعة الاسترداد الأسبانية في الأندلس Reconquesto والتي كان المغرب على مرأى ومسمع منها، ثم الرحلة الشامية من الحروب الصليبية كما أدركها الفقيه المسلمي (ت ١١٠٧م) في رسالته عن الجهاد[١٨]، والتي كان يترددصداها في دمشق، لا ريب في أن ذلك وحد الرجلين أمام خطر داهم مشترك واجه المغرب والمشرق الإسلاميين.

كما اتفقا في أمر الرحلة، وإن كانت رحلة الفندلاوي كانت أطول بمقياس الجغرافيا من المغرب إلى بلاد الشام؛ أما الحلحولي فرحلته أقصر لتنقّله بين مصر ودمشق، كذلك اتفقا في الرحلة العمرية، إذ يفهم من السياق العام للأحداث أنهما في عام ١١٤٨م، كانا متقدمين في العمر[١٩] دون إمكانية تحديد ذلك؛ ومن المفترض- دون التأكد- أنهما تجاوزا الستين عاماً، وهو أمر يدعونا إلى إمكانية إفتراضه حوار القيادة الإسلامية مع أحدهما.

ومع العوامل المشتركة المذكورة نلاحظ فارقا من خلال أن الحلحولي كان- على الأرجح- أكثر شعبية، حيث كانت كرامات المتصوفة تجذب حشوداً كبيرة- خاصة في عصر الحروب الصليبية- فتحولوا إلى قيادات شعبية روحية لا يمكن تجاهل تأثيرهم في توجيه الرأي العام.

على أية حال؛ كان لفتح الرها عام ١١٤٤م أثره الكبير على الغرب الأوروبي، حيث تأثر الملف الدفاعي الإستراتيجي بين الكيان الصليبي في شرقي البحر المتوسط Levant والوطن الأم الذي أفرز الظاهرة الصليبية في الغرب الأوروبي؛ ومن ثم قامت ما أطلق عليه الباحثون الحملة الصليبية الثانية[٢٠] (١١٤٧- ١١٤٩م) مع ملاحظة أن المشروع الصليبي كلّ لا يتجزأ، وأن الرقمية

هنا ما هى إلا لتسهيل الدراسة دون أن ينكبق ذلك على الواقع التاريخى ذاته.

وقد قام بالدعوة لتلك الحملة القديس "برنارد دى كليرفوه Bernard de Clairvaux (١٠٩٠-١١٥٣م)، فى مجمع فيزيلاى، وقد اشترك فيها كل من الملك الفرنسى لويس السابع Louis VII (١١٣٧- ١١٨٠م) والإمبراطور الألمانى كونراد الثالث Conrad III (١١٣٨- ١١٥٢م)، بالإضافة إلى الصليبيين المحليين وعلى رأسهم الملك بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٤- ١١٦٢م)، ومن الملاحظ أن الصليبيين بدلاً من الإتجاه نحو استعادة إمارة الرها، إذا بهم يفضلون الإتجاه صوب أتابيكية دمشق، التى كانت متهادنة معهم، وقد دفعتهم صوبها عدة دوافع يمكن إجمالها فى الآتى:

أولا: إن ضم دمشق يؤدى إلى تأمين الحدود الشمالية لمملكة بيت المقدس الصليبية بامتدادها الفلسطينى، ويحسم إخضاع مرتفعات الجولان الإستراتيجية دفاعياً ومائياً لسيادة الصليبيين، حيث كان الأمن المائى فى مقدمة أولويات الغزاة الذين حرصوا الحرص أجمعه على إخضاع منابع ومسارات ومصبات الأنهار الشامية قدر استطاعتهم.

ثانيا: تصور الصليبيون أن إخضاع عاصمة بلاد الشام التاريخية دمشق، من شأنه السيطرة على خطوط التجارة العالمية بوسط الشام، والمتجه صوب شرقى البحر المتوسط على نحو سيؤدى – فى حالة ذلك- إلى إمداد الخزانة الصليبية بأموال طائلة كانت فى أمس الحاجة إليها لتعويض فاقد الإنفاق العسكرى.

ثالثا: من المفترض فى حالة نجاح الغزاة ضم دمشق، توجههم بعد ذلك صوب حلب عاصمة شمالى بلاد الشام، المزدهرة تجارياً، وبالتالى القضاء على الخط الدفاعى الاستراتيجى حلب-الموصل؛ وهو المقابل لخط الرها-أنطاكية الصليبى.

رابعا: إعتقد الصليبيون أن إخضاع دمشق سيؤدى بالضرورى إلى تحقيق إنجاز دعائى بارز يرفع من شأن المشروع الصليبى فى الغرب الأوروبى، على نحو سيؤدى – حتما- إلى تدفق المتطوعين والحجاج إلى فلسطين بصورة تدعم الكيان الصليبى، على نحو يشبه ما حدث فى أعقاب نجاح الحملة الأولى فى الإستيلاء على القدس عام ١٠٩٩م، وبالتالى يمكنهم المساهمة- جزئيا- فى حل مشكلة نقص العنصر البشرى، وهى المشكلة المزمنة التى أرقت الغزاة على مدى تاريخهم فى بلاد الشام[٢٢].

على أية حال؛ وصل الصليبيون بجيشهم إلى بانياس (الداخلية) بالجولان، وعقدوا اجتماعا مع عدد من أولئك العارفين بطبوغرافية المنطقة، وأدركوا أن أفضل طريقة لإخضاعها تتمثل فى الإستيلاء على منطقة البساتين، التى أحاطتها من أغلب الجهات[٢٣]؛ وتابع الصليبيون سيرهم حتى وصلوا إلى قرية داريا فى ٢٣ يوليو ١١٤٨م.

ولا نغفل هنا؛ الإشارة إلى أن الملك بلدوين الثالث وقواته كان فى المقدمة، نظراً لمعرفته المنطقة، ومن بعده جاء لويس السابع وقواته، ثم الأمبراطور كونراد الثالث وقواته[٢٤].

وقد بلغ الغزاة المزة يوم السبت ٢٤ يوليو ١١٤٨م، وحاولوا الوصول إلى نهر بردى، وهو المرجح، نظراً لكونه النهر الرئيسى والأغزر[٢٥].

ويبدو أن معركة حدثت يوم السبت ٢٤ يوليو ١١٤٨م، حيث خرج قيادتان سياسيتان هما معين الدين أمز، ومجيد الدين أبق، على رأس جيش كبير من أهل دمشق، وكان من بينه الفندلاوى والحلحولى وأتباعهما؛ وقد استشهد من المسلمين مائتين، وذلك فى منطقة اليزب (وهو اسم قديم لمنتزه فى موضع حى أبو رمانة والمالكى بين الربوة ودمشق شمالى طريق بيروت). ومن بينهم العلمان المذكوران[٢٦].

ولا ريب فى أن تلك المقاومة الشعبية من جانب أهل دمشق، حولت مسار الأحداث، إذ أدرك الغزاة أن عاصمة بلاد الشام التاريخية ليست لقمة سائغة لكل طامع غاصب؛ وقد قام الدمشقية بقطع الأشجار ووضعها لتعيق تقدم الغزاة، كما حدثت اتصالات دبلوماسية بين القيادات السياسية الدمشقية والصليبيين المحليين للتفرقة بينهم، وبين الصليبيين الأوروبيين؛ واتجه الغزاة إلى نقل معسكرهم إلى منطقة أخرى مكشوفة؛ إلا أن ذلك كان قراراً خاطئا، كما أن الدماشقة سارعوا بمطالبة النجدة من نور الدين محمود، سيد حلب.

وأمام كافة تلك الإعتبارات، أخفقت تلك الحملة الصليبية التى شارك فيها كبار ملوك وأباطرة أوروبا.

ومن المهم هنا، إبراز ظروف استشهاد العلمين الشعبيين الفندلاوى والحلحولى؛ إذ تذكر المصادر أن معين الدين أنر، رأى الفندلاوى، فطلب منه ألا يشترك فى القتال نظرا لتقدمه فى العمر، لكنه رد عليه قائلاً ما معناه أن الله اشترى[٢٧]، ويقصد قوله تعالى: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة"، وعكس ذلك الرفض الإصرار على المشاركة؛ ومن الواضح أن

ذلك "الحوار التاريخي" حدث على الملأ وعلى مرأى وسمع من الكثيرين؛ وكان له أثره في إثارة الناس، خاصة لدى العناصر الشابة التى رأت بأعينها، المتقدمين فى السن بمثل ذلك الحماس المتأجج، ولم يمنعهم أحد من المشاركة فى جهاد الغزاة.

كذلك تبرز المصادر حوار بين الفندلاوى والحلحولى، حيث سأل لصاحبه: "هل هؤلاء الروم؟" ويقصد الصليبيين، فأجابه: "نعم"، فقال: "إلى متى نحن وقوف[٢٩]؟" واتجه معه إلى قتالهم.

ولا تبرز لنا المصادر نوع المشاركة الحربية كما أننا لا نعرف مدى خلفيتهما الحربية، وجميعها زوايا نفتقد أية إشارات مصدرية عنها تلقى الضوء على نحو يعين على إبراز وقائع الأحداث.

وعن الأمور ذات الدلالة، أن استشهادهما حدث فى اليوم الأول من القتال مما عكس الريادة والمبادرة والرغبة الصادقة في الإقتدار على نحو حولهما إلى رمزين شعبيين ظلت الأجيال تردد قصتهما، ومن المفترض حدوث زيادات من المخيال الشعبى عمقته كرامات الحلحولى التى أقر بها، حتى الغزاة أنفسهم.

ويقرر ابن خلكان أن هناك من رأى الفندلاوى فى المنام فقال له: "ما فعل الله بك وأين أنت؟ فقال:" غفر لى، وأنا فى جنات عدن على سرر متقابلين"[٣٠]. ولا يفهم هذا النص إلا من خلال تعمق صورتهما كأبطال شعبيين فى الخيال الجمعى، بل أن هناك من يقرر زيارة قبرهما والدعاء هناك، ويذكر الذهبى، وهو معاصر للقرن ١٤م، أن الدعاء عند قبر الفندلاوى مستجاب[٣١]، ومن الجلى البين أن تلك العبارة جاءت تأكيداً للمعتقد الشعبى العام، ولتجربة الذهبى الشخصية ذاتها؛ وبالتالى دعم ما أورده من قبل أبو شامه عندما ذكر ما نصه عن الفندلاوى: "وقبره الآن يزار بمقابر باب الصغير"[٣٢].

أما الحلحولى، فقد دفن فى بستان الشعبانى، فى جهة شرق عند المسجد المحاذى لمسجد شعبان المعروف فى عصر أبى شامه بمسجد طالوت، حيث كان مقامه فى حياته هناك[٣٣]. وهكذا جمع ثرى دمشق التاريخ والحضارة العلمية، الشهيدين معاً، مثلما جمعهما عصر الحروب الصليبية؛ ومع تقادم الزمن، صارا جزءاً لا يتجزأ من ذاكرة العصر.

ولم يكن غريباً والأمر هكذا، أن خلّد الشعر العربى واقعة استشهادهما، إذ أوردت المصادر التاريخية قصيدة من نظم ابن الحكم الأندلسى أورد فيها من الأبيات الرائعة ما يلى:

بشطى نهر داريا ... امور ما تواتينا
وأقوام رأوا سفك ... الدماء فى جلّق دينا
أتانا مائتا ألف ... عديداً أو يزيدونا
فبعضهم من أندلس ... وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور ... ومن صيدا وتبنينا
إذا أبصرتم أبصر ... ت أقواما مجانينا
ولكن حرقوا فى عا ... جل الحال البساتينا

إلى أن يقول:

فولوا يطلبون الم ... رج من شرقى جسرينا
ولكن غادروا اليأ ... س تحت التربِ مدفونا
وشيخا فندلاوي ... فقيها يعضد[٣٤] الدينا

ولا نغفل أمراً مهماً، وهو أن صلاح الدين الأيوبى كان خلال عام ١١٤٨م صبياً صغيراً لا يتجاوز عمره ١١ عاماً، ومن المفترض أن شيئاً ما من أقاصيص تلك الواقعة وصلت إلى مسامعه، وبالتالى تكون واقعة استشهاد البطلين الشعبيين المذكورين ساهمت فى تكوين مخيلة صبى قدر الله تبارك وتعالى أن يقود المسلمين بعد ٣٩ عاماً من الانتصار تاريخي جاسم فى حطين فى ٤ يوليو ١١٨٧م[٣٥]، على نحو جعله يدخل بيت المقدس محرراً فى ٢ أكتوبر ١١٨٧م[٣٦] محققا حلم

الفندلاوى والحلحول الذى لم يطل بهما الأجل ليدخلا المدينة المقدسة بعد تحريرها من دنس الإحتلال الصليبى الغاشم.

يبقى أن نذكر أنه بعد حوالى ٨٠ عام من استشهاد الحلحولى ورفيقه فى عام ١١٤٨م، كان موطنه فلسطين يتعرض لهجمة شرسة وغزو صهيونى واستيطانى فى عام ١٩٤٨م، حيث أقيمت دويلة إسرائيل على أرض فلسطين، وتكرر القهر والقمع والتطهير العرقى الذى اعترف به المؤرخـون الإسرائيليـون المرجعيـونRevised مثل بنى موريس، وإيفى شلايم، وإيلان بابيه[٣٧] وغيرهم.

ونخلص من البحث إلى عدة نتائج، يمكن إجمالها فى الآتى:

- البعد الشعبى أساس لدراسة عصر الحروب الصليبية، ومن المهم البحث عن الرموز القيادية التى حركت عقول وقلوب الجماهير، ومن الممكن أن تجدها فى الفقهاء والمتصوفة الذين لم يسعوا إلى آية مناصب، وكانوا متصلين بالحشود البشرية، وساهموا فى إيقاظ الهمم للجهاد؛ وأن تجنب دراسة ذلك الجنب من شأنه أن يجعلنا ندور فى دائرة مغلقة من كتابة تاريخ القيادات السياسية المسلمة دون القاعدة الجماهيرية.
- رفض الخيال الشعبى موت البطل، بل جعله فى أعلى مكانة لأنه استشهد ليحيا عند ربه، ولذلك كان العلمان المذكوران الغائبين الحاضرين بل تتوقا على حكام دمشق السياسيين مثل معين الدين أنر، ومجير الدين أبق.
- إن العلمين المذكورين كانا جزءاً لا يتجزأ من قافلة الجهاد الطويلة السابقة واللاحقة، ومن المفترض أن استشهادهما على ذلك النحو الدراماتيكى، عمق وجودهما فى المصادر التاريخية؛ فلا عجب إن أورد تلك الحادثة عدد من المؤرخين المسلمين، على الرغم من اقتضاب تفاصيلها، بل ظلت تردد المصادر أمرهما لعدة قرون تالية، مما عكس دوام الرمز الشعبى، وعدم موته، ويؤكد أن الشهيد يتحدى الموت مرتين فى لحظة استشهاده، وفى استمراريته كرمز فى التاريخ.

ذلك عرض عن الفندلاوى والحلحولى كبطلين شعبيين من عصر الحروب الصليبية.

الهوامـــش

(١) عن خطاب البابا أوربان الثانى فى كليرمونت أنظر،

- Fulcher of Chartres, a History of the Expedition to Jerusalem, Trans. By Rita Rian, Tennessee 1967, pp. 62- 65
- Robert The Monk , in Peters, The Crusade, The Chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials, Philadelphia 1971, p. 14
- Guilbert of Nogent, in Peters, pp. 10- 13, Baldric of Dol, in peters, pp. 6-10
- Munro, "The Speech of Pope Urban II, at Clermont 1095", A.H.R., vol. XI, 1906, pp. 231- 242

- بحث رائد قديم وجديد ولا يمكن الإستغناء عنه.
- عبد السلام زيدان، الدعوة للحروب الصليبية على بلاد الشام ١٠٩٥- ١١٨٩م- رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة أسيوط عام م٢٠٠٤، ص ٨٨- ص؛١٢٠ محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب؛ ط. القاهرة ١٩٩٩- ٢٠٠٠م، ص ٦٦- ص٦٩؛ اسحق عبيد،روما وبيزنطه، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص ٨٣- ص ٨٦.

(٢) عن الحروب الصليبية بصفة عامة، أنظر المؤلفات الببليوغرافية التالية:

Atiya, The Crusade, Historiography and Bibliography, London 1962.

Mayer, Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzuge, Hannover 1962.

محمد مؤنس عوض، فصول ببليوغرافية فى تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٦م

(٣) عن مذبحة بيت المقدس أنظر،

Anonymous, The deeds of the Franks and the other Pilgrims in Jerusalem, Trans. by R. Hill, New York 1962, p. 51

Fulcher of Chartres, p. 122

Raymond d' Aguilliers, in Peters, p. 209.

إبن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق؛ تحقيق أميدروز، ط. بيروت ١٩٠٨م، ص ١٢٧؛ إبن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ط. ب-ت، ص ١٩٧؛ إبن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، ط. حيدر أباد الدكن ١٣٥٩هـ، ج٩، ص ١٠٨، اليافعى، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط. حيدر أباد الدكن ١٣٤٨هـ، ج ٣، ص١٥٤؛ سعيد عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ط. القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٥٧، قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية نصوص ووثائق، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص ٢٧٦؛ حسن حبشى، الحرب الصليبية الأولى، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص١٧٩؛ جوزيف نسيم يوسف، الوحدة وحركات اليقظة إبان العدوان الصليبي، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ١٥؛ محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩- ١١٨٧م.، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص ٦٨- ص ٦٩.

(٤) عن سقوط الرها فى قبضة المسلمين أنظر:

إبن القلانسى، المصدر السابق، ص ٢٧٩؛ إبن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحقيق عبد القادر طليمات، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص ٦٨؛ الأصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق، ط. القاهرة ١٩٠٠م، ص ١٨٦؛ إبن كثير، البداية والنهاية، ط. القاهرة ١٩٣٥م، ج ١٢، ص ١٩؛ علية الجنزورى، إمارة الرها الصليبية، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص ٢٩٥- ٣١٢؛ أفضل دراسة فى موضوعها باللغة العربية؛ محمود الرويضى، إمارة الرها الصليبية، ط. عمان ٢٠٠٢م، ص ٥٥٧- ٥٨١

Alptekin, The Reign of Zangi (521- 541H. / 1127- 1146A.D.), Ataturk University, Erzurum 1978, pp. 64- 65

(٥) عن ذلك بالتفصيل أنظر:

ابن جبير، الرحلة، ط.بيروت ١٩٨٤م، ص٢٥١؛ على أحمد، الأندلسيون والمغاربة فى بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجرى، ط. دمشق ١٩٥٩م، ص ٩١- ١٢٥

(٦) الذهبى، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث ووفيات ٥٤١- ٥٥٠هـ، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، ط. بيروت ١٩٩٧م، ص ١٧٠- ١٧١

وقد وقعت بانياس على بعد ٢١ ميلا من بحيرة طبريا عنها أنظر:

Fulcher of Chartres, p. 205.

عمر كمال توفيق، مقدمات العدوان الصليبى الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية، ط. الإسكندرية ١٩٦٦م، ص ١٩٤- ١٩٥؛ آمال هاشم، بانياس الداخلية ودورها فى الصراع الإسلامى-الصليبى ١٠٩٥-١٢٩١م/ ٤٨٧- ٦٩٠هـ، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٨٧م.

(٧) الذهبى، المصدر السابق، ص ١٧٠- ١٧١.

(٨) معجم البلدان، ج٣، ص ٩١٩؛ محمد مؤنس عوض، "الحركة الصوفية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية"، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (العصور الوسطى)، ط. القاهرة ٢٠٠٣م، ص ١٢٩، حاشية (٢٨).

(٩) عن حلحول أنظر:

ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ١٧٢- ١٧٤؛ الموسوعة الفلسطينية، ط. بيروت ١٩٨٤م، م (٢)، ص ٢٧١؛ مرمرجى

الدومنيكى، بلدانية فلسطين العربية، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص ٩٩- ص ١٠٠.

(١٠) الذهبى، المصدر السابق، ص ١٤٩.

(١١) نفسه، نفس الصفحة.

(١٢) نفسه، نفس الصفحة.

(١٣) عنهم أنظر:

إبن جبير، المصدر السابق، ص ٢٧٤- ٢٧٥

Kedar, "The Subjected Muslims of the Frankish Levant, in Muslims under Latin Rule (1100- 1300)", ed. James M. Powell, Princeton 1990, pp. 135- 173.

Mayer, “Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem”. H., Vol. 63, 1978, pp. 175- 192.

حسين عطية، المسلمون فى الإمارات الصليبية فى بلاد الشام، مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامى الفرنجى ٤٩١- ٦٩٠هـ، ط. إربد ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٣٧٥- ٤٢٦.

(١٤) عن ذلك أنظر:

Daniel, Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land, Trans. By Wilson, P.P.T.S., vol. V, London 1895, p.9.

سيد فرج، القدس عربية إسلامية، الدارة العدد (١٣) السنة (٨)، يناير ١٩٨٤م، ص ١٢؛ على السيد على، القدس فى العصر المملوكى، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص ٢١٣؛ محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص ١٨٦؛ عبد الرحمن زكى، "القلاع فى الحروب الصليبية"، المجلة التاريخية المصرية، م. (١٥) عام ١٩٦٩م، ص ٦٢؛ فتحى عبد العزيز، "دور الكنيسة فى مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام ١١٨٧م"، رسالة ماجستير كلية الآداب – جامعة الزقازيق عام ١٩٨٨م، ص ١٢٢.

(١٥) نقلا عن الذهبى، المصدر السابق، ص ١٤٩.

(١٦) نفسه، نفس الصفحة.

(١٧) عن ذلك أنظر:

إبن طولون الصالحى، القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، ط. دمشق ١٩٤٩م، ج١، ص ٢٦ -٢٨

Sivan, ‘Refugiés Syro-Palestiniens au temps des Croisades’ R.E.I.T. XXXV, 1967, pp. 135- 147.

(١٨) عنها أنظر:

السلمى، كتاب الجهاد، وقد حققه الباحث الليبى رمضان حسين الشاوش فى أطروحة للماجستير غير منشورة، كلية التربية- جامعة الفاتح طرابلس عام ١٩٩٢م، عن تلك الإشارة أنظر:

جمال محمد عريكيز، قضاء الشام فى مواجهة الغزو الصليبى، ط. القاهرة ٢٠٠٦م، ص ٣٣٩؛ وأيضاً:

Sivan, La Genèse de la Contre- Croisade: Un traité Damasquin du Début du XII è Siècle, J.A., 1966, pp. 198- 224.

(١٩) أبو شامه، الروضتين فى تاريخ الدولتين، ط. بيروت ب-ت، ص ٥٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٧٢م، ج٢، ص ٤٥٢.

Hillebrand , The Crusades Islamic Prospective, London 1999, p. 117.

(20) William of Tyre, History of Deeds done Beyond the Sea, trans. By E.A. Babcock and A.C. Krey, New York 1943, Vol. II, pp. 163- 194.

Odo of Deul, De Profectione Ludovici VII in Orientem, ed. V. G. Berry, New York 1948, pp. 7-143

Anonymous, The First and Second Crusades from Anonymous Syriac Chronicle, ed. and trans. by A.S. Tritton, and H. Gibb, J.R.A.S., Vol. 92, 1933, pp. 298- 299.

إبن القلانسى، المصدر السابق، ص ٢٩٨- ٣٠٠.

Berry, The Second Crusade, in Setton (ed.), A History of the Crusades, Vol. I, pp. 463- 512.

Philips and Hoch (eds.), The Second Crusade, Scope and Consequences, Manchester 2001.

ويحتوى على (١٠) دراسات عن الحملة الصليبية الثانية، نتاج المؤتمر الدولى للعصور الوسطى المنعقد في جامعة ليدز Leeds بإنجلترا فى ١٤ يوليو ١٩٩٨م، بمناسبة مرور ٨٥٠ عاماً على الهجوم الصليبى على دمشق فى يوليو ١١٤٨م.

عبد السلام زيدان، الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧- ١١٤٩م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة جنوب الوادى عام ٢٠٠٠م، وهى أفضل دراسة فى موضوعها باللغة العربية؛ نعيمة محمد ابراهيم، آسيا الصغرى والحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ٢٠٠١م، ص ١٧٤- ٢٠٦، باحثة واعدة؛ محمد مؤنس عوض، الإمبراطورية البيزنطية دراسة فى تاريخ الأسر الحاكمة، ط. القاهرة ٢٠٠٧م، ص ٣٤٦- ٣٤٧؛ فراس السامرائى، التقاليد والعادات الدمشقية خلال عهود السلجوقيين والزنكيين، والأيوبيين، ط. دمشق ٢٠٠٤، ص ٣٨؛ محمد السيد، تاريخ الحروب الصليبية، ط.

الإسكندرية ٢٠٠٢م، ص ١٥٧؛ يوشع براور، عالم الصليبيين، ت. قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص ٥٦-٥٧؛ ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ت. إلياس شاهين، ط. موسكو ١٩٨٦م، ص ١٧٠- ١٨٧؛ على عبد الحليم محمود، الغزو الصليبى والعالم الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٩٣م، ص ١٦١- ١٦٨؛ سيد على الحريرى، الحروب الصليبية أسبابها، حملاتها ونتائجها، تحقيق عصام محمد شبارو، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص ٧٩- ٨٦؛ تيسير بن موسي، نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين، ط. ليبيا، ص ١٢٩- ١٤٠؛ عماد الدين خليل، عماد الدين زنكى، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ١٥٤؛ قاسم عبده قاسم وعلى السيد على، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسى والعسكرى، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص ٧؛ عصام محمد شبارو، السلاطين فى المشرق العربى معالم دورهم السياسى والحضارى السلاجقة-الأيوبيون ٤٤٧-٦٤٨هـ/ ١٠٥٥- ١٢٥٠م، ط. بيروت ١٩٩٤م، ص ١٢١؛ العروسى المطوى، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ٧٠- ٧١؛ حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية فى مواجهة المخططات الصليبية، جبهة الشام وفلسطين ومصر، ط. القاهرة ٢٠٠٧م، ص ١٨٢- ١٨٦؛ محمود الحويرى، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها فى التصدى للصليبيين، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص ١٠٤- ١٠٥؛ عبد القادر اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر، ط. صيدا ١٩٦٩م، ص ١١٤- ١٢١؛ عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. الإسكندرية ١٩٥٨م، ص ١٥٨- ١٥٩؛ عبد العظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى إنتهاء الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص ٤٤٦-٤٤٠؛ قتيبة الشهابى، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ط. دمشق ١٩٩٨م؛ كارين آرمسترونج، الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها فى العالم اليوم، ت. سامى الكعكى، ط. بيروت ٢٠٠٤م، ص ٢٥٣- ٢٧٨.

(٢١) عنه أنظر:

Bernard of Clairvaux, The Letters of Bernard of Clairvaux, Trans. by Bruno Scott James, Institute of Cistercian Studies, Western Michigan University 1988.

(٢٢) أنظر أيضا تحليل مهم قدمه:

تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٢٣) عبد السلام زيدان، الحملة الصليبية الثانية، ص ١٩٨.

(٢٤) نفسه، نفس الصفحة

(٢٥) نفسه، ص ١٩٩.

(٢٦) عن ذلك أنظر:

إبن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محى الدين العمرى، ط. دمشق ١٩٩٥م، ج ٣٧، ص ٣٤٢؛ ياقوت، المصدر السابق، م٢، ص ١٧٣؛ إبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ط. القاهرة ب-ت، ج٥، ص ٢٨٢.

(٢٧) فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية العصر الفاطمى والسلجوقى والزنكى، ط. بيوت ١٩٨٥م، ص ٢١٥.

(٢٨) سورة التوبة، آية رقم ١١١.

(٢٩) أسامه بن منقذ، كتاب الإعتبار، تحقيق قاسم السامرائى، ط. الرياض ١٩٨٧م، ص ١١٧.

(٣٠) إبن الأثير، التاريخ الباهر، ص ٨٩؛ إبن خلكان، المصدر السابق، ص ٤٥٢.

(٣١) تاريخ الإسلام، ص ١٧٢.

(٣٢) نفسه ص ٥٣.

(٣٣) نفسه، نفس الصفحة

(٣٤) عن هذه القصيدة أنظر:

قتيبة الشهابى، المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٣٥) عن معركة حطين أنظر :

إبن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص ٧٥- ٧٩؛ ديفيد جاكسون، "معركة حطين والإستيلاء على القدس"، ضمن كتاب حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص ٨٦- ١١٠؛ جوزيف نسيم يوسف، "معركة حطين خلفياتها ودلالاتها، "عالم الفكر"، م (٢٠) عام ١٩، ص ٢٣٥- ٢٥١؛ جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ت. محمد فتحى الشاعر، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص ١٠٣- ١٣١؛ سعيد عاشور، "حطين وقائع وعبر"، العربى، العدد (٣٤٤) يوليو ١٩٨٧م، ص ٤٢- ٤٥؛ أحمد توفيق الطيبى، "وقعتا حطين والأرك نصران متوازيان على الغزاة الصليبيين فى المشرق وفى المغرب"، مجلة البحث التاريخية، السنة (١٠) العدد (١) يناير ١٩٨٨م، ص ٥١- ص ٦٤.

Kedar (ed.) The Horns of Hattin, Jerusalem- London 1992.

(٣٦) عن فتح المسلمين لبيت المقدس أنظر:

إبن الأثير، الكامل فى التاريخ، ط. بيروت ب.ت، ج ١١، ص ٢٢٥؛ الفتح البندارى، سنا البرق الشامى، تحقيق فتحية النبراوى، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص ٣٨٥؛ ملكوم ليونز وجاكسون، صلاح الدين، ت. على ماضى، مراجعة نقولا زيادة وفهمى سعد، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص ٣٢٠؛ أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ت. عفيف دمشقية، ط. بيروت ١٩٨٩م، ص ٢٤٩؛ عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ت. فيليب صابر، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ٦٨؛ مجموعة من الباحثين، ندوة حطين، دمشق ١٩٨٧م.

(٣٨) أنظر كتابه الرائع:

التطهير العرقى فى فلسطين، ط. بيروت ٢٠٠٧م.

ظاهرة الخطف كأحد روافد الاسترقاق في بلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام

د. خالد حسين محمود

لا مراء في أن الشريعة الإسلامية الغراء قد أطرت علي المستوي النظري تلك القاعدة الإنسانية السامية التي تحرم استرقاق الأحرار مسلمين كانوا أم غير مسلمين، حيث ظل الرق – من هذا المنظور- نظاماً معمولاً به عن طريق مصدرين شرعيين لا ثالث لهما هما: اسري الحروب ورقيق الوراثة(١). بيد أن الواقع المغربي المعايش من منظوره التاريخي اثبت انتهاكا شديدا لتلك القاعدة شاهداً علي شيوع ظاهرة استرقاق الأحرار باعتبارها نتيجة طبيعية لسيادة الفوضى وعموم الاضطراب، إذ ثمة فيض من النصوص تقدمها المصنفات التاريخية وكتب التراجم والطبقات والأدبيات الفقهية علي اختلاف أشكالها فضلاً عن المؤلفات الجغرافية والأدبية وغيرها من أصناف التأليف، تحملنا علي الاجتراء للقول بشيوع هذه الظاهرة واعتبارها رافدا أساسيا من روافد الاسترقاق، وأنها لم تكن فقط مجرد حالات فردية استثنائية تمخضت في ظروف معينة، ويبدو أن هذا الشيوع قد حمل بعض الفقهاء إلي غض الطرف عن القول بالحرمة بل وسعيهم أحيانا للبحث عن نوع من المشروعية وإدخال مثل هذه الأعمال في دائرة ما عمت به البلوى، الأمر الذي أثار استفزاز احد الفقهاء المغاربة الأصوليين فراح يفصح عن استنكاره لهذا الموقف من خلال جمع أقوال هؤلاء الفقهاء ودحض أرائهم في مصنف فقهي معتبر سماه "الصارم البتار فيمن أفتى ببيع الأحرار" محتجا بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة والتابعين وأئمة الفقه.

(1) *Lewis: Race and Slavery in the Middle East, New York,1990, p. 67 , Brunschvig (R): "Abd", in Encyclopedia of Islam, Leiden, v.1, 1960, p. 2*6

ويأتي الخطف علي رأس هذه الروافد غير الشرعية لاسترقاق الأحرار نظراً لما تمتع به من ثراء مصدري. ونسجل بداية إن فهم هذا الرافد لا يتأتى بمعزل عن ظاهرة الفوضى وانعدام الأمن وغياب الرقابة السياسية إذ إن العلاقة بينهم تكاد تكون حميمة فعادة ما "يزداد الفساد والحرابة بسبب عدم السلطان وكثرة الحروب"[١]، وكثيراً ما يبدو هذا التلازم واضحاً خلال مراحل الانتقال السياسي أو خلال حركات الثورة والتمرد، وهو ما أفصح عنه الفقيه والمؤرخ الشيعي ابن حيون[٢]، حين ربط بين هذه الظاهرة مثلاً وبين فتنه أبي يزيد الخارجي معتبراً أن القضاء عليها بأيدي الفاطميين كان من اجل النعم التي أسديت للناس " وأكثر الناس لا يعرفون ولا يدرون قدر نعم السلطان عليهم " ويتأكد هذا المعني ايضاً من خلال نازلة غاية الدلالة تعود إلي القرن الثالث الهجري سئل من خلالها فقيه افريقية سحنون[٣] عن مجموعة من الحرابة " عليها نشئوا خلفاً عن سلف يسفكون الدماء ويقطعون الطريق... ويأخذون النساء بالقهر والغلبة... وطلب سبي الحريم... لا تنالهم أحكام السلطان".

ولا تعوز الدلائل الكاشفة عن انتشار الفوضى وانعدام الأمن ببلاد المغرب خلال فترة البحث والتي سبق أن عولنا عليها، ويكفي أن نستأنس هنا ببعض النصوص الجديدة التي تخدم الموضوع، فهذا احد رحالة القرن الرابع الهجري يصف إقليم المغرب من خلال مشاهدته العينية بأنه " صعب المسالك كثير المهالك... فلا فيه راغب ولا له ذاهب ولا عنه سائل"[٤]، وهو ما تأكد بشهادة احد رجالات هذا القرن من فقهاء الإباضية والذي عبر عنه بقوله " كثر العدوان وانتشرت الفتن... وكثر الغدر وقلة الطمأنينة وارتفاع الأمانة وقلة الثقة"[٥]، وأرسل الفقيه المالكي رباح بن يزيد إلي نظيره عبد الله بن فروخ (ت ١٧٦هـ/٧٩٢ م) رسالة يذم فيها زمانه قائلاً " قد أدركت زماناً... عز فيه الأشرار... وعهدت بلادنا بالحصار والقتل والفساد"[٦]، ولما أراد احد أصدقاء الفقيه القيرواني الإبياني (ت ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م) زيارته عاجله الفقيه برسالة يحذره فيها من القدوم ويوصيه بملازمة داره خشية عليه من مخاوف الطريق[٧] ووصف الفقيه الداودي (ت ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م) عصره بأنه عصر "محن وفتن وهرج"[٨].

من خلال المعطيات هذه كان بديهاً إن تستشري ظاهرة الخطف لتغذية أسواق النخاسة، فهذا احد مؤرخي العصر يعبر في نص هام عن علاقة التلازم المذكورة من خلال وصفة لعموم الفوضى السياسية التي عمت بلاد المغرب قبل ظهور المرابطين كمناخ لـ " سفك الدماء وانتهاب الأموال واسترقاق النساء واقتحام الديار.."[٩]، ولا نتردد في القول أن هذه الوضعية استوجبت ظهور نظام حراسة القوافل في الطرق المخوفة "حراسة للمهج والأموال من غوائله"[١٠]، والتي عرفت في

---

(١) المهدى الوزانى: النوازل الجديدة الكبري فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والحضر، صححه عمر بن عباد، ط.وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٩٩٩، جـ١٠، ص ٢٦٣.

(٢) المجالس والمسايرات، ص ٣١٠.

(٣) نقلا عن الونشريسى: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، تحقيق مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ط. دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٨١م، جـ٦، ص ١٥٥.

(٤) المقدسى: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ليدن ١٩٦٧، ص ٣١٦.

(٥) نقل هذه الشهادة البردى: الجواهر المنتقاه فى إتمام ما أخل به كتاب الطبقات لأبى العباس الدرجينى، مخطط بالهيئة العامة للكتاب، تحت رقم ٨٤٥٦ ح عربى، ميكروفيلم ١٥٨٤٣، ورقة٣.

(٦) المالكى: رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية، جـ١، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١، جـ١، ص ٢١٩، ٢٢٠.

(٧) عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك،لمعرفة أعلام مذهب مالك،تحقيق أحمد بكير محمود، ط.منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،١٩٦٧، جـ٣، ص ٣٥٢.

(٨) نقلا عن السجلماسى: شرح نظم العمل الفاسى، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب تحت رقم ٩٧ فقه مالك، ميكروفيلم ٣٥٥٦، ورقة ٢٥٦.

(٩) أبو القاسم البلوى: العطاء الجزيل فى كشف غطاء الترسيل، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ١٥٤ بعثة المعهد الأولى إلى المغرب، ورقة ١٦٩.

(١٠) السجلماسى: ورقة ٩٣، ٩٤.

مصـــادر الفترة باسم "الظططاطة أو الشناعية"[١]، وهكذا سئل سحنون[٢] عن "الرفقة يستأجرون علي من يحفظهم من اللصوص ويبلغهم من مكان الخوف إلي محل الأمن"، وبصورة أكثر وضوحاً ترد نازلة أخري سئل فيها الفقيه القيرواني ذاته عن أهل قافلة " تعرض لهم اللصوص يريدون أخذهم فيقوم بعض أهل الرفقة فيضامنهم على مال " [٣] وهي المسألة ذاتها التي سئل عنها الداودي فيما يتعلق ببعض سكان المغرب الذين "تنزل عليهم الأعداء وتأخذ أموالهم وأولادهم... فقالوا للشناعية فقاموا بأمورهم وصدوا عنهم الأعداء... وصارت وظيفة عليهم ورثها الأبناء عن الإباء"[٤]، وحسب نازلة أخري سئل الفقيه ذاته عن " رفقه استأجرت من يحرسها"[٥]، وكان هاجس الخوف من اختطاف الأنفس وراء اضطرار الفقيه للقول بالجواز، ومن ثم جاءت الفتوى صريحة بأنه "إذا اخذوا الأجرة علي حفظ المارة فعلي عدد الرؤوس... ذلك مما عرف من سنة تلك البلاد فان أعطاهم المال يخلصهم ويمنحهم.. عن أنفسهم وعن أموالهم"[٦] لأن "اللصوص يريدون أخذهم"[٧]، كما كانت تلك الوضعية وراء إرسال الإمام الاباضي أبو اليقظان ابنه أبي حاتم عام ٢٨١هـ/٨٩٤م "في جيش.. ليجيروا قوافل قد أقبلت من المشرق".

وفي ظل هذه السياسية وغياب الأمن كان بديهياً أن تتدهور الأحوال الاقتصادية وان تتردي الأوضاع المعيشة حتى وصل الأمر ببعض ساكنة البلاد إلي أكل الميتة والجيف[٨]، ووجد الكثيرون من أهل الشدائد والبائسون في قطع الطرق وامتهان العيارة والشطارة وسيلة للحصول علي ما يسد رمقهم، وكان من جملتهم العبيد الذين اضطرتهم ربقة العبودية إلي الاباق والاندراج في سلك اللصوصية يرصدون القوافل لخطف الأنفس وسرقة الأموال لاسيما وقت الانتفاضات والحركات الانترائية، إذ جرت العادة في مثل هذه الظروف إن يتسرب إلي زعماء الثورات " ذعار اللصوص واباق العبيد... من كل أوب و... فج "[٩].

كما كان انعدام الأمن وخيفة الطريق وما يترتب علي ذلك من خطف ونهب مداعاة لاستنباط الفقهاء المغاربة أحكاما تتعلق ببعض التفريعات الفقهية المرتبطة بالموضوع، من ذلك مثلاً اعتبار قلة الواردين من البلاد لسكني الفنادق المكتراة " من فتنة أو خوف حدث في الطريق... عيباً فيما اكتراه المكتري"[١٠]، كما أصدر سحنون وبعض من عاصره من الفقهاء فتواهم بسقوط العذر عن الغائب والحكم عليه وان قربت غيبته لان الطريق " لم تكن.. مسلوكة ولا مأمونة"[١١] لانعدام الأمن وكثرة الفتن، مما ينتج عنه غياب الأفراد وانقطاع أخبارهم والتي شكل الخطف بلا شك احد مظاهره باعتباره مصيراً طبيعياً لكثير من هؤلاء الغائبين في ظل سيادة الفوضي وانتشار الهرج وتواري الأمن السياسي. وهكذا يتوفر لدينا فيض من النوازل عن أناس غابوا ولم تعرف أخبارهم، فقد خرج

---

(١) المصدر السابق، ورقة ١٧٧.

(٢) المسائل المتعلقة بالمغارسة، مخطوط بمركز جهاد الليبيين، ليبيا، تحت رقم ١٧١٤، ورقة ٣٤.

(٣) السلجماسى: م.س، ورقة ٩٥.

(٤) القصري:نوازله،مخطوط بمعهد المخطوطات العربية،تحت رقم١٤٤،بعثة المعهد الى موريتانيا،ورقة ٢٥٨.

(٥) السلجماسي: م.س، ورقة ١٧٧.

(٦) م.س، ورقة ٩٥.

(٧) نفسه.

(٨) المالكي:م. س،جـ١،ص٢٦٢ابن ابي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،ط. دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط ١٩٧٣،ص ٩٧.

(٩) أبو القاسم البلوي: العطاء الجزيل فى كشف غطاء الترسيل، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ١٥٤ بعثة المعهد الأولى إلى المغرب، ورقة ١٥، محمود اسماعيل: المهمشون فى التاريخ الاسلامى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤، ص١٥٣.

(١٠) ابن رشد: الفتاوي، جمع وتحقيق المختار بن طاهر التليلى، ط.دار الغرب الاسلامى بيروت، ١٩٨٧، جـ٣، ص ١٢٨٢، الونشريسي: م.س، جـ٧، ص ٤٥٢.

(١١) عياض وولده محمد: مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق وتعليق محمد بن شريفة، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٢٤، ثم تابع نماذج من هذه الأحكام علي أناس ام تطل غيبتهم في المصدر نفسه، ص ص ١٢٥ – ١٢٩.

احدهم"في خرجه فتنه.. ولا يعلمون له خبراً بعد ذلك... وخفي أمره "[1]، وغاب أخر " غيبه انقطع فيها خبره ولا يعلم... مستقره"[2]، كما تتواتر التفاصيل النوازلية عمن "غاب من موضعه... أعوام"[3] وعمن " فقد منذ سنين كثيرة "[4] ومن " خرج بجهازه إلي السفر فغاب سنين"[5]، وعن " غائب منقطع الغيبة بحيث لا يعلم منذ سنيين كثيرة"[6]،وليس أدل علي مدي استفحال هذه الظاهرة من شيوع اشتراط النساء في عقود زواجهن أن يصبح أمرهن بأيديهن إذا سافر أزواجهن إلي موضع يحسبهم فيه " فتنة أو فساد طريق يخشى منه الاسر"[7] أو " خرج يريد سفرا قريبا فاسر"[8]، حتى بات متداولا بين الموثقين إثبات الشرط في الوثائق تعميماً بهذه العبارة " إذا غاب الزوج عن إمراته مكرهاً"[9].

وفضلاً عما تقدم يمكن القول بان العداء المذهبي قد أوجد مصدرا خصبا للتزود بالرقيق عن طريق الخطف، إذ أجاز فقهاء الشيعة[10] لأتباعهم خطف مخالفيهم، كما لم يجدوا غضاضة في القول بجواز شراء الرقيق الذي سلبت حريته عن طريق الخطف من المناطق التي اشتهر أهلها بأنهم " يسرقون بعضهم من بعض "، استنادا إلي أن ذلك الفعل سيخرجهم من دار الكفر إلي دار الإسلام، مما اعتبر نوعا من إعطاء المسوغ الشرعي لمعتنقي المذهب في امتداد أيديهم لخطف من وصلوا إليه من الأعداء دونما خوف أو حرج.

ويبدو أن شيوع مثل هذه النظرة في المجتمع المغربي قد دفعت الفقيه سحنون[11] إلي القول بأخذ الحيطة عند شراء الرقيق البربري لاسيما الإناث " لما يخاف من أصولهن وحريتهن وسرقتهن وما كان من هذا وأشبه " نتيجة اقتحام المجالات السكنية لخطف الاسري ونهب الأموال في غياب رادع فعلي من جانب السلطة السياسية، وهو المعني ذاته الذي قال به ابن رشد[12] في شراء صبيان البربر وما أشبههم بسبب ما اشتهرت به البلاد المغربية من عموم " الفساد من هذا الأمر من سرقة الأحرار وبيعهم والأحب... أن يتورع الرجل فيه... والاحتياط ترك شرائهم ".

وانطلاقاً من هذه المعطيات ذات الطابع النظري التعميمي يمكن رصد الظاهرة بنوع من التفصيل حسب الإطار المكاني وعبر النصوص المصدرية.

ففي المغرب الاقصي نشطت عمليات خطف الأحرار منذ وقت مبكر مرتبطة بفترات الفوضى التي لازمت الصراعات السياسية حتى وصفت تلك المنطقة من قبل فقهاء العصر بالفساد

---

(١) ابن سحنون: نوازله، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ٦٦٩فقه مالك، ورقة٥.

(٢) عياض وولده : م.س، ص ١٢٦.

(٣) نفسه.

(٤) ابن العطار: الوثائق والسجلات، تحقيق شالميتا وكورينطي، مجمع الموثقين المجريطي والمعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٣، ص ٣٥١، ثم تابع عبارات شبيهة ص، ص ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٥٢.

(٥) عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم: مسائل نفوسة،تحقيق وترتيب إبراهيم محمد طلاي،غرداية،١٩٩٠،ص١٢٢.

(٦) عياض وولده: م.س، ص١٢٧.

(٧) ابن هارون التونسي: اختصار النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام،مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ١٩٣فقه مالك، ورقة ٣٧.

(٨) النفزي: الطرر الموضوعة علي الوثائق المجموعة لابن فتوح البنتي، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ٤٤ فقه مالك مصورة الاسكوريال، ورقة ١٤.

(٩) نفسه.

(١٠) انظر العاملي: وسائل الشيعة إلي تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق محمد السرازي، دار إحياء التراث العربي،ط. بيروت، (د.ت)، م٦، جـ١، ص٩٩.

(١١) المدونة، مطبعة السعادة، مصر، ط١٣٢٣هـ، جـ١، ص١٤١.

(١٢) البيان والتحصيل ووالشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق محمد حجى وآخرون، دار الغرب الاسلامي، ط٢ ١٩٨٨، جـ٨، ص٨١

لان " بيع الأحرار فيه فاش معلوم"[١] وهكذا ترد نازلة[٢] تخص مدينة سبتة يعود تاريخها إلي عام ٢٧٥ هـ/٨٨٨م حيث تعرضت المدينة لغارة شديدة أسفرت عن قيام المغيرين بخطف عدد من النساء وبيعهن في أسواق الرقيق، وهو ما أفصحت عنه أحداهن حين ذكرت أن "متغلباً في ذلك الجانب أغار عليهم فسباها في من سبي وهي حرة، وذكر الذي ألقيت بيده انه ابتاعها في ذلك الجانب التي زعمت إنها من أهله" فجاءت الفتوى صريحة من قبل بعض الفقهاء الذين عرضت عليهم النازلة وعلي رأسهم الفقيه التونسي ابن زياد (ت ١٨٣هـ/٧٩٩م) "أن يكون إثبات الرق علي من ادعاه، لتصديقه إياها علي ذكر الناحية التي ادعتها والذي فشا من الفساد تلك الناحية "، كما نزلت مسألة أخري تخص المدينة ذاتها يبدو أن صاحبتها كانت من مجموع النسوة اللائي اختطفن من الغارة المذكورة حين قامت تلك المرأة الممتلكة عند احد القضاة بعد سبيها " تدعي الحرية، وأنها ابنة فلان من سبتة وشهد لها عنده شاهدان علم عنهما أنهما يعرفانها بسبتة منذ سبعة أعوام تتصرف تصرف الحرائر..... وأنها حرة "[٣]، وإذا كانت النازلتان هاتان قد كشفتا عن مصير اثنتين من النسوة المختطفات وهو الحرية، فإن الأخريات قد عجزن حتماً عن رفع شكايتهن واندرجن ضمن صفوف الرقيق.

أما مدينة فاس فتكشف النصوص معاناة أهلها خلال الفراغ السياسي وظروف اللا سلم التي عاشتها المدينة خلال القرنيين الثالث والرابع الهجريين حيث نشطت الغارات للخطف والنهب، لاسيما غارات مغراوة الذين " جاروا علي رعيتهم فأخذوا أموالهم... وتعرضوا لحرمهم... وتوالا منهم ظلم وعدوان...فكان رؤساء مغراوة وبني يفرن يدخلون علي الناس في ديارهم فيأخذون ما يجدون فيها من الطعام ويتعرضون لنسائهم وصبيانهم"[٤]

وأمام هذه الظاهرة التي أقضت مضاجع أهل المدينة خوفاً علي أنفسهم من الوقوع في الاسترقاق اضطر السكان إلي إخفاء النساء والصبيان في المطامير واتخذوا "غرفاً لا أدراج لها، إذا كان عشي النهار طلع الرجل فيها بسلم هو وعياله وأولاده ثم رفع السلم معه"[٥]، وبأسلوبه الأدبي عبر ابن خاقان[٦] عن وقع هذه الظاهرة علي سكان المدينة متحدثاً عن هؤلاء الذين " عاثوا فيها وفسقوا... ومنعوا جفون أهلها السنات واخذوا البنين من حجور أمهاتهم والبنات "،واضطر كثير من أهل المدينة إلي الالتجاء إلي أربطة الأولياء والصوفية والتحصن فيها، وان لم يمنع ذلك من وقوع بعضهم في قبضة تلك الجماعة التي رصد أفرادها مخارج المدينة ومنافذها [٧]

وغير بعيد عن المدينة وتحديداً في ناحية غمراسن المتصلة بجبل درن دفع العداء المذهبي مجموعة من البربر المنتحلين لمذهب النكارية الخوارج إلي شن الغارات علي أهل المنطقة من العرب المخالفين لهم حيث اعتادت غازية منهم علي الخروج لتعود محملة بالنساء والذراري، كما كانت " تكمن بعض المكامن لمن يمر بها وخصوصاً الجواري، ولا يبالون في الإغارة علي

---

(١) ابن سهل: الإعلام بنوازل الأحكام،المعروف بالأحكام الكبرى،تحقيق نورة محمد عب العزيز التويجري،المملكة العربية السعودية ١٩٩٥م، جـ١، ص١٨٨.

(٢) وردت النازلة عند القصري: م.س، ورقة ٢٣١، ابن سهل: م.س، جـ١، ص١٨٧، الونشريسي: م، س، جـ٩، ص ص ٢٢٠، ٢٢١، ابن فرحون: تبصرة الحكام في أصول الاقضية ومناهج الأحكام،ط. المطبعة العامرة الشرفية، مصر، ١٣٠١هـ، جـ٢، ص١٤٦.

(٣) ابن سهل: م.س، جـ١، ص ١٩٠.

(٤) ابن ابي زرع: م.س، ص ص ١١٣ ١١٤،.

(٥) م. س، ص١١٤.

(٦) قلائد العقيان، قدم له ووضع فهارسه محمد العنابي،المكتبة العتيقة، تونس، سلسلة"من تراثنا الاسلامي"،رقم(١)،ص ٣٠.

(٧) ابن الزيات التادلي: المعزى في مناقب ابي يعزي، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب، تحت رقم ١٢٤٩ تاريخ تيمور، ميكروفيلم ٢٢٧٧٠٣، ورقة ٥٢، الدرعي: الدرر المرصعة في أخبار أعيان درعة، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ١٦١٠ تاريخ، ورقة ٦٢.

الجواري "[1].

ويصف الازموري[2] أوضاع الجهات الغربية من المغرب الأقصي حيث تقبع قبائل برغواطة التي دخلت في حروب طاحنة مع بعض القبائل المجاورة لبلاد وكالة، مما جعل المنطقة مرتعاً خصباً لعمليات الخطف والسلب، عاين احد المشايخ فيها – ويدعي " ايت أمغار " – أحداها بنفسه، حين تمكن بأعجوبة من الإفلات بمن معه من نسائه من الخطف عند خروجه في أواخر القرن الرابع الهجري إلي موضع يسمي " ايير "، فأفتي بعدها بأن الانتقال من موضع " الشدة إلي موضع الأمن والهرب من الخوف جائز " بسبب اشتداد " الفتن... ولم تكن في هذه البلاد حصون".

وفي تفلالت تكشف نازلة عن خطف صبية صغيرة دون البلوغ فبيعت أربع بيعات، ومكثت عند كل مشتر لها مدة من السنين حتى بلغت وحملت وذكرت انها حرة بيعت " فى بلد كثر فيه بيع الأحرار في زمن الفتنة والفساد"[3].

وهكذا يتأكد تارة أخري التلازم الحميم بين الخطف كرافد من روافد الاسترقاق وبين انتشار الفوضى وغياب الأمن، وانطلاقاً من الرؤية هاته يسهل رصد هذه الظاهرة بالمغربيين الأوسط والأدني. ففي المغرب الأوسط ساعدت الطبيعة الجبلية الوعرة علي نشاط غارات السلابة وقطاع الطرق مستغلين فضلاً عن ذلك فترات الفوضى السياسية، ونستأنس هنا بنص دال عند ابن سعيد[4] يصف فيه سكان جبل أوراس بأنهم أهل " عصيان لا يدخلون تحت طاعة سلطان لامتناع جبلهم العريض الطويل، ولما عندهم من الجبل والرجالة والأسلحة " ولا شك أنها مؤهلات كافية لظهور السلابة والحرابة.

واستناداً إلي ذلك تبرز أمامنا إشارة هامة عند ابن الصغير[5]تحدد رؤوس الجبال موطناً لهؤلاء المغيرين الذين اتخذوا من الصراعات السياسية والانشقاقات الأسرية وسيلة لشن الغارات علي المدن وبطون الأودية، فكان من بينها تاهرت التي " فسد أهلها في تلك الحروب " وانتشر بها " السراق وقطاع الطريق "، وعبر المؤرخ الرستمي عن خطر هذه العناصر ووقع ما قاموا به من خطف الأنفس أن " خاف [ت] النطف " في الأرحام، ورغم ما تنطويه هذه العبارة من مبالغة في إظهار شدة الخوف الذي ارتاعت له الأجنة إلا أن ذلك لا يقلل شيئاً من حقيقة توفر المناخ الملائم لانتشار ظاهرة الخطف، فهذه امرأة من أهل المدينة تستغيث بقاضي المدينة محمد بن عبد الله في وقت متأخر من الليل، حين انساح السلابة بشوارع المدينة يخطفون الناس وينهبون الأموال، فقد أجابت حين سألها القاضي عن شكايتها قائلة اخذوا ابنتي من بين يدي"[6]،وحين راحت جهود القاضي وأتباعه في البحث عن المخطوفة سدي، عمد إلي خاتمة فألقاه وتخلي عن منصبه بعد أن أحس بعجز سلطته عن مقاومة هؤلاء اللصوص[7].

ولم تختلف معاناة أهل وارجلان عن وضيعة أهل تاهرت حيث تعرضت شوارع المدينة ومنازلها لغارات هوجاء، أشارت الرواية إلي أحداها، حيث استاق المغيرون خلالها"عدة من

---

(١) التجاني: الرحلة، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، (د.ت)، ص ص ١٨٧، ١٨٨، السراج الاندلسى: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة،ط. دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٤م، جـ١، ص٤٢٥.

(٢) بهجة الناظرين وانس العارفين،مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ١٤٣٧، ورقة ١٢٩، ١٣٠.

(٣) المجاصي: نوازله، مخطوط بجامعة القاهرة، تحت رقم ١٣٥٣١، ورقة ٩٨.

(٤) كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠، ص١٤٥.

(٥) م.س، ص ص ١١٦، ١١٧.

(٦) م.س، ص ٩٠.

(٧) م.س،ص ص ٩١،٩٢،ثم تابع القضية ذاتها عند البرادي:الجواهر المنقاة فى اتمام ما اخل به كتاب الطبقات لأبى العباس الدرجينى،مخطوط بمعهد المخطوطات العربية،تحت رقم ١٥٦٧ تاريخ ورقة ٣،حيث استبدل اسم القاضي بمحكم الهواري.

الإماء"[1]، ويبدو أن إقصاء الأحرار من الرواية وقصرها علي الرقيق يحمل نوعاً من الأنفة والإباء من قبل مؤرخي الاباضية، وإلا فلن يتسع المجال أمام المختطفين للتمييز بين الأحرار والرقيق.

وفي مدينة بونة تكشف احدي الروايات عن تعرض أهلها للغارات التي استهدفت الأنفس والأموال. حيث وقعت المدينة بين شقي الرحى: غارات القراصنة من البحر وغارات العربان من البر، " قد حصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج واسروا من البر أشخاصاً فامسكوهم... و... أهلها لا يفارقون السور خوفا من العربان"[2]، ويزكي هذا النص ويكلمه ما جاء في سياق حديث البكري[3] عن المدينة قائلاً " والي هذه المدينة يقصد الغزاة من كل أفق". كما استهدفت تلك الغارات مواطن الرعى لخطف الرعاة وسرقة المواشي، فقد أرسل الفقيه الاباضى أبو عبدالله محمد بن بكر (ق٤هـ /١٠م) غنمه مع احد الرعاة من أهل لمطة إلى جبل بنى مصعب فغار عليه بنو غمرت يريدون خطفه وغنمه.[4]

ويعطي الرحالة وصفاً متواتراً نعتت به الصحراء الشرقية لمدينة تلمسان من قبل أهل الدراية والمعرفة والذين وصفوا طريقها بأنه " منقطع لا تسلكه الجموع الوافرة الاعلي حال حذر واستعداد، وتلك المفازة مع قربها من اضر بقاع الأرض علي المسافرين لأن المجاورين لها من أوضع خلق الله وأشدهم إذاية لا يسلم منهم صالح ولا طالح "[5].

اما عن الساحة الشرقية لبلاد المغرب فعديدة هي الإشارات التي تؤكد انتشار ظاهرة الخطف هناك، حيث أثبتت المطالعة الفاحصة لفحوي النصوص المصدرية أنها كانت أكثر غنيً وأعظم ثراءً عن المغربيين الأقصي والأوسط، وقد يعود الأمر من وجهة نظرنا إلي تلك الوفرة المصدرية المشهودة لتاريخ المنطقة علي اختلاف مشاربها، فضلاً عن هيمنة الفوضي السياسية نتيجة تتابع الكيانات الحاكمة وتلاحق الحركات الانتزائية بصورة ملحوظة وفي محاولة لتفكيك الظرفية المكانية بالمنطقة، تبرز أمامنا غارات القبائل العربية، حيث يتوفر لدينا نص غاية في الدلالة قد يعدل حقيقة تاريخية ثابتة تحدد أواسط القرن الخامس الهجري زمناً لهجمات القبائل العربية وما صاحب ذلك من خراب ودمار، يتحدث النص عن افريقية قائلاً " وكان سبب خرابها العرب الذين أرسلوا إليها مدة يزيد بن عبد الملك بن مروان، وذلك أنه لما انتقلت الخلافة الي بني العباس وتخالف الأمر استقضت العرب علي افريقية وبداوتها فخرجت ولم يبق منها شئ إلا ما كان علي ساحل البحر"[6]، انها عودة للوراء بتلك الأحداث الثابتة وربطهما بالسياسة العباسية التي اعتمدت كثيرا علي الموالي فتضاءل عندها وزن العرب السياسي فكان التدمير والتخريب والسلب والنهب نوعاً من التعبير عن الغضبة العربية، وكانت بلاد افريقية احد مواطن هذا التعبير، حيث قامت الدولة الأغلبية السلطة المغربية المعبرة عن دولة بني العباس.

وفضلاً عن العرب شاركت قبيلة هوارة البربرية في عمليات الخطف بالمنطقة، إذ ما فتئت هذه القبيلة تشن غاراتها الخاطفة علي المدن والبوادي بغية الخطف والسلب، وهو ما أفصحت عنه روايات المصادر، فقد تحدث البكري[7] عن احد الأنهار المطلة علي مدينة ادنة القريبة من مدينة الاربس يسمي نهر النساء معللاً سبب التسمية هاته بان " هوارة أغاروا علي نساء ادنة وذهبوا

---

(١) الوسياني: سير أبي الربيع الوسياني، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب، تحت رقم ٩١١٣ح، ميكروفيلم ٣٢٧١، ورقة ٨١، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلاي، قسنطينة، ١٩٧٤، جـ٢، ص٤٣٤، الشماخي: كتاب السير،تحقيق احمد بن سعود السيابى،ط. وزارة التراث القومى والثقافة،عمان،١٩٨٧، جـ٢، ص٨٤.

(٢) العبدري: الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، سلسلة الرحلات جامعة محمد الخامس،(د.ت)، ص ص٣٧، ٣٨.

(٣) كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن واندري فيري،ط. وزارة الثقافة، تونس، ١٩٩٢، جـ٢، ص ٧١٨.

(٤) الشماخي: السير، جـ٢، ص٦٥.

(٥) العبدرى: م.س، ص ٩.

(٦) مجهول: كتاب في الجغرافيا، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ٤٦ بعثة المعهد الاولي إلي المغرب، ورقة ٩٨.

(٧) المسالك، جـ٢، ص ٨٣١.

بهن... هناك "، وحسب إشارة ابن سعيد[١] كانت تلك القبيلة ترصد طريق الحجاج وتقوم بقنصهم وبيعهم، مما حدا بابن خلدون[٢] أن يسجل خطر تلك القبيلة الزناتية متحدثاً عن شهرة رجالها بـ " تخطف الناس من العمران والاباية عن الانقياد للنصفة "، وتدعمت تلك المقولة بشهادة النويري[٣] الذي ذكر أن هوارة " قد عاثت في البلاد وقطعت السبال"، ولنا أن نقدر خطر هوارة ومقدار سطوتها ومدي ما احدثته بالمنطقة من خراب ودمار من سعي الإمارة الأغلبية الي موادعتها وعقد الاتفاقيات مع رؤسائها لضمان سلامة وأمن طرق القوافل والحجاج بعد أن عجز الأغالبة عن التصدي لغاراتها واستئصال شأفتها[٤].

وانطلاقاً من غارات هذه القبائل العربية والبربرية في ظل سيادة الفوضي وما امتلكته من سطوة، سجلت المصادر إشارات عدة عن حالات الخطف بهذه المنطقة الشرقية من بلاد المغرب، فهذه نازلة هامة تعرض علي فقيه المنطقة سحنون[٥] تخص بلاد افريقية وما جاورها من أحواز المنطقة الليبية تتعرض للحديث عن مجموعة من حرابة هذه القبائل " قد غلب فسادهم علي صلاحهم وغلب شرهم علي خيرهم... شأنهم علي الدوام الغارات علي المسلمين والغفلة بالطريق والدور... متي وجدوا منزلاً او داراً أو دوراً أغاروا عليهم وأخذوهم بالقصر والغلبة... يسبون النساء والصبيان والعبيد، وهذا دأب هؤلاء القوم"، وهو ما تكرر في شكاية أخري لبعض سكان المنطقة الذين تظلموا الي القاضي المالكي ذاته[٦] قائلين فيها " قوم يكابرونا يريدون أنفسنا وأموالنا وحريمنا "، ويمدنا الونشريسى[٧] بنازلة أخري تصب في الموضوع ذاته وتأكد عليه، وتخص مدينتي صبرة وسوسة واللتين عرض اهلهما نازلة علي سحنون يكشف التدقيق في تفاصيلها عن مدي معاناتهم من ظاهرة الخطف حيث اعتاد أن يشن عليهم الغارات مجموعة من السلابة " تبلغ جموعهم عشرة آلاف... يأخذون النساء بالقهر والغلبة...وطلب سبي جموعهم عشرة آلاف...يأخذون النساء بالقهر والغلبة...وطلب سبي الحريم أبكارا وثيبات" [٨]، وتظل الوفرة العديدة للمغيرين شاهداً علي مقدار ما يمكن أن تحصله أيديهم من المخطوفين.

وأمام هذا الخطر الذي أوقد جذوة الخوف والهلع في قلوب السكان، اضطر كثير من فلاحي المنطقة ومزارعيها الي استئجار من يجمع زيتونهم فى المناطق الاحوازية قبل طيبه مقابل النصف وأكثر أو تركه دون جمع حتي يفسد " يخاف كل واحد منهم علي نفسه"[٩] لان الحرابة قد اعتادوا رصد طرق الفلاحين إلي مزارعهم، وتنصيب الكمائن عند مخارجهم يقولون " هذه مواضع عبيدنا"[١٠].

وهكذا رُفع سيل من النوازل عن أحرار ثم خطفهم وبيعهم كرقيق فى أسواق النخاسة، ففضلا عما سبق طرحه، سئل سحنون عن " رجل اشتري وصيفاً صغيراً فاذا هو حر"[١١]، كما سئل عن

---

(١) بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط، معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٨، ص ٨.

(٢) كتاب العبروديوان المبتدا والخبرفى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر،ط. دار الكتب العلمية بيروت،١٩٩٢، جـ٧، ص٢.

(٣) نهاية الارب في فنون الأدب، جـ٢٤، تحقيق حسين نصار،ط. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.، جـ٢٤، ص.

(٤) ابن الاثير: الكامل في التاريخ،تحقيق محمد يوسف الدقاق،ط دار الكتب العلمية بيروت، ط٣ ١٩٩٨، جـ٦، ص ٢٧٠.

(٥) نقلا عن ابن سحنون: م.س، ورقة ٧٢ .

(٦) المدونة، جـ٣، ص٣.

(٧) م.س، جـ٢، ص ١٥٥.

(٨) المغيلي الماذوني: الدرر المكنونة في نوازل ماذونة، جـ٢، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ١٨٦ فقه، ورقة ١٠٢ والذي أورد النازلة ذاتها مؤكداً عي ان هؤلاء السلابة " ليس لهم حرفة إلا شن الغارات وقطع الطرقات ".

(٩) الونشريسى: م.س، جـ٦، ص٣٠٧.

(١٠) القصري: م.س، ورقة ٢١٥.

(١١) الوزاني: م.س، جـ١١، ص٣٢٢.

امرأة الفيت بيد رجل يريد بيعها فاستغاثت عند البيع وذكرت أنها من موضع معروف وانه " أغار علي ذلك الجانب فسباها"[١]، كما رفعت إلي ابن أبي زيد القيرواني نازلة عن " ذمي يسرق صغار المسلمين ويبيعهم "[٢]، ونقل ابن سهل[٣] نازلة من أحكام ابن زياد عن رجل اشتري جارية ثم ظهر " أنها حرة "، ونازلة أخرى عن امة بيعت فقامت " تدعي الحرية"[٤]، وسأل احدهم الفقيه الاباضي أبا صالح اليزانسي (ق٤هـ/١٠م) " انه اشتري خادماً فوطئها فإذا هي حرة "[٥]، وسئل أبو عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م) عن صبي صغير بيد جماعة يريدون بيعه مملوكا أنهم"اخذوا غصباً"[٦]، وفضلا عن ذلك تزخر كتب الأحكام والنوازل الفقهية بالتفاصيل عمن اشتري عبدا " فتبين انه حر"[٧]وعمن" اشتري عبدا فخارجه٠٠٠ثم استحق حرا"[٨]، وعمن ابتاع "مملوكة من رجل واستحقت منه بالحرية "[٩]، وعمن عقد نكاحه علي مملوكة بحكم الاجبار"علي انها مملوكة للعاقد، ثم ثبت انها حرة الأصل "[١٠]، الي ما يند عن الحصر من الحالات الماثلة، ولعل في تخصيص كتب الفقه أبوابا عن أحكام ادعاء الرقيق للحرية[١١] ما يؤكد علي تعاظم ظاهرة خطف الأحرار، حتي اعتبرها كثير من فقهاء الفترة " مصيبة عظيمة عمت بها البلوي في هذا الزمان في البلدان"[١٢]، وهو ما عبر عنه سحنون صراحة حين نص علي أن من فتنة زمانه التي عمت وطغت " الخوف ونهب الأموال والنفوس"[١٣].

وبعيداً عن هذه النوازل والتي قد تتسم بنوع من التعميم المكاني يمكن عمل ضبط جغرافي لبعض حالات الخطف في المنطقة المذكورة، فمع الفتنة المشهورة التي أحدثتها حركة النكاري ازدهرت أسواق النخاسة آنئذ والتي كان الخطف احد الروافد التي غذتها، حيث استغل قطاع الطرق واللصوص والذعار انشغال السلطة الفاطمية بهذه الحركة وقاموا يشنون الغارات. نموذج ذلك جماعة من الشطار رأسهم رجل يدعي ابو بردعة قاموا علي حين غفلة من الرقابة السياسية يقطعون السبيل ويضربون علي المنازل يسرقون الأنفس والأموال[١٤]، كما اختصت في تلك الظروف جماعة من البربر بخطف الأحرار والرقيق في احد فحوص المهدية وبيعهم، تكشف عن ذلك رواية ابن حيون[١٥] الذي ذكر قصة احد تجار المدينة وقد ضاع له غلام، وبعد البحث اهتدي الي موضع

---

(١) البرزلي: جامع مسائل البيان لما نزل بالقضايا من الاحكام، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ٨٨ فقه مالك مصورة عن الخزانة العامة بالرباط، جـ٤، ورقة ٢٥.

(٢) الونشريسى: م.س، جـ٢، ص٤٣٥، الوزاني: م.س، جـ١٠، ص٢٣٢.

(٣) م.س، جـ١، ص٣٩٧.

(٤) م.س، نفس الجزء، ص ٣٩٨.

(٥) الوسياني: م.س، ورقة ٥٠.

(٦) الونشريسى: م. س، جـ١٠، ٥٤٥

(٧) م.س، جـ ٥، ص ١١٩.

(٨) ابن سهل: م.س، جـ ٢، ص ٧٢٥.

(٩) الونشريسى: م.س، جـ٥، ص١٦٨.

(١٠) م.س، جـ٣، ص٣٤٧.

(١١) انظر علي سبيل المثال ابن ابي زيد القيرواني: النوادر والزيادات علي ما في المدونة من غيرها من الأمهات،، تحقيق محمد عبد العزيز الدباغ، ط. دار الغرب الإسلامي،١٩٩٩، ص ٤٦٧ وما بعدها .

(١٢) احمد بابا التمبكتى: معراج الصعود إلي نيل حكم مجلب السود، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ٢٠٤ بعثة المعهد الأولي إلي الرباط، ورقة ٥، الذي نقل هذه الفتوي عن ابن لبابة وابن زياد و سحنون وغيرهم من فقهاء الفترة.

(١٣) مجهول: رسالة في متولي القضاء والفتوي والشهادة، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ١٠٢ بعثة المعهد الثانية إلي المغرب، ورقة ٣١٦.

(١٤) الداعي ادريس: تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب "من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار "،السبع الخامس، تحقيق فرحات الدشراوى، ط. تونس، ١٩٧٩م، جـ ٥، ص ٣١٠.

(١٥) المجالس والمسايرات، ص ٣٩١.

فحص افيح تأوي إليه اللصوص فإذا هو " بجماعة من البربر والغلام معهم والمكان خال"، وكاد أن يقع في الخطف لولا مفعول البركة ذات المسحة الخيالية حين توسل الي الله ببركة الأئمة الفاطميين فـ" هرب القوم وتركوه "، وإذا كانت الحادثة تمس مملوكاً رقيقاً فإن هؤلاء السلابة لن يتورعوا حتما عن خطف الأحرار عندما تواتيهم الفرصة، فضلاً عن أن الرجل صاحب القصة لم يسترع انتباهه سوي غلامه المخطوف ولعل طرفاً من هذه الجماعة كان من المخطوفين.

كما كان للعزابة أتباع ابن يزيد دور كبير في خطف الأحرار وبيعهم حيث أشارت احدي الروايات إلي قيامهم بخطف " صبيتين جميلتين "[٣] من أمهما التي " خافت علي نفسها فهربت ونجت بنفسها "[٢].

وتتجلي ظاهرة الخطف بوضوح من خلال تلك الرقعة التي أوردها ابن حيون[٣] وتعود إلي تاريخ هذه الفتنة الزناتية، والتى سجل صاحبها فيها ما قام به اللصوص والذعار معه حين انتبهوا جميع ما في بيته " من العبيد..... والبقر... والذخائر " ولم يكتفوا بذلك بل امتدت أيديهم الي نسائه وأولاده، فعبر الرجل في كلمات حزينة عن ذلك قائلاً " خربوا منزلي وفرقوا اهلي وولدي وقرابتي، فلم أجد أحدا اسكن معه، فارتحلت بأهلي بعد أن اخذ عبيدي فلقيني بعضهم فانتزعوا مني أهلي وبناتي وافترقوهم... وما نجوت... إلا عن جهد "، وما كان لابن حيون[٤] أن يفوت تلك الفرصة دون النيل من عدوه الخارجي، فانطلق لسانه قائلاً " هذا قليل في كثير مما نال غيره... وما عرف الناس فضل ما كانوا فيه إلا عندما وقعت تلك الفتنة بهم وحل ما حل من هذا بأكثرهم ".

ويظل التعويل علي علاقة التلازم بين الخطف وانعدام الأمن من اكبر العوامل لفهم الظاهرة. والذي يمكن من خلاله إخضاع عينات من النصوص الكاشفة عن شيوعها بهذا المنطقة المغربية، فعن المنطقة الساحلية بين قابس وطرابلس وتحديداً عند قرية الزارات منازل البربر المستمسكين بمذهب الخوارج النكارية من أتباع أبي يزيد المستحلين لخطف وسلب مخالفيهم كشف التجاني[٥] عن هذه الحقيقة قائلاً " فهم بهذا المذهب المذموم يتقربون ببيع من يمر بهم من المسلمين للروم، فتجد الناس لأجل ذلك يتحامون الانفراد في قراهم ويتجنبون إيواءهم وقراهم "، وهو ما ينطبق أيضا علي قرية زواغة التي لم يزل أهلها " في القديم يسمع عنهم ببيع المسلم.... اظهروا تعديهم ومدوا إلي المراكب البحرية والركائب البرية أيديهم كأنهم حسدوا أهل زرارة علي تميزهم بتلك الفضيلة التي اشتهروا بها "[٦]، وغير خاف طبعاً أسلوب التهكم والسخرية الذي استخدمه الرحالة المغربي للتشهير بأهل زارات وزواغة، اللهم إلا إن كان يتحدث بمنطق المغيريين أنفسهم والذين اعتبروا مثل هذه الأعمال نوعاً من الفخر والاعتزاز إظهارا للقوة والإباء والذي تناغي الشعراء في الإشادة به.

وأمام شيوع الظاهرة بتلك البقعة الساحلية لم يتمالك الرحالة نفسه في الإشادة بأهل احد المواطن قرب طرابلس والذين شذوا عن غيرهم من ساكنة المكان فلم " يزالوا في القديم مشكورين مكرمين للحجاج علي الصد من جيرانهم ولم يكن يسمع عن احدهم منهم ببيع مسلم ولا تعرض له بسوء"[٧].

وتأتي شهادة ابن حوقل [٨] لتؤكد صدق ما ذكره التجانى فيما يتعلق بهؤلاء المغيرين، حيث وصف سكان هذه المنطقة الساحلية فيما بين قابس وطرابلس بان فيهم " شر شمر ودين قذر، أنهم لا يخلون من الشراية والقول بالوعد والوعيد مع الغيلة لبني السبيل... والويل لمن نام بينهم والحرب علي من جارهم واستجار بهم، مخالفين أكثر أيامهم لسلطانهم"، ويقدم ابن الأثير[٩] بهذا الخصوص

---

(١) الدرجيني: م.س، جـ ١ ص ١٠١.

(٢) م.س نفس الجزء والصفحة، ابو زكريا: كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمن أيوب، ط. الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥.، ص ص ١٧٣، ١٧٤.

(٣) م.س، ص ص ٣٠٩، ٣١٠.

(٤) م.س، ص ٣١٠.

(٥) الرحلة، ص ١١٩، ثم تابع السراج الاندلسى: م.س، جـ ١، ص ٣٥٦.

(٦) التجانى: م.س، ص٢١١.

(٧) نفسه.

(٨) صورة الارض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢، ص٧٣.

(٩) م.س، جـ٩، ص٢٨٦، ثم قارن شهادة الحميري: م.س، ص٤٥١.

نصاً آخر يزيد من تماسك الشهادتين السابقتين ويثبتهما، حيث وصف أهل تلك المنطقة"بالفساد وقطع الطريق " علي مدار تاريخهم.

ويبدو أن خطر هذه الجماعات وما ارتكبوه من غارات، قد اضطر السلطة الفاطمية الي محاولة القضاء عليهم، فقد انتدب المنصور لهم جيشاً كثيفاً "فقتلوا منهم خلقاً كثيراً واسروا مائة وأربعة عشر فقطعت أيديهم وأرجلهم" [١] حداً للحرابة وخطف الأنفس واخذ الأموال، إذ لم تسلم قوافل الفاطميين أنفسهم من غاراتها. فقد امتدت ايدي هذه الجماعة الي بعض القوافل التي أرسل بها جوذر الي المنصور "فخرج عليهم ارديا‌ء الناحية فانتهبوها ما كان لهم... واخذوا ما كان لأمير المؤمنين"[٢] كما يستشف من متن رسالة وجهها المنصور إلي خادمه جوذر أن فريقاً من هذه الجماعة قد اتخذ من مكان عرف بالوادي المالح موطناً لرصد قوافل الفاطميين وخطف أفرادها عرف زعيمهم " بابن الدنهاجي"[٣]حيث قطعت فيها " السبيل وكثر المفسدون "[٤].

ولتحقيق اعلي درجات الانضباط والأمن وحفظاً للأنفس والأموال، ورغبة في غل ايدي هذه الجماعات عن الامتداد لشئون الرعية، اصدر الفقهاء أحكاما فقهية للحد من هذا النشاط الارتياعي، فقد حث سحنون وغيره من فقهاء المنطقة اولي الامر على القضاء علي هؤلاء السلابة معتبرين " جهادهم من افضل الجهاد وأعظمه اجراً..أحب.. من جهاد الروم" [٥] وانه لا يجـوز للإمام" أن يؤمـن المحارب ويتركه"[٦] "والمسلمون واهل الذمة في ذلك سواء" [٧] لأنهم يأخذون" الأموال والرجال والنساء والأحرار والعبيد [٨].

وفي جوابه عن نازلة تتعلق بهؤلاء المغيرين من الأعراب ممن عرف " بالفساد في الأرض والتسليط علي هتك الحريم واخذ الأنفس والأموال "أفتي سحنون[٩] بحرمة التعامل معهم بالبيع والشراء كما حاول سد الأبواب أمامهم بمنع " الحدادين من بيع المسامير والصفائح منهم... والشعير فلا يجوز بيعه منهم لأنه يعلفونه خيولهم التي يتقون بها علي الغارات " [١٠].

أما فيما يتعلق بمنطقة جبل نفوسة وما والاها فثمة إشارات تفصح عن حدوث حالات خطف، فهذه نازلة يعود تاريخها الي القرن الرابع الهجري تتحدث عن رجل اشتري خادماً " فادعت الخادم حريتها وحرية أبويها ويعرف منزلها في جبل نفوسة وذكرت أن بها جماعة يعرفونها "[١١]، وأكد احد الحجاج صدق الجارية حين " وصل في المركب وذكر انه يعرفها حرة وأبويها كذلك "[١٢]، كما ترد نازلة في مسائل نفوسة تخص احد رجال الجبل الذي نجح في خطف احد الاحرار وباعه، ثم انه اعتلاه الندم وجاء يسال فقهاء المكان عما يسعه، فجاءت الفتوي انه " اذا لم يقدر علي فكاكه أن يؤدي ديته إلي أوليائه وعليه رقبة كفارة لما ارتكب من ذلك"[١٣]، وكانت تلك الكفارة محاولة للردع أمام انتشار الظاهرة وشيوعها بالجبل، حيث اجمع فقهاؤه علي انه " لا يجوز بيع الحر ولا أكل

---

(١) المقريزي: المقفى الكبير،تحقيق محمد اليعلاوى،دار الغرب الاسلامى،١٩٩١، جـ٢، ص١٧٣.

(٢) الجوذري: سيرة الاستاذ جوذر" وبه توقيعات الأئمة الفاطميين"، تحقيق محمد حسين كامل، ومحمد عبد الهادي شعيرة،ط. دار الفكر العربي، مصر، ١٩٥٤، ص٦٩.

(٣) م.س، ص ص ٦٩، ٧٠.

(٤) نفسه، ص ٧٠.

(٥) ابن فرحون: تبصره الحكام، جـ٢، ص١٨٦.

(٦) م.س، نفس الجزء، ص ١٨٧

(٧) م.س، نفس الجزء، ص١٨٦.

(٨) نفسه.

(٩) المسائل المتعلقة بالمغارسة، مخطوط بمركز جهاد الليبيين، ليبيا، تحت رقم ١٧١٤، ورقة ١٦.

(١٠) نفسه.

(١١) البرزلي: م.س، جـ ٤، ورقة ١٢٣، الونشريسي: م.س، جـ ٩، ص ٢١١.

(١٢) الوزاني: م.س، ص ص ٣٤١.

(١٣) عبد الوهاب بن رستم: مسائل نفوسة، تحقيق وترتيب إبراهيم محمد طلاي،ط. غرداية، ١٩٩٠، ص ص ١٧٣، ١٧٤.

قيمته" [١]

ومع الحركة الثورية التي قادها خلف بن السمح المعافري بهذه المنطقه راحت تنشط عمليات الخطف عبر مجموعة من الغارات التي شنها اللصوص والشطار الذين انضموا اليه طمعا في الحصول علي الأنفس والأموال حيث اطلق الثائر أيديهم علي اهل الجبل " ينهبون الأنفس والأموال ويقتلون الرجال٠٠٠ فاستمال إليه كثير من الناس من كان في ناحيته٠٠ طلبا للمعيشة ورغبة في الدنيا "[٢]، وهكذا رفع أهل الجبل شكايتهم للفقيه ابن الخير التبورز قائلين " كيف نفعل مع هؤلاء المغيريين... إن اخذوا الأموال والأنفس" [٣] فأجابهم " اقتلوهم كيف وصلتم إليهم"[٤].

وتتواتر المعلومات عن حالات خطف قام بها هؤلاء المغيرون، فقد تعرض الشماخي[٥] أثناء ترجمته للفقيه النفوسي أبو سليمان البطريس (من أهل القرن الثالث الهجري) للحديث عن مجموعة من الشطار يرأسهم رجل يسمي ابن فلاوسن كان " يدخل الفنادق ويأخذ أولاد اليهود "،كما شنت تلك المجموعة غارة علي احد مواضع نفوسة يعرف بلالوت بغية " خطف حريمها " [٦]، كان من جملتهم بنات الفقيه أبو حدرون اللائي اختطفهن المغيرون و " جلبوهن الي نفزاوة " [٧]، كما تعرض الفقيه عبود بن منار (الطبقة التاسعة٠٠ ٤-٠ ٥ ٤ هـ) واهله لاحدي هذه الغارات الا انه " دافع عن نفسه وأهله حتى ماتوا " [٨]، وعاين الفقيه أبو خرز من أهل القرن الرابع الهجري بعض السلابة يختطفون احد نساء الجبل " واخذوا في نزع ثيابها " [٩]مما يومي الى تعرض النساء المختطفات للاغتصاب قبل بيعهن في أسواق النخاسة،وخرج الفقيه أبو مرداس[الطبقة الخامسة ٢٠٠-٢٥٠ هـ]، في عير يمتار طعاماً في قافلة " فغار عليهم قطاع السبيل"[١٠]،وهو ما تعرض له أيضا الفقيه أبو خليل بن صال (ق٣ هـ/٩م) حيث وقع قطاع الطرق علي قافلة كان بها فأخذوهم بينما نجي الفقيه بنفسه " فدخل مغارة مكث فيها أربعين يوما"[١١].

ولم تختلف وضيعة القيروان عن نظيراتها من مدن الشرق المغربي، اذ كانت الفتنة التي أحدثها الصراع السياسي قبيل قيام دولة الأغالبة كافية لشن الغارات من قبل السلابة والمغيريين، وهكذا استغل هؤلاء غياب السلطة أيام الوالي الياس بن حبيب لانشغاله بحروبه ضد ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن " فاستحلوا المحارم وارتكبوا الكبائر"[١٢] واعتادوا خطف البنين والبنات، فقد اضطرت احدي الأمهات أن تستر بنتاً لها " في حفرة حفرتها تحت سرير... مخافة عليها "[١٣] من الخطف، وحسب إشارة القاضي عياض[١٤] اعتاد اللصوص خطف أبناء النصاري واليهود من أهل القيروان وبيعهم في اسواق النخاسة.

وبصرف النظر عن هذا الاستعراض الذي يهدف عمل ضبط مفصلي لبلاد المغرب مكانياً في إطار فترة البحث، فإن القراءة الفاحصة لمجموع النصوص المتعلقة بالموضوع من مختلف

---

(١) م.س، ص ١٨٦.

(٢) البغطوري: سير نفوسة، نسخة منقولة عن الأصل الموجود في مكتبة جربة، الجزائر، ورقة ١٠٩.

(٣) م.س، ورقة ٢٦.

(٤) نفسه.

(٥) تراجم علماء المغرب إلي نهاية القرن الخامس الهجري "، تحقيق ودراسة محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، م ٣٠، ١٩٩٥، ص ٣٠١.

(٦) الوسياني: م.س، ورقة ١٥.

(٧) م.س، ورقة ٦٠.

(٨) الدرجيني: م.س، جـ ٢، ص ص ٤٠٢، ٤٠٣.

(٩) ابو زكريا: م.س، ص ٢١٨.

(١٠) الشماخي: تراجم علماء المغرب، ص ٨٦.

(١١) م.س، ص ١٣١

(١٢) ابن عذاري: م.س، جـ ١، ص ٧٠، الشماخي، تراجم علماء، ص ٢٨.

(١٣) ابو زكريا: م.س، ص ٦٥، الشماخي: نفسه.

(١٤) المدارك، جـ٣، ص ٢٢١.

مظانها تكشف عن القول بقاعدة عامة ترتبط بظاهرة الخطف مفادها أن قوافل التجارة ومواكب الحجاج كانت اشد تعرضاً لهذه العمليات دون غيرها من المظاهر الأخري، ولا غرو فقد أتقن السلابة والخاطفون رصد طرق القوافل باعتبارها مرتعا خصباً للتزود بالرقيق وممارسة الحرفة المذمومة، يبتهلون فيها الفرص للانقضاض علي سالكيها " انقضاض الصقور علي البغاث"[١]،ويبدو أن استفحال الظاهرة كان وراء إجماع كثير من فقهاء المغاربة علي سقوط فريضة الحج، فقد اشترط فقهاء المالكية أمثال سحنون وابن ابي زيد وابن رشد والمغيلي والمازرى وغيرهم لأداء الحج " امن السبيل بحيث لا يخف علي نفسه أو ماله... فإن خافوا علي أنفسهم وأموالهم فإن الحج ساقط " [٢]، ثم جاءت فتواهم صريحة–استناداً علي ذلك–بسقوطه عن المغاربة" لتعاسر الطريق وظهور الفساد في البر والبحر [٣] بـل وصـل الأمر بالفقيه الطرطرشى أن تنص فتواه علي أن " الحج حرام علي أهل المغرب، فمن خاطر وجح فقد سقط فرضه، ولكنه أثم بما ارتكب من الغرور "[٤]، وظلت مسألة الخطف ودورها الارتياعي لسبل الحجاج المغاربة تشغل أذهان الفقهاء المغاربة ولعصور طويلة حتى ألف احدهم مصنفاً جمع فيه أقوال الفقهاء وفتواهم حول الموضوع مستنداً عليها للقول بسقوط الحج عن المغاربة [٥].

وبالمثل اتفقت عبارات فقهاء الاباضية [٦] علي سقوط هذا الفريضة استناداً إلي المنطق ذاته، فقد نصح الفقيه الاباضي بن زورستن الوسياني (الطبقة التاسعة) صديقه أبا يعقوب بن أبي عبد الله وقد تذاكر معه يوماً في قائلاً " لا أري الحج الا وقد سقط عنك لانقطاع السبيل وجور أهل الزمان " [٧] وهو ما أكد عليه صاحب الرواية حين عقب عليها قائلاً "وقد صدق رحمه الله فأن فريضة الحج الاستطاعة فاذا انقطع السبيل.... عدمت الاستطاعة وسقط فرض الحج"[٨]، كما سجل الوسياني[٩] عجز الفقيه محمد بن الخير(ق٣هـ / ٩م) عن اداء الفريضة " لعسر الطريق وانقطاعها والمحاربين الذين يفسدون في الأرض... وكان يقول أعوذ بالله من.... السفر فانه منقطع "، ولم يكن هاجس الخوف من الخطف أثناء رحلة الحج قاصراً علي المغمورين من أبناء الأوساط الشعبية، بل شمل حتي القابعين علي رأس الهرم السياسي، فقد اثني الإمام الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمن عن الحج من قبل فقهاء المذهب حين عزم عليه خوفاً عليه من الخطف مما يتسبب في تعطيل الامور. اذ نصت فتواهم علي انه " ليس عليه حج، لان أمان الطريق من الشروط التي هي مشترطة في وجوب الحج" [١٠] مما اضطره إلي إرسال من يحج عنه.

ولم ينس ابو عبيد الله القيسى[١١] أن ينبه قراء رحلته الى مخاطر طريق الحج وعلي رأسها

---

(١) العبدري: م.س، ص ٨٣.

(٢) البرزلي:م.س،جـ ٤،ورقات ٢١٤، ٢١٥،الجيطالي: الحج،مخطوط بمركز جهاد الليبيين تحت رقم ١٢٥٤،ورقة ٤.

(٣) م.س، نفس الجزء، ورقة ٢١٦.

(٤) الونشريسى: م.س، جـ ١، ص ٤٣٣.

(٥) الحسيني الفاسي: سؤال في الحج رفع لقضاة الجماعة بفاس، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب تحت رقم ٣١٦ فقه تيمور

(٦) الجناوني: كتاب الوضع، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب، تحت رقم ١١٧ فقه المذاهب، ميكروفيلم ٤٧٣٦١، ورقة ٧٤، عبد الوهاب بن رستم: م.س، ص ٨٨، الدرجيني: م.س، جـ ٢، ص ٣٩٨، الشماخي: كتاب الإيضاح، عمان، ١٩٨٣، جـ٨، ص ٢٣٦، بينما لم يول الشيعة هذه المسألة اهتماماً لان تأويل الحج عندهم كان يعني معرفة امام الزمان. انظر ابن حيون: تأويل الدعائم، تحقيق محمد حسن الأعظمي، ط.دار المعارف، مصر، (د. ت)،جـ ٣، ص ١٤٨.

(٧) الدرجيني: م.س، جـ ٢، ص٣٩٨.

(٨) م.س، نفس الجزء والصفحة.

(٩) م.س، ورقة ٨٩.

(١٠) الدرجيني: م.س، جـ١، ص٦٦، الشماخي: السير، جـ١، ص١٤٠.

(١١) انس الساري والسارب من أقطار المغرب إلي منتهي الامال والمآرب سيد الاعاجم والاعارب، تحقيق محمد الفاسي، فاس، ١٩٦٨، ص٣.

الخطف، ملزما كل من اراد الحج أن يكتب وصيته ويسد دينه " ويفعل ذلك كل متيقن في سفره منيته".

واضطر كثير من راغبي الحج من المغاربة أمام هذا الخطر إلي توكيل من يحج عنه ممن نصب نفسه لذلك لخبرته بالطريق وقدرته علي المناورة والإفلات، مقابل مبلغ من المال قد يصل في بعض الأحيان إلي الأربعين ديناراً،فيما عرف فى الصنفات الفقهية بالحج بالنيابة، وهو مالقي جوازاً من قبل الفقهاء لدخوله في دائرة الضرورة [١]، وتفاني الموثقون في ضبط شروطه بحيث يكتب في ذلك عقد استئجار يشهد فيه الأجير علي نفسه " يحج عنه ويعتمر ويزور وينحر"[٢].

وتتعدد الإشارات المصدرية التي تنص صراحة علي خطف الحجاج، ففضلاً عن إشارة التجاني السابقة عـن قرية زواغة، نطالع عنده نصاً آخر بالغ الدلالة يتحدث فيه عن قصر وزدر قرب طرابلس والذي اشتهر اهله في القديم " ببيع من يجتاز به من الحجاج وغيرهم للنصاري، ولم تزل الركوب تحترس إذا مرت به خوفاً من أهله، وخوفهم من سرقة الرجال أكثر من خوفهم من سرقة الرجال، فإذا جازوا عليهم ولم يفقدوا أحداً ممن معهم هنأ بعضهم بعضاً بذلك، وكان هذا الفعل فيهم شائعاً فيما تقدم"[٣]، ووجد نص التجاني دعماً من قبل الرحالة العبدري[٤] الذي وصف مسالك منطقة طرابلس بأنها " لا يسلكها إلا مخاطر ولا يعدم من عربانها إيلام خاطر... اتخذوا اخذ الحاج خلقاً وديناً، واعتقدوا إهلاكه ملة ودينا... فما يمر بتلك المسالك سالك ولا يخطر علي تلك المعابر عابر... إلا انقضوا عليه... بحيث لا يغاث من استغاث "، وهو ما أكد عليه أيضا ابن سعيد [٥] حين ذكر أن الحجاج يجدون في تلك المنطقة مصاعب جمة ومشاق كثيرة، حتي عرف أهل تلك المنطقة بأنهم " ظلمة فتاكون اهل فساد وغارات " [٦].

ولعل فيما أورده ابن الأثير[٧] ما يدعم الشهادات السابقة، حيث وصف أهل هذه المنطقة الساحلية بالفساد وقطع الطريق، ودلل علي ذلك بأنهم تعرضوا لقافلة حجاج عام ٢٦٩هـ/٨٨٢م " فسلبوهم وساقوا نحوا من خمسة آلاف بعير بأحمالها وأناساً كثيرة "، وقرب برقة تعرض احد مواكب الحجاج وقد نيف علي سبعمائة نسمة لغارة خاطفة من بعض السلابة الذين اعتادوا " بيع من في تلك الأحياء من الأحياء للناس"[٨]، فلم ينج منهم إلا "مائة أو نحوها "[٩]مما أجاش قريحة احد الشعراء الذين تسامعوا بالخبر فأنشد قائلاً :

ارجـع لمحـل حال بمـا يشكو لفراقك من علل...

فشروط الحج قد ارتفعت لزوال القدرة والسبل [١٠].

ونجي ركب آخر من حجاج موضع تامجروت من الخطف حين سلكوا وعراً جبلياً تفادوا به مكاناً يسمي" خنق المكتاوة " اتقاء أن يصيبهم مكروه" من طائفة من اللصوص تجتمع فيه غالباً "[١١]فلما عبروا تلك المفازة الحرجة ارتاحت منهم " النفوس وذهب عن القلوب حداها " [١٢]، وتعرضت قافلة للحجاج كان فيها الفقية الاباضي ابو زكريا بن ابي زكريا الاباضي(ق٣هـ/ ٩م) للخطف حين" غشيهم السلابة " [١٣] لولا انهم دافعوا عن أنفسهم ونجوا، وان كان الشك يراودنا في

---

(١) الشماخي: الإيضاح، جـ٨، ص٢٣٦، ابن سهل: م.س، جـ١، ص ص ١٥١، ١٥٢

(٢) ابن العطار: م.س، ص ص ٤٦١، ٤٦٥، ٤٧٦.

(٣) التجاني: الرحلة، ص ٢١٠ ٠

(٤) م.س، ص ٨٣.

(٥) كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٤٦.

(٦) الدرجيني: م.س، جـ٢، ص.٤١٢

(٧) م.س، جـ٦، ص٣٢٩، جـ٩، ص ٢٨٦.

(٨) التجاني: م.س، ص ١٩٢

(٩) م.س، ص ١٩١.

(١٠) م.س، ص١٩٣.

(١١) القيسي: م.س، ص٢٧.

(١٢) م.س، ص ص ٤٠، ٤١.

(١٣) ابو زكريا: م.س، ص٢٤٩.

نجاة كل افراد القافلة خاصة وان الرواية لم تتعرض الا لنجاة الفقيه المذكور، وهو الموقف ذاته الذي تعرض له الفقيه المالكي ابو الحسن الخولاني (ت ٣٤٠هـ/)٩٥١ حيث اعترضته وممن معه من الحجاج غارة من العرب فجردتهم وشدت وثاقهم [١].

وهكذا تفصح تلك الإشارات عن وقوع كثير من الحجاج فريسة في يد المختطفين، وهو ما اتخذ منه المعز الفاطمي دليلاً للترويج بعجز القوي السياسية المخالفة عن تأمين السبل مما افرز وضعية متردية أدت إلي سقوط هذه الفريضة، ورغبة منه في استقطاب أهالي البلاد وجمع الأعوان كتب مرسوماً سياسياً أمر بإذاعته علي أهل المغرب يذكر فيه رغبته في" إقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فروضة وحقوقه للخوف المستولي عليهم، اذ لا يؤمنون علي أنفسهم ولا علي أموالهم، واذ قد أوقع بهم مرة بعد مرة...مع اعتماد ما جرت به عادته من إصلاح الطرقات وقطع عبث العابثين " [٢].

أما بخصوص قوافل التجارة فلا حاجة إلي كبير عناء لإثبات تعرضها لحالات الخطف مع تفشي اللصوصية وانقطاع السبل علي يد سقط العوام من الشطار والدعار والذين لم يتوقف نشاط عصاباتهم علي طول مسالك الرفاق والمفاوز والشعاب وقد آوتهم الخرائب والغيران والكهوف، وثمة نصوص تثبت عمق الظاهرة وارتباطها بالخلل الذي اصاب مجموع القوي السياسية خلال فترة البحث، فقد سئل سحنون عن قافلة تجارية تعرض اللصوص لاهلها " يريدون اخذهم، فقام بعض اهل الرفقة فضامنهم علي مال عليه وعلي جميع من معه " [٣]، وهو ما نجد له نظيراً في نوازل الفقيه ذاته حين أستفتي عن رفقاء من التجار " قطع عليهم الأعراب الطريق... [و] اخذوا أموالهم وحريمهم "[٤]، كما تعرض ركب من التجار لغارة من قطاع الطريق " فاخذوا الاموال واسروا الرجال وباعوا الأولاد"[٥]، وحسب ما أورده الوسياني [٦] وقع اللصوص علي قافلة كانت في طريقها من نفوسه الي الغرب " فاخذوا اهلها وباعوهم رقيقاً "، ويكشف احد التجار علي اثر رحلته الطويلة من المغرب الأقصي إلي قسنطينة في عبارة دالة عن المصاعب والأهوال التي واجهت قافلة كان فيها قائلاً " رأينا في طريقنا من انقلاب الشر وكان أمر الطريق في الخوف مقتضاه أن كل من يقع قدومنا عليه يتعجب من وصولنا سالمين، ثم يتأسف علينا عند ارتحالنا حتي أن منهم من يسمعنا ضرب الأكف تحسراً علينا " [٧]، ويفصح تاجر آخر عن عمق الانقطاع الذي ضرب في صميم المواصلات بين جناحي بلاد المغرب شرقاً وغرباً قائلاً " ولم أزل اقطع المفاوز مسحورة واجزع الطرق مشحونة باللصوص والدعار اخفي نفسي إخفاء القنفذ رأسه واكتم حسي كتمان الغراب سفاده"[٨]، وهكذا تتوالي في مصادر العصر التفاصيل عن تاجر غارت عليه غارة " وأخذت كل ما عنده وسبيت زوجته"[٩]، وهو المصير ذاته الذي تعرض له الفقيه القيرواني التاجر عبد الملك المهري (ت ٢٥٦ هـ /٨٧٨ م) الذي روي قصة تعرضه للخطف حين خرج في احدي رحلاته قائلاً " فاذا بقوم محاربين قد خرجوا علينا أحاطوا بنا واخذوا كل شئ معنا وعرونا من ثيابنا وكتفت فيمن كتف" [١٠] ولم يعصمه من الاسترقاق ضمن غيره من اهل الرفقه الا احد اللصوص كان للفقيه عليه

---

(١) عياض: المدراك، جـ٣، ص٠ ٣٧.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا في ذكر الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال،ط.دار الفكر العربي،١٩٤٨، ص ص ٦٧ – ٧٠ .

(٣) السجلماسي: م.س، ورقة ٩٥.

(٤) الوزاني: م.س، جـ٨، ص ١٨٠.

(٥) البرزلي: م.س، ورقة ٣٦

(٦) م.س، ورقة ٢.

(٧) ابن الزيات: المعزى في مناقب أبي يعزي، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب، تحت رقم ١٢٤٩ تاريخ تيمور، ميكروفيلم ٢٢٧٧٠٣.، ورقة ١٢٩.

(٨) ابن بسام: الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، تحقيق احسان عباس،ط. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨– ١٩٧٩، ق٣، م١، ص٤١٢

(٩) الاوجلي : م.س، ص ٢٢٧.

(١٠) المالكي: م.س، جـ١، ص ٢٤٥، ثم تابع إشارة عن تعرض الفقيه اسماعيل بن رباح للخطف مع رفقه كانت معه عند المؤلف ذاته، ص ٢٤٥.

نعمة حين انحاه من القتل بين يدي زيادة الله بن الأغلب، وقتل الفقيه القيرواني اسحاق بن ابراهيم الصانع (ت ٣٠٣هـ/٩١٥م) علي يد مجموعة من السلابـة أغارت علي قافلة كان فيها لما أبي أن ينقاد معهم [١]، وقرب نفوسة تعرضت قافلة تجارية لإحدي الغارات خلال القرن الثالث الهجري"فاستباحوها جميعاً"[٢]، ووقع ثلاثة من التجار في يد اللصوص خلال القرن ذاته فيما بين برقة وطرابلس[٣]، وتعرض الفقيه الاباضي ابو مرداس للخطف هو ومن معه من أهل قافلة حين خرجوا " ليتماروا في زمان الشدة..... فوقع عليهم السراق" [٤]، وحين خرج المهدي الفاطمي هارباً الي المغرب متنكراً ومن معه في زي التجار غارت عليهم غارة عند موضع الطاحونة قرب برقة " فخرج علي الرفقة اللصوص فسلبوا كثيراً من أهلها" [٥]، وأورد الشماخي[٦] اسم موضع عرف بتمنكرت كان مرصداً للقطاع والشطار يتعرض عنده التجار للخطف والسلب، وحسبما اورده ابن شرف القيرواني[٧]عرف التجار الذين يختطفون ويباعون في هذه الأماكن الصحراوية بـ " اقنان الفيافي ".

ولم تكن ظاهرة الخطف- والتي زودت الأسواق المغربية بالرقيق- قاصرة علي الجبهة الداخلية الممثلة في بلاد المغرب فقط، بل ثمة نصوص تؤكد علي مساهمة الجبهات الخارجية ايضا في تلك العملية، ففي اوربا مثلاً تفصح الوثائق اللاتينية عن قيام اليهود بسرقة أبناء النصاري الفرنسيين خاصة وبيعهم كرقيق في الأندلس وشمال أفريقيا خلال القرن الرابع الهجري [٨]، ناهيك عن عمليات القرصنة التي قام بها القراصنة الأوربيون لخطف راكبة البحر وبيعهم في اسواق النخاسة، ومن هنا تتصاعد مخاطر ركوب البحر لتضاف الي ما سلف ذكره عن مهالك البر، وهو ما كشف عنه اللخمي القيرواني في نص دال يقول فيه " طريق البر في هذا الوقت متعذر ومن اراد ركوب البحر خوف ايضا من ركوبه، وقيل له إن الغالب عليه الغرور والخوف من الروم والتقرير بما يتقي علي المراكب" [٩]

كما مثلت بلاد السودان رافداً خارجياً آخر تزود من خلاله المغاربة بالرقيق عن طريق الخطف، مما حدا باحد دارسي [١٠] ظاهرة الاسترقاق ان يسجل قوله " إن أسواق بلاد المغرب في عصورها الأولي قد امتلأت بحشود كبيرة من السودانيون الذين تم خطفهم من هذه البلاد "، ويبدو ان قراءات فاحصة للروايات المصدرية قد تدعم هذا الاستنتاج، إذ نتوفر علي جملة من القرائن الدالة علي وفود كثير من سكان هذه البلاد إلي المغرب في صورة رقيق مختطفين.

فعن بلاد النوبة تكشف فتوي هامة لسحنون[١١]عن بعض حلقات هذه الظاهرة، حيث قال بعدم

---

(١) الانصاري :معالم الايمان وروضات الرضوان فى مناقب المشهورين من صلحاء القيروان، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم٢٠٥ تاريخ، ورقة ١٥٧.

(٢) الدرجيني: م.س، جـ٢، ٣٢١.

(٣) ابن حيون المغربي: المجالس والمسايرات، ص ١٨٣.

(٤) البغطوري: م.س، ورقة ٣٥.

(٥) ابـن حيـون: رسـالة افتتـاح الـدعوة، تحقيـق وداد القاضـي،ط. دار الثقافـة، بيـروت، ١٩٧٠. ص١٥١.

(٦) تراجم علماء المغرب، ص ٢٨٠.

(٧) ديوانه، تحقيق حسن ذكري حسن، نشر مكتبات الكليات الازهرية (د. ت)، ص ٧٩، ولمزيد من التفاصيل عن اوضاع الطرق ببلاد المغرب وما تخللها من عمليات سلب ونهب انظر كتابه اعلام الكتاب، تحقيق عبد العزيز الخانجي، القاهرة ١٩٢٦، ص١٤.

(٨) ادم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ت محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط. لجنة التاليف والترجمة، القاهرة ١٩٥٧، جـ١، ص ٢٢٧، عبد السلام الترمانيني: الرق ماضيه وحاضره، عالم المعرفة، العدد ٣٢، ١٩٨٥، ص١٠٣، *Grand larousse Enc.t.4,Paris, 1961, p67*

(٩) الونشريسى: م.س، جـ١، ص٤٣٤.

(١٠) *Willis: Willis (R.J): "The Ideology of enslavement in Islam" in Slaves and Slavery in muslim Africa., p.9*

(١١) المدونة، جـ١٠، ص ١٠٦.

جواز شراء رقيق هذه البلاد ممن " يغير عليهم غيرهم فيسبونهم ويبيعونهم من المسلمين"، بينما وقف بعض فقهاء الشيعة موقفاً مخالفاً من هذه الفتوي حين سئل احدهم عن المسلمين "الذين يغيرون علي... النوبة فيسرقون أولادهم من الجواري والغلمان فيخصونهم ثم يبعثون الي التجار المسلمين..ونحن نعلم أنهم مسروقون، قال : لابأس إنما أخرجوهم من دار الشرك إلي دار الإسلام" [1]،ولا مجال هنا للدهشة من هذا التبرير إذا قيس بغيره من مسوغات استرقاق المخالفين من أهل الإسلام.

وترد نازلة أخري تتعلق بفترة البحث عن " جماعة من النوبة يحرثون أرضهم وتنزل عليهم الأعداء وتأخذ أموالهم وأولادهم ليس لهم حيلة في ذلك"[2]، وهو ما وجد تأكيداً من خلال شهادة رحالة فارسي[3] زار المنطقة عام ٣٧٢هـ /٩٨٢م ووصف ما كان يقوم به التجار المغاربة وغيرهم في بلاد النوبة من " سرقة أبنائها، ثم يقومون باخصائهم ويجلبونهم... ويوجد بينهم من يسرق أبناء غيره ليبيعهم الي التجار عندما يقدمون إليهم"، وحسب شهادة ناصر خسرو[4] في رحلته يرد نص يزيد من متانة النصوص السابقة حين تحدث عن التجار المسلمين أيضاً الذين كانوا يدخلون بلاد البجة الممتدة من مصر الي الحبشة خلال القرن الرابع الهجرى فيسرقون "أبناءهم ويحملونهم إلى المدن الإسلامية ليبيعوهم فيها ".

وفضلاً عن بلاد النوبة والبجة اعتاد التجار المسلمون- فضلاً عن اللصوص والدعار- الاغارة علي بلاد الحبشة " فيأتون بالصبيان والصبيانة من اولاد الحبشة فيسقلبونهم [يخصونهم] ويخرجونهم الي جميع الأقطار ويبيعونهم... الي بلاد اليمن والهند والمغرب" [5]،كما أشار الادريسي [6] – ومن نقل عنه [7] - الي وجود ظاهرة الخطف بقرية جوة الحبشية والتي ذاع صيت أهلها بأنهم " يسرق بعضهم ابناء بعض ويبيعونهم من التجار فيخرجونهم الي البر والبحر"، واستحثت هذه العمليات همم الفقهاء المفتين لمحاولة الحد منها، نموذج ذلك ما افتي به الفقهاء المغاربة وعلي رأسهم ابن زياد بان يخرج المملوك الحبشي عن يد مالكه " حتي يقيم البينة انه ابتاعه ممن كان له مالكاً وجعل الاثبات علي السيد...هذا فيما بيع في بلد الحبش، اذ كان الغالب فيه بيع الأحرار... وكانوا يكلفون السيد إقامة البينة علي صحة ابتياعه " [8].

ولم يسلم السودان الأوسط والسودان الغربي من غارات تهدف خطف الأحرار وبيعهم رقيقاً، فقد تحدث الادريسي[9]عن قيام سكان صحراء جنوب فزان بشن غارات علي " الذين يجاورونهم من أجناسهم يسرقون أبناء هؤلاء القوم... الذين يعمرون هذه الصحاري ويسرون بهم في الليل ويأتون بهم الي بلادهم ويخفونهم حيناً من الدهر ثم يبيعونهم من التجار الداخلين إليهم بالبخس من الثمن ويخرجونهم إلي ارض المغرب الأقصي ويباع منهم في كل سنة أمم وأعداد لا تحصي، وهذا الأمر الذي جئنا به من سرقة قوم أبناء قوم...طبع موجود فيهم لا يرون به بأساً "، ولقد صدق الادريسي حين اعتبر ظاهرة الخطف عند سكان هذه المنطقة عادة وطبعاً قديماً، حيث أكد كل من هيرودت وسترابون في كتابتهما عن شعب الجارامنتسGramants الذي سكن فزان علي تلك الحقيقة، حيث ذكرا انهم كانوا يقومون بالاغارة علي الشعوب السوداء عن طريق عربات حربية ذات عجلتين

---

(١) العاملي: م.س، م٦، جـ١، ص١٠٠.

(٢) القصري: م.س، ورقة ٢٥٨

(٣) مجهول: حدود العالم من المشرق إلي المغرب، تحقيق يوسف الهادي، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٤٨، ثم تابع:
Lewis(B): *Race and color in Islam, London, 1971,*p.31.

(٤) سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب،الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الالف كتاب (عدد ١٢٢)، ١٩٩٣م، ص ١٣٤.

(٥) مجهول: كتاب في الجغرافيا، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ٤٦ بعثة المعهد الاولي إلي المغرب، ورقة ٣٥

(٦) كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ط مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت)، جـ١، ص٤٦.

(٧) الحميري: كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، ط٢ بيروت،١٩٨٠، ص ١٨٠ والذي استبدل جوة بجور

(٨) ابن سهل: م.س، جـ١، ص ص ١٨٨، ١٨٩

(٩) م.س، جـ١، ص١١٠، ثم تابع اشارة عند البكري: المسالك، جـ١، ٦٦٥

تجرها اربعة خيول لتعود محملة بالاسلاب والسبايا المختطفين[١]

وفي نصوص أخري أوردتها المصادر ما يفصح عن شمول ظاهرة الخطف لمجموع مدن السودان الغربي، فقد اشار البكري[٢] الي تعرض التجار لغارات الخطف والسلب عند موضع وانزميرن علي طريق القوافل الي بلاد السودان " وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة علي الرفاق ويتخذونه مرصداً لهم " كما تحدث الادريسي[٣] عن غارات يشنها السلابة واللصوص علي مدن بريسي وسلي وتكرور وغانة ولملم " فيخطفون من اهلها " وحسب نص آخر " يسبونهم في كل الأحايين بضروب من الحيل ويخرجونهم الي بلادهم فيبيعونهم من التجار قطاراً ويخرج منهم في كل عام إلي المغرب الأقصي أعداد كثيرة " [٤].

وتستوقفنا هنا عبارة الادريسي[٥] عن ضروب الحيل التي استخدمها الخاطفون لقنص السودانيين، حيث اورد الرحالة ذاته في موضع آخر الطريقة التي كان يخدع بها الخاطفون ابناء هذه البلاد فيقول" وللعرب في قلوب الزنج رعب عظيم ومهابة فلذلك متي عاينوا رجلاً من العرب تاجراً او مسافراً سجدوا له وعظموا شأنه وقالوا بكلامهم هنيئاً لكم ياهل بلاد التمر، وان المسافرين في بلادهم يسرقون ابناء الزنج بالتمر ويخدعونهم فينقلونهم من مكان الي مكان حتي يقبضون عليهم ويخرجونهم من بلادهم الي البلاد التي يكونون بها "، ووجد نص الادريسي تأكيداً من قبل نصوص أخري قديمة فارسية ويونانية ولاتينية نقلها كل من Anene[٦] و Lewis[٧] تذكر ان الخاطفين كانوا يتوجهون الي هذه المناطق مساءً ينتظرون خروج الاطفال - والذين وصفتهم مصادرنا ضمن غيرهم من سكان البلاد بانهم " فقراء"[٨] محرومون – فيغرونهم بالطعام خاصة التمر ثم يقودونهم من مكان الي مكان حتي يتم جمعهم وربطهم بالقيود وشحنهم في القوافل الي شمال افريقية لتمتلئ بهم أسواق الرقيق.

واستناداً إلي النظرة الدونية للسودانيين من قبل اهل الفكر المغاربة فضلاً عن كثرة الأعداد المشحونة منهم داخل الأسواق المغربية، غض بعض الفقهاء الطرف عن الوقوف عن أحكام شراء الرقيق المخطوف منهم، حتي لو ادعوا الحرية، فقد نصت احدي الفتاوي علي انه من ادعي " انه حر قد خرج حراً الا ان يتبين انه جلب من بلاد السودان فانه لا يشتغل به في هذه الوجوه" [٩] واستندت الفتوي الي مسوغ واهٍ مفاده " ان سبب الملك انما هو الكفر، فمن اشتري كافر اساغ تملكه"[١٠]ولعل فيما افتي به الفقيه المغيلي(ق٤هـ/١٠م) بأنه لا يعبأ الي من تم استجلابه من بلاد التكرور" اذ الغالب علي أهل هذه البلاد الجهل والهوى والكفر،وأصلهم كان ذلك... قوم كفار يعبدون

---

(١) فيجي. ج. دي: تاريخ غرب افريقية، ترجمة السيد يوسف نصر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢، ص٤٣

(٢) المسالك، جـ٢، ص٨٤٧

(٣) م.س، جـ١، ص١٩، نم تابع مجهول: كتاب في الجغرافيا، ورقة ٥٣، ابن خلدون: المقدمة، دارا القلم، بيروت جـ١١، ١٩٩٢، ص٥٤.

(٤) الادريسي: م.س، جـ١، ص٨٦، السلاوي: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصي، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤، جـ٥، ص١٣٢ .

(٥) م.س، جـ١، ص ٦١.

(٦) *Anene (Y.C): "Slavery and Slave trade", in Africa in the nineteenth and twentieth centuries, press*, p. 96.

(٧) op.cit , p.31.

(٨) مجهول: حدود العالم، ص ١٤٨.

(٩) الشماخي: الإيضاح، جـ٥، ص١٢٧، التمبكتي: م.س، ورقة ٤-٦، ثم قارن اشارة عند : *Willis: op.cit, pp. 16-19.*

(١٠) التمبكتي: م.س، ورقة ٢.

النار" [1] ما يؤكد ذلك.

وهكذا تفصح تلك النصوص المثبتة والتي تخص أقطار المغرب الثلاثة الأقصي والأوسط والأدني- والتي مثلت الجبهة الداخلية - فضلاً عن الجبهات الخارجية التي تهم حوض البحر المتوسط وبلاد النوبة والحبشة والبجة والسودانيين الاوسط والغربي،عن شيوع ظاهرة الخطف ومساسها بالأحرار في إطار انهيار شامل لمجموع النظام الأمني، الذي طالما تسببت فيه الصراعات بين القوي السياسية.

فلا عجب اذن ان يتقاطر علي أنظار الفقهاء سيل من النوازل تخص احراراً اندرجوا في سلك العبودية عن طريق الخطف، وصاروا يحتاجون الي إعطاء الحجج والأدلة علي حريتهم، حتي غدا الإفتاء في مثل هذه النوازل من البديهيات الملزمة لكل من يروم الاشتغال بالفقه والقضاء، اذ اغتنت فتاوي الفترة بمناقشة حيثيات الكشف عن حرية الكثير من الاشخاص وتأطير الضوابط الشرعية التي تخضع لها، ليتم من خلالها رفع هذه القضايا وإحالتها الي القضاة للبت فيها، ولعل فيما تناوله كثير من فقهاء الفترة من المغاربة من امثال ابن زياد [2] وابن حبيب[3] وسحنون[4] وابن غانم[5] وابن ابي ويسلان[6] وابو عمران الفاسي[7] وابن سهل[8] وابن رشد[9] وابن الحاج[10] والسيوري[11] والشماخي[12] وغيرهم، ما ينهض دليلاً عن شيوع ظاهرة خطف الأحرار وسعي المفتين والقضاة للتصدي لها.

وهكذا تتواتر التفاصيل عمن " اشتري جارية بكراً فاقتضها ثم استحقت حرة "[13]، وعن " امرأة متملكة عند بعض الحكام تدعي الحرية" [14]، وعمن " اشتري جارية وشهد شاهد بحريتها" [15]، وعمن " اشتري عبداً...ثم استحق حراً "[16] وعمن " اشتري عبداً من بلد فشي فيه بيع الأحرار وادعي العبد الحرية"[17]وعن "عبد ادعي الحرية وذكر ان بينته في بلده فكتب الحاكم إلي قاضي ذلك الموضع"[18] وعن يهودي ادعي ان خادمه مملوك له بينما ادعي"الغلام انه... حر ابن حرين

---

(١) مجهول: تاريخ بلاد التكرور، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب،تحت رقم١٤٧١ تاريخ تيمور عربي،ميكروفيلم ٣٣٩٨، ورقة ٤، ٦.

(٢) البرزلي: م.س، جـ٤، ورقة ١٢٢.

(٣) المجاصي: م.س، ورقة ١٤.

(٤) ابن سحنون: نوازله، ورقة ٧٢، البرزلي: م.س، جـ٢، ورقة ٢٢٩، جـ١، ص١٨٧، الونشريسى: م.س، جـ٧، ص٤٢٢، ابن فرحون: م.س، جـ٢، ص ص ١٤٦، ١٤٧، الوزاني: م.س، جـ١١، ص ص ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٢، جـ١١، ص١٥، التمبكتي: م.س، ورقة ٤، ٥.

(٥) المدونة الصغرى،ط. عمان ١٩٨٤، جـ٢، ص١٧١.

(٦) الوسياني: م.س، ورقة ٣٣.

(٧) البرزلي: م.س، جـ٣، ورقة ٣٥.

(٨) م.س، جـ٢، ص ١٤٩.

(٩) البيان والتحصيل، جـ٩، ص٢٧٠، الفتاوي، جـ٣، ص ١٦١٨.

(١٠) الونشريسى: م.س، جـ٦، ص ١٦٩.

(١١) البرزلي: م.س، جـ٤، ورقة ٢٣، ٣٥.

(١٢) الإيضاح، جـ٥، ص ص ١٢٥، ١٢٩.

(١٣) الوزاني: م.س، جـ١١، ص١٥

(١٤) م.س، جـ٩، ص ص ٨٨، ٨٩.

(١٥) الونشريسى: م.س، جـ٦، ص١٦٩.

(١٦) م.س، جـ٧، ص٤٢٢.

(١٧) القصري: م.س، ورقة ٢٣١.

(١٨) البرزلي: م.س، جـ٤، ورقة ٢٣.

".[1]

ورغبة من الفقهاء فى التصدي لظاهرة استرقاق الأحرار ترد فتوي الفقية الاباضي ابن ابي ويسلان بان " العبيد إذا ادعوا الحرية يلتفت إلي قولهم ويقبل منهم ويقال الخوف في كل بلد "[2]، كما اوجب الفقهاء اليمين المغلظة علي الرجل اذا ادعي من بيده من الرقيق الحرية، نموذج ذلك تلك الخادم التي ألفيت بيد رجل وادعت أنها حرة فأفتي الفقهاء ان يحلف الذي بيده الخادم " مستقبل القبلة بحضرة المصحف بالله الذي لا اله الا هو ما يعلم ان الخادم المذكورة التي في يده حرة ولا ابنة حرة ولا يعلم في ملكها شبهة ولقد صارت في ملكه بوجه صحيح" [3]، وهكذا نصح أهل الدراية والمعرفة بالرقيق المشتري أن لا " يشتري...العبد حتي يعلم انه عبد أو أن يخبره بذلك الأمناء" [4] خشية أن يكون" المبيع حرا أو مسروقا"[5].

وفضلاً عن هذه النوازل التي تكشف عن شيوع ظاهرة استرقاق الأحرار والتي اعتبر الخطف اكبر روافدها، فقد شاع في كتب الوثائق أيضاً إشارات تؤكد تلك المسألة، فقد أوجب الفقهاء تضمين وثيقة بيع الرقيق إقرار المملوك نفسه بالرق عند البيع في محاولة للتصدي لهذه الظاهرة، ففي وثيقة بيع مملوكة من وخش الرقيق ترد عبارة " بمحضر المملوكة فلانة وإقرارها بالرق لبائعها فلان"[6] وهو ما تكرر في وثيقة بيع مملوك " وسمع إقراره بالرق لبائعه فلان إلي أن عقد فيه البيع المذكورة "[7]، وفي وثيقة بيع مملوك اسمر تنص الوثيقة علي عبارة " بمحضر المملوك المنعوت فلان وعلي عينه وإقراره بالرق لبائعه فلان إلي أن بتل البيع المذكور فيه"[8]، وفي وثيقة بيع خادم متبع بصبي صغير " بمحضر المملوكة فلانة وابنها فلان وعلي أعيانهما وإقرار المملوكة بالرق لبائعها فلان "[9]، وبالنسبة لبيع جارية رائعة " بمحضر الجارية المنعوتة وعلي عينها وإقرارها لبائعها بالرق الي عقد فيها البيع المذكور"[10]، وعن بيع عبد اسود معيب " علي عين المملوك فلان وإقراره بالرق إلي حين هذا البيع"[11]، إلي ما يند عن الحصر من أمثال هذه العبارات [12]، ويكشف المراكشي[13] صراحة عن المغزي من هذا التضمين بقوله " إنما احتيج إلي إقرار المملوك او المملوكة بالرق من جهة الاستحقاق بالحرية، فقد تثبت حريتها يوماً ما والبائع عديم والمملوك والمملوكة من أهل المال، فيرجع المبتاع عليها أو عليه بالثمن، واحتيج إلي عينه ليقف الشهود علي عينه إن أنكر البائع البيع أو أنكر هو" كما شدد أهل الحسبة علي النخاسين " ألا يبيعوا لغير مشهور بالعين والاسم مملوكاً أو مملوكة إلا بان يعطي ضامناً بلدياً معروفاً بالعين والاسم، ولاسيما الغرباء الذين يحملون المماليك من البلدان، وان يباحثوا العبيد ويسائلوهم لما يخاف في ذلك كله من ان يكون

---

(١) ابن سهل: م.س، جـ٢، ص ٥٥٩.

(٢) الوسياني: م.س، ورقة ١٣٣.

(٣) الشماخي: الإيضاح، جـ٥، ص ١٢٥.

(٤) مجهول: كتاب التحقيق فى شراء الرقيق، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ١٥/اجتماع، ورقة١٩.

(٥) الشيزرى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق الباز العرينى، مطبعة لجنة التاليف والنشر والترجمة، القاهرة، ١٩٤٦، ص٨٤.

(٦) ابن العطار: م.س، ص ٣٤، المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، مكتبية الثقافة الدينية، مصر، ١٩٩٧، ص ٣٢٨.

(٧) المتيطي الفاسي: النهاية والتمام في الوثائق والاحكام، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ١١٩ فقه مالك، ورقة ٦٣.

(٨) المراكشي: م.س، ص ٣٢٦.

(٩) م.س. ص ٣٤٠.

(١٠) م.س، جـ١، ص٣٣٩ .

(١١) ابن العطار: م.س، ص٤٠.

(١٢) انظر مثلا ابن العطار: م.س، ص ص ٥٥، ١١٥، ٢٣٩، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٥٠، المراكشى: م. س، ص ص ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٥، ٣٧٢، انظر الملاحق ارقام ٢١، ٢٥، ٢٧، ٢٨.

(١٣) م.س، ص٣٢٦.

العبد مسروقاً... أو يكون حراً قد استعبدوا معداً للموافقة"[١]

ونتوفر بهذا الخصوص علي وثيقتين هامتين لا تخلوان من دلالة تعودان الي فترة البحث، تخص الاولي قضية عبد ادعي حريته عند القاضي الذي اثبت ذلك بالبحث والإشهاد، فكتب عقد استرعاء في اثبات حريته اشهد فيه شهوداً انهم يعرفون هذا المملوك " بعينه واسمه ونعته..حراً بن حرين، لم تجر لأحد من الناس عليه ملك ولا شبهة رق في علمهما الي حين شهادتهم هذه "[٢]، بينما تخص الثانية امة اثبت احد القضاة حريتها حين رفعت اليه دعوتها بانها حرة مخطوفة من موضع سمته له، فكاتب القاضي هذا قاضي ذلك المكان الذي ذكر له ان بائعها قد " عدي عليها وباعها من فلان... وقهرها علي ذلك وهي الآن في ملكة فلان ولما ثبت ذلك عنده علي التمام احضر فلاناً المسمي مجلس نظره بالبلد المذكور... فاقر بصحة ما نسب إليه... ووصل تسديده بحرية فلانة المذكورة وحكم بذلك وسرحها من ملك فلان المذكور"[٣].

ورغبة منهم في الإمعان في السرية والتكتم وضماناً لعدم انكشاف أمرهم اشترط بعض البائعين من الخاطفين والمغيرين علي المشترين للرقيق المخطوف ألا يخرجوا بهم من البلدة التي تم البيع فيها، وتسجيل البراءة من استحقاق الرقيق للحرية اذا انكشف الأمر بمخالفة ذلك، وهو ما تؤكده بعض الوثائق، فقد باع احدهم"جارية من رجل بشرط ألا يخرج بها من المدينة... فعلم مكروهه "[٤]، كما باع آخر عبدا لرجل واشترط عليه " الا يذهب به الي بلدة كذا، وان ذهب به واستحق فيها فلا يرجع عليه بدركه "،[٥] ويبدو أن الرغبة في شراء هذا النوع من الرقيق بثمن بخس كانت وراء اقدام المشترين علي الموافقة علي الشروط والتستر أحيانا علي مثل هذه التعديات.

خلاصة القول،إن تحولات العصر السياسية وما صاحبها من فتنة وصراعات عسكرية قوضت اسس الامن وأطلقت العنان أمام عموم الفوضي وانتشار الاضطرابات، قد جعلت بلاد المغرب مرتعاً خصباً أمام السلابة والشطار والذعار لممارسة خطف الأحرار واسترقاقهم بمجموع الأقطار المغربية، ليتأكد القول ومن خلال ما أفصحت عنه الإشارات السابقة عن شيوع هذه الظاهرة لتنال أفراد المجتمع ذكراناً وإناثا، أطفالا وشيوخاً، حجاجاً وتجاراً، فقهاء ومتصوفة، سواء علي المستوي الداخلي لبلاد المغرب، أو عبر الجبهات الخارجية، مما يجعلنا لا نطمئن إلي ما أورده احد المؤرخين القدامي من الإلحاح علي شيوع الأمن في ربوع المغرب الاسلامي خلال عصوره الوسطي لدرجة أن " يسير الراكب حيث شاء من بلاد العدوة في طرقها من جبلها وسهلها آمناً في نفسه وماله" [٦].

كما تدعو الإشارات السابقة عن الخطف - باعتباره ظاهرة شائعة ببلاد المغرب- إلي رد احد التخريجات التي أثبتها احد الباحثين [٧] لظاهرة الرق الاسلامي مفادها أن المجتمعات الاسلامية فى عصورها الوسطي لم تعرف ظاهرة خطف الأحرار، إذ لا يعدو هذا القول إلا حكماً متسرعاً اعتمد في صياغته علي تحليل نظري في محتويات عينية من مصنفات العصر ذات الطابع التنظيري، دون معاينة حقيقية لبنية المجتمعات مما يحجب كثيراً من حقائق التاريخ الساطعة، ونزعم أن ما تم استعراضه من نصوص متعددة المشارب كفيل بالتنبيه علي هذا المنزلق التاريخي، والحسم في هذه المسألة علي الأقل فيما يتعلق ببلاد المغرب الاسلامي خلال القرون الأربعة الأولي للإسلام.

بيد أن ذلك لا يدعنا نجاري ما ادعاه باحث آخر لموضوع الرق بان الفقه الاسلامي لم يترك نصوصاً رادعة تتصدي بحوادث الخطف واسترقاق الأحرار، فضلاً عما سبق إثباته من نصوص تدحض هذا الرأي، نسجل نصوصاً أخري تؤكد وتدل صراحة علي وقوف الفقه – علي الأقل من الناحية النظرية – للتصدي لمثل هذه الظاهرة، وتشديد الفقهاء والمفتين بنوع من الحزم علي قوة

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، نشر كولان وليفي بروفنسال،ط. باريس، ١٩٣١، ص٥٦.

(٢) ابن سهل: م.س، جـ١، ص١٩٢.

(٣) ابن سعيد المالكي: وثائق ابن سعيد، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب، تحت رقم ٣٠٨ فقه تيمور عربي، ميكروفيلم ٣٠٠٢، ورقة ١٥٩، ١٦٠، انظر الملحق رقم (١).

(٤) المتيطى: م.س، ورقة ٧٠.

(٥) نفسه.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، تحقيق عبد الهادي النازي، دار الغرب الاسلامي، ط٣، ١٩٨٧، ص٢١٠.

(٧) *Ali Abd-El wahed (W): Contribution a une theore sociologique de l'esclavage, Paris,1931p. 114.*

الأحكام علي شهر السلاح وقطع الطريق والإمعان في التمثيل بهم صلباً وقطعاً للأطراف [1] كما سجل الفقهاء فتواهم بإنزال أقصي العقوبة علي من باع حراً حيث ترد فتوي الفقية أبي عمران الفاسي " من باع حراً يجلد ألف جلدة ويسجن سنة، فإذا ايس منه أدي ديته إلي أهله "[2]. وتتدعم تلك الفتوي بفتوي أخري نص عليها الفقه المالكي ذاته بان "من سرق حراً قطع فان باعه غرم ديته"[3].

ورغم شدة تلك الأحكام وقوتها إلا أنها لم تكن رادعا أمام نشاط عصابات الخطف علي طول مسالك الرفاق، بل وتحولهم في بعض الأحيان إلي حركات سياسية منتظمة واسعة النطاق.

---

(١) انظر هذه ابن فرحون: تبصرة الحكام، جـ٢، ص ص ١٨٤ – ١٩٠، ابن سلمون الكناني: العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام علي هامش كتاب تبصرة الحكام لابن فرحون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٠١ هـ، جـ٢، ص ص ٢٦٤، ٢٦٥.

(٢) الناصري: م. س، ورقة ١١٠.

(٣) مجهول: بشائر الفتوحات والسعود في أحكام التعزيرات والحدود، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ٤١ بعثة المعهد الأولى إلي المغرب، ورقة ٢٩.

الحشاشون في إيران

د. حامد زيان غانم
أستاذ تاريخ العصور الوسطي
كلية الآداب جامعة القاهرة

من الفرق الدينية التي منها الإسلام بريء، فرقة الحشاشين، وهي إحدى فرق الشيعة، وهم ينتسبون إلي إسماعيل بن جعفر الصادق، الإمام السابع عندهم[١]، ولذلك أطلق عليهم أيضًا اسم السبعية، والإسماعيلية. وقد تعددت ألقابهم، وحصرها الغزالي (ت ٥٠٥هـ) في كتابه فضائح الباطنية بعشرة ألقاب هي: الباطنية، والقرامطة، والقرمطية، والخُرَّمية، والخُرَّمدينية، والإسماعيلية، والسبعية، والبابكية، والمحمِّرة، والتعليمية[٢].

وجدت الدعوة الباطنية أو الإسماعيلية طريقها إلي فارس والعراق على يد داعي الدعاة المؤيد في الدين الشيرازي، واعتمد في ذلك على تأييد السلطان أبو كاليجار البويهي الشيعي، الذي كان ميالاً للفاطميين[٣]. ولم يترددوا في التخلص ممن يقف في طريق دعوتهم، فعندما ناصبهم الوزير نظام الملك العداء لم يترددوا في قتله عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢[٤].

كان أول دعاة الإسماعيلية الباطنية بفارس والعراق أحمد بن عبدالملك بن عطاش، الذي قدمه الباطنية عليهم وألبسوه تاجًا وجمعوا له الأموال. وبعد وفاته عام ٤٧٢هـ/١٠٧٩م تنقلت رياسة الباطنية إلي أن وصلت إلي الحسن الصباح الذي يعتبر بحق مؤسس هذه الدعوة بإيران، فيقول أحد مؤرخي الشيعة " وكان أصل دعوتهم بخراسان الحسن بن صباح " ووصفه بقوله : " وكان رجلاً ذا دهاء وصاحب حيل "[٥].

نشأ الحسن بن الصباح بالري وتأثر في شبابه بالدعوة الإسلامية، وطاف بالبلاد، وعاش بمصر حوالي عام ونصف العام، والتقي بالخليفة المستنصر لدين الله الفاطمي عام ٤٧١هـ/١٠٧٨م، وسأل المستنصر عن الإمام بعده ؟ فأخبره بالدعوة لابنه نزار. وشاءت الظروف أن يحدث نزاع حول ولاية العهد بين ابنَّي المستنصر نزار والمستعلى، وانقسم الإسماعيلية إلي فريقين، فريق يناصر نزار والآخر يناصر المستعلى، ولم يتمكن نزار من الوصول إلى العرش وهُزم وأُسر ومات في الأسر، غير أن الحسن الصباح رفض بيعة المستعلى، واستمر يدعو لنزار ـ حسب وصية المستنصر ـ مكونًا طائفة النزارية[٦].

اتخذ الحسن الصباح قلعة ألمُوت[٧] ـ قرب قزوين ـ معقلاً للباطنية عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م[٨]، كما أنه نظم الدعوة الباطنية إلى عدة مراتب وفق تنظيم دقيق، وكانت أهم مرتبة في هذا التنظيم هي

---

(١) عن تطور الدعوة الشيعية منذ أيام الخلفاء الراشدين، انظر : حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦٤م، ج١، ص١-٤٣.

(٢) الغزالي : فضائح الباطنية، الكويت د.ت، ص١١-١٧.

(٣) المؤيد في الدين : السيرة المؤيدية، القاهرة ١٩٤٩م، ص٤، ١٣.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، القاهرة ١٣١٠هـ، ج١، ص٣٥٨.

(٥) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، بيروت د.ت، ص٣٠٠.

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦م، ج١٠، ص٣١٧؛ المقريزي : إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، القاهرة د.ت، ج٢، ص٣٢٣.

(٧) لم تكن قلعة الموت هي القلعة الوحيدة للباطنية بإيران، فقد عدد النويري القلاع التي استولوا عليها ببلاد العجم بعشرة قلاع، وأشار أن " أشهرها الألموت ". انظر : نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة ١٩٨٤م، ج٢٦، ص٣٥٢-٣٥٣.

(٨) يذكر ابن الأثير والنويري أن كلمة الالموت تعني باللغة الديلمية : تعليم العقاب. انظر : الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦م، ج١٠، ص٣١٦؛ نهاية الأرب، ج٢٦، ص٣٥٣.

مرتبة الفداوية[١]. والفداوية هم الذين يضحون بأنفسهم فداء رئيسهم، وطمعًا في الخلود بالجنة، وأصبحوا الأداة التي استخدمها دعاة الباطنية في التخلص من أعدائهم وتنفيذ أغراضهم[٢].

ويفهم مما ذكره المؤرخون أن داعي دعاة الباطنية ـ شيخ الجبل ـ أنشأ بألمُوت حديقة غناء جعل بها كل ما لذ وطاب، وحاول أن ينشأ بها بعض ما وصفت به الجنة من نخيل وأعناب وفاكهة وغير ذلك. وبعد أن يتسامر داعي الدعاة مع الفتية الفداوية المناط بهم أمر اغتيال شخص معين، يسقونهم مادة الحشيش إلى أن يتم تخديرهم، ثم ينقلونهم إلى تلك الحديقة، وهناك يفيقون فيجدون أنفسهم بين حدائق وفاكهة وبنات حور العيون. وبعد أن يقضوا بعض الوقت ينعمون بما فيها من نعيم، يتم تخديرهم مرة أخرى ثم ينقلون إلى حضرة داعي الدُعاة الذي يسألهم أين كانوا ؟ فيجيبون أنهم كانوا بالجنة، ويقصون عليه ما شاهدوه من نعيمها. وهنا يقول لهم إذا أردتم أن تنعموا بتلك الجنة مرة أخرى، عليكم بقتل فلان، ويحدد لهم الشخص المراد قتله[٣]. وهنا لا يتردد هؤلاء الفتية في تنفيذ ما يُطلب منهم، وذلك طمعًا في العودة إلى الجنة المزعومة والتي سبق وأحسوا بنعيمها.. ومن الملاحظ أنه نسبة إلى مادة الحشيش التي يتم تخديرهم بها أطلق عليهم اسم الحشاشين أو الحشيشية[٤].

وقبل أن نستعرض دور هذه الفرقة السياسي في إيران، نجد أنفسنا أمام سؤال، لماذا انتشرت هذه الفرقة أول ما انتشرت في إيران، ومنها انتشرت في سائر البلدان ؟ وبطبيعة الحال عندما نتحدث عن انتشار هذه الفرقة، نتحدث عن انتشار التشيع بإيران، لأن هذه الفرقة هي إحدى فرق الشيعة.

لقد تناول هذه القضية الكثير من المؤرخين سواء المستشرقين أم المسلمين، وغالب الآراء تشير إلى أن أهم أسباب تشيع الفرس يعود إلى أنهم اتخذوا هذا الموقف لأسباب سياسية، فهناك نظرية عند الفرس وهي نظرية الحق الإلهي وأن البيت الساساني هو صاحب الحق في الحكم، فقد عز عليهم ضياع الإمبراطورية الفارسية أمام الفتوحات الإسلامية خاصة زمن الخليفة عمر بن الخطاب، ولذلك أضمروا له كرهًا وسخطًا شديدين؛ ومن جهة أخرى فقد رأى بعض الفرس فيما روى عن زواج الحسين بن علي رضي الله عنه من الأميرة شهربانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك الأسرة الساسانية، وقد وجد هذا الفريق في ذلك فرصة في أن ينتسبوا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وإلى الأسرة الساسانية معًا[٥]. أو كما قال أحد المستشرقين أنهم أي الشيعة " ورثة آل ساسان

---

(١) والفداوية إما من كلمة فدائي، وإما نسبة إلى ما كان متبعًا عندهم من الفداء بالمال، ولكن يُرجح الرأي الأول.
انظر : ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، العراق ١٩٧٨م، ص١٥٣-١٥٤.
ومن أهم أراء الإسماعيلية ضرورة معرفة الأفراد لإمام وقتهم، ومن مات دون أن يعرف إمام وقته مات ميتة جاهلية، ويكفي الفرد أن يعرف الإمام، وينغمس بعد ذلك في المحرمات، والإمام عندهم معصوم ويصل إلى مرحلة الألوهية. انظر الغزالي : فضائح الباطنية، ص٣٧ وما بعدها. يقول ابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـ) : " من هذه الأصول الملعونة حدثت الإسماعيلية والقرامطة، وهما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة، قائلتان بالمجوسية المحضة... ". انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل، بيروت ١٩٨٥م، ص٢٧٤.

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة ١٩٨٢م، ج٤، ص٢٧١، ٢٧٢؛ حامد زيان : دراسات في تاريخ العالم الإسلامي، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٢٣٧.

(٣) المقريزي : إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، القاهرة د.ت، ج٢، ص٣٢٦.
وعن دور حسن الصباح وعلاقته بالسلاجقة انظر : خواندمير : دستور الوزراء، القاهرة ١٩٨٠م، ص٢٦٧.
كانت وفاة الحسن الصباح عام ٥١٨هـ/١١٢٤م. ابن أيبك : الدّرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، القاهرة ٢٠٠١م، ص٤٩٤. ومن طريف ما يذكر أن الحسن الصباح كان زميلاً في الدراسة للغزالي صاحب كتاب " فضائح الباطنية : انظر " الدرة المضية، ص٤٩٤.

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل، القاهرة ١٩٦٨م، ج١، ص١٩٢-١٩٣؛ وانظر الفصل الخاص بالإسماعيلية . الحشاشين . الذي كتبه برنارد لويس في كتاب :
Setton : Hist of the Crusades, Pennsylvania □□□□□ vol I, P. □□□□□□.

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، ص٦١-٦١؛
Browne : Leterary history of Persia, Combridge univ. □□□□, vol I, P. □□□.

من جهة أمهم بيبي شهربانوه ابنة يزجرد آخر ملوك الفرس "[١].

والمعروف أن إيران كانت مركز المعارضة ضد الإدارة الإسلامية الممثلة في الدولة الأموية، ثم الدولة العباسية، وأخذت في محاربة إدارة الدولة معتمدين على ما لديهم من تراث عقائدي.

على سبيل المثال فإن مؤسس دعوة الباطنية هو ميمون بن ديصان المعروف بميمون القدَّاح، مولى جعفر بن محمد الصادق وهو من الأهواز، ومعه محمد بن الحسين الملقب بدندان، حيث اجتمعوا في السجن بالعراق، ووضعوا أسس مذهب الباطنية، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن[٢].

وأخذت دعوتهم في الظهور زمن المأمون الخليفة العباسي (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م) وانتشرت أيام الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م)، ودخل في دعوتهم الأفشين قائد جيش المعتصم[٣]، وذكر البغدادي أن الذين "وضعوا أساس دعوة الباطنية كانوا أولاد المجوس، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم"[٤].

أما الدور السياسي للحشاشين بإيران، فقد تجلى في وقوفهم ضد القوى الإسلامية التي تعاقبت على حكمها، وفي نفس الوقت توددوا لمختلف القوى المعادية للإدارة الإسلامية، وهذا يؤكد ما ذكره كثير من مفكري المسلمين الأوائل أمثال البغدادي عندما أشار إلى أنهم " أشد ضررًا على المسلمين "، وذلك رغم ادعائهم الانتماء إلى الإسلام.

من ذلك أنهم منذ أن أخذت الدعوة الباطنية تأخذ طريقها إلى فارس بدأ العداء بينهم وبين سائر القوى الإسلامية الأخرى بتلك المنطقة، من ذلك عدائهم للسلاجقة وقتلهم الوزير نظام الملك عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، وهو الذي كان يناصبهم العداء جهارًا[٥]. حيث تقدم إليه " شاب صوفي الشكل من الباطنية ليلة العاشر من رمضان، فناوله قصة، ثم ضربه بسكين في صدره فقضى عليه "[٦]. ويقول ابن العمراني(ت ٥٨٠هـ/١١٤م): " واستشهد هذا الصدر على أيدي الملاحدة بباب نهاوند في العاشر من رمضان "[٧].

وتشير المصادر الفارسية إلى أنه كان هناك عداء دفين بين الحسن الصباح وبين نظام الملك، حيث كان الحسن الصباح يكن من الكراهية الشيء الكثير لنظام الملك[٨].

)1(De Gobineau : Religion et Philosophie daes L'Asie Centrale, Paris □□□□, P. □□□ Paris □□□□.

(٢) البغدادي : الفَرق بين الفِرق، بيروت د.ت، ص٢٨٢.

(٣) البغدادي : الفَرق بين الفِرق، بيروت د.ت، ص٢٨٤.

(٤) الفَرق بين الفِرق، ص٢٨٤.

ويقال أن البرامكة وهم الذين يمثلوا العنصر الفارسي في إدارة الدولة العباسية، أرادوا أن يجعلوا الكعبة بيتًا للنار، إحياءً للتراث الفارسي القديم، فأشاروا على هارون الرشيد بأن يجعل بها مَجمرةَ يوضع بها بالبخور ليل نهار، ففطن الرشيد إلى قصدهم، فكان ذلك من بين أسباب نكبتهم. انظر البغدادي : الفَرق بين الفِرق، ص٢٨٥.

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان، بيروت ١٩٧٨م، ج١، ص٣٩٨.

(٦) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت د.ت، ج٣، ص٣٧٣.

ويرى البعض أن السلطان ملكشاه بعد أن حَسَد نظام الملك على ما وصل إليه من اتساع نفوذ حقد عليه، وهو الذي دسَّ عليه الباطنية ليقتلوه. وهناك من يرى أن تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه حقدت عليه لأنه كان يميل إلى تولية بركياروق العهد وهو ابن ضرتها بدلاً من ابنها الصغير محمد، فوضعت من يقتله. انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦م، ج١٠، ص٧٥-٦، ٢٠٤-٢٠٦؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٦، ص٣٣١-٣٣٢.

(٧) الانباء في تاريخ الخلفاء، الرياض ١٩٨٢م، ص٢٠٠٠م.

(٨) عن هذه الكراهية، انظر : خواندمير : دستور الوزراء، ص٢٦٠-٢٦٧.

كذلك فإنهم اغتالوا مجموعة من الشخصيات الأخرى أمثال القاضي عبيد الله بن علي الخطيبي قاضي قضاة أصبهان، كما أنهم قتلوا يوم عيد الفطر عام ٤٨٥هـ أبو العلاء صاعد بن محمد البخاري الحنفي المفتي، وقتلوا أيضًا بجامع آمل يوم الجمعة القاضي أبو المحاسن عبدالواحد بن إسماعيل الروياني شيخ الشافعية، ويعلق ابن العماد الحنبلي على ما وصلوا إليه من شدة البأس بقوله : " وعظم الخطب بهؤلاء الملاعين، وخافهم كل أمير وعالم لهجومهم على الناس "[١].

ومن أفعالهم السيئة بفارس أنهم ـ أي الحشاشين ـ انتهزوا فرصة دخول السلاجقة في مرحلة الضعف والانقسام في أواخر أيامهم، وأخذوا يمارسون أعمالهم العدوانية ببلاد فارس والعراق.

كذلك فقد ناصب الإسماعيلية العداء للخوارزمية، وتمنوا زوال قوتهم آملين في أن زوال قوة الخوارزمية سيحقق لهم السيطرة على كل بلاد فارس، ولذلك أظهروا تحالفًا وتعاطفًا كبيرًا مع المغول، خاصة بعد أن استعاد جلال الدين الخوارزمي قوته بعد عودته من الهند، لذلك قام جلال الدين بمهاجمة قلاعهم وأنزل الهزيمة بهم عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، وحرَّم عليهم مغادرة قلاعهم حتى لا يقوموا بأعمالهم الإرهابية من القتل والاغتيال، كما قرر عليهم أموال يدفعونها له[٢].

ويؤكد كلاً من المؤرخ ابن الأثير والنسوي أن مقدم الإسماعيلية علاء الدين أرسل إلى المغول يحثهم على مهاجمة جلال الدين الخوارزمي منتهزًا فرصة هزيمة جلال الدين أمام تحالف الأشرف موسى صاحب البلاد الجزرية وكيقباد بن كيخسرو صاحب الروم عند خلاط عام ٦٢٧هـ/١٢٣٠[٣].

وعلى هذا النحو وجد تحالف بين المغول والإسماعيلية موجهًا ضد القوى الإسلامية الواقفة أمام الخطر المغولي، مما يدل على مدة خطورة هذه الفرقة التي لعبت دورًا هدامًا في تاريخ العالم الإسلامي.

ولكن إذا كان الإسماعيلية قد ظنوا أنهم سيحققون أغراضهم بزوال دولة الخوارزمية، فإن هذا لم يحدث، فلم يلبث أن أخذ الصدام طريقه بينهم وبين المغول، ذلك أن مصالح الفريقين تضاربت، لقد أقام الحشاشون دولتهم على القتل وسفك الدماء، وهي نفس الأسس التي أقام المغول قوتهم عليها، لذلك كان لابد من حدوث صدام بين القوتين، ولذلك لم يلبث أن أخذ الصدام بينهم يأخذ مجراه حتى انتهى الأمر بعزم المغول على التخلص من الحشاشين والقضاء عليهم نهائيًا، ونجح هولاكو بالفعل في القضاء على قوة الحشاشين بإيران. وقد عم الفرح والسرور معظم أنحاء العالم الإسلامي ابتهاجًا بالقضاء على هذه الدولة، وهي أول مرة يهلل فيها المسلمون فرحًا بانتصار المغول، ويعود السر في ذلك إلى تلك الأفعال السيئة التي كان يمارسها الحشاشون، وإلى الأفعال الإجرامية التي قاموا بها طيلة سنوات تواجدهم بإيران[٤].

ويذكر ابن الأثير أن السبب المباشر في قتل الباطنية لنظام الملك، أنه بعد أن أخذ الحسن الصباح قلعة الموت عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م سير نظام الملك جيشا إلى قلعة الموت لاستردادها من الحسن الصباح، وبالفعل حاصر جيش نظام الملك القلعة إلى أن ضاق الحسن الصباح من هذا الحصار فأرسل من قتل نظام الملك، فلما قُتل رجع العسكر عنها"، وتخلص الحسن الصباح من الحصار، وانفرد بقلعة الموت. انظر : الكامل، ج١١، ص٣١٧.

(١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٤، ص٤.

(٢) عما قرره جلال الدين الخوارزمي على الإسماعيلية، انظر ما ذكره النسوي : سيرة جلال الدين، القاهرة ١٩٥٣م، ص٣٢٦-٤٤٣؛ وانظر أيضًا : عفاف صبرة : التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، القاهرة ١٩٨٧م، ص٢٣٧-٢٤٠.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٢٩٥؛ النسوي : سيرة جلال الدين، ص٣٤٤.

(٤) عن نهاية الباطنية انظر : حامد زيان : نهاية الباطنية، ص٩١-١١١ (بحث في العدد الخاص بعيد ميلاد أ.د. سعيد عاشور السبعين، القاهرة ١٩٩٢م)، وعن مدى ارتياح العالم الإسلامي لانتصار المغول على الإسماعيلية انظر ما ذكره ابن العميد عن هولاكو بعد إنزاله الهزيمة بخورشاه: " ونظف بلاد العجم منهم .

يقصد الإسماعيلية . " أخبار الأيوبيين، ص١٦٥. وما قاله وصاف الحضرة : " وكان هولاكو قد أدى خدمة جليلة للعالم الإسلامي بقضائه على تلك الطائفة التي طالما أساءت للإسلام والمسلمين ". انظر تاريخ وصاف، ص١٥، ٣٤٣-٣٤٦.

الحرب بين الروم والفرس في ضوء سورة الروم (الإعجاز التاريخي في سورة الروم)

د. علي بن محمد عودة الغامدي
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
قسم التاريخ جامعة أم القرى , مكة المكرمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد :

بسم الله الرحمن الرحيم

{ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} (١).

من الحقائق المسلم بها في تاريخ البشر أن الصراع الذي ينشب بين الأمم والدول قدر قدَّره الله سبحانه وتعالى ليفضي في نهاية المطاف إلى صلاح البشرية ونفي الفساد عن الأرض. قال تعالى : { وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ }(٢) وقال تعالى : { وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }(٣).

والصراع بين الفرس والروم (البيزنطيين) صراع قديم نشأ منذ قيام دولة الفرس الساسانية سنة ٢٢٦م. وقامت الحروب الطويلة والمتفرقة بين الفرس والروم بسبب الرغبة في التوسع والسيطرة على قلب العالم ومركزه وهو الإقليم المسمى بالشرق الأدنى القديم. حيث تشكل هذه المنطقة نقطة الالتقاء بين قارات العالم القديم فضلاً عن سيطرتها على طرق التجارة العالمية(٤). ولا يهمنا من تلك الحروب إلا الحرب الأخيرة بين الفرس والروم, التي استمرت زهاء ربع قرن من الزمان(٦٠٣–٦٢٨م)(٥) أى انها استمرت من قبل مبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت بالانتصار العسكري الحاسم للروم الذي تزامن مع عقد صلح الحديبية الذي كان فتحاً مبيناً كما قال الله تعالى : { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً } (٦).

ولسنا هنا بصدد عرض كل تفاصيل تلك الحرب الأخيرة, ذلك أن تفاصيلها قد دُرست في بحوث ورسائل سابقة كثيرة(٧). فما يهمنا هو ما يخدم موضوع البحث وهو بيان الإعجاز في سورة الروم وصدى تلك الحرب وأثرها العميق على المسلمين في تلك الفترة حتى خلدها القرآن الكريم.

تعتبر هذه الحرب الأخيرة بين الفرس والروم أطول وأقسى وأشرس الحروب التي اندلعت

---

(١) سورة الروم آية ١–٧.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥١.

(٣) سورة الحج آية ٤٠.

(٤) حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية, القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م, ص ١٧؛ فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري, القاهرة, ١٩٦٦م, ص ١١٤–١١٨.

(5) The Cambridge Medievel History vol. IV. The Byzantine Empire part I Byzantium and its Neighbours p.604.

(٦) سورة الفتح آية ١.

(٧) انظر على سبيل المثال الدراسة القيمة للدكتورة ليلى عبد الجواد إسماعيل : الدولة البيزنطية في عصر الامبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين, القاهرة ١٩٨٥م, ص ٢٠٦ – ٢٨٢.

بين الجانبين. وقد لعب العامل الديني دوراً مهماً في تحويل مجرى هذه الحرب التي دارت بين أقوى دولتين في العالم في عصر النبي صلى الله عليه وسلم. ولعل من حكمة الله سبحانه وتعالى في قيام هذه الحرب واشتداد أوارها إبان بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته في مكة وهجرته إلى المدينة وجهاده للمشركين هي إشغال القوتين الكبيرتين ببعضهما البعض عن التفكير في ما كان يجري في جزيرة العرب من اختيار الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم وإرساله للناس لإخراجهم من الظلمات إلى النور, حيث تمكن النبي صلى الله عليه وسلم خلال تلك الحرب من نشر رسالته والتمكين لأمة الإسلام في المدينة وما جاورها وهي الأمة التي أطاحت في نهاية المطاف بدولتي الفرس والروم. وبعبارة أوضح يمكن القول : إن الحرب الفارسية الرومية التي استمرت من قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وحتى صلح الحديبية كانت تقدمة من الله تعالى لرسوله حيث شغلت الدولتان عما كان يجري في داخل جزيرة العرب, فإذا افترضنا جدلاً أن تلك الحرب لم تقع, فلربما تمكنت قريش إبان الصراع الدامي مع المسلمين من استغلال علاقاتها التجارية مع إحدى الدولتين وتأليبها ضد المسلمين. إما مع الفرس في اليمن, أو مع الروم في الشام لا سيما أن مصالحها كانت مرتبطة مع الروم في الشام إلى حد بعيد, ويمكنها استثارة الروم ضد المسلمين, خصوصاً وأن عقيدة المسلمين تنص على بشرية المسيح وعبوديته لله تعالى, وتكفير من يقول بألوهيته. والمعروف أن عقيدة آريوس تقول بأن المسيح مخلوق بشر وليس[1] الاهاً. والمعروف لدارسي تاريخ الروم, أن هذه العقيدة تعرضت لحرب شرسة منذ مجمع نيقية سنة ٣٢٥م على أيدي أباطرة الروم حتى قضوا على هذه العقيدة في معظم بلاد دولة الروم. ويمكن لقريش أن تكسب دولة الروم إلى جانبها – لو لم تنشغل بالحرب مع الفرس – ومحاربة المسلمين الذين يرفضون ألوهية المسيح عليه السلام كما يرفضون دعوى بنوته لله جل وعلا. وهكذا يبدو لنا أن الله تعالى هيأ الأسباب لنصرة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم , فأشغل الفرس والروم ببعضهم البعض ريثما يتمكن النبي صلى الله عليه وسلم من غرس عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى في نفوس أصحابه الكرام الذين قام على أكتافهم كيان الدولة الإسلامية, التي استطاعت بعد نهاية الحرب الفارسية الرومية مقارعة القوتين في وقت واحد وسحقت جيوشهما في ميادين القتال, وفتحت بلادهما, بل وأزالت دولة الفرس من الوجود وانتزعت من دولة الروم أبهى وأغنى أقاليمها مثل بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا.

وقد بدأت تلك الحرب سنة ٦٠٣ م (قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بسبع سنين) عندما استغل ملك الفرس كسرى أبرويز (٥٩٠ – ٦٢٨م) مقتل صديقه وحميه الامبراطور البيزنطي موريسMourice (٥٨٢ – ٦٠٢م) على يد فوقاس Phocas (٦٠٢ – ٦١٠م) الذي أصبح أمبراطوراً على دولة الروم, فاتخذ من ذلك ذريعة لمهاجمة دولة الروم. وخلال خمس سنوات, من سنة ٦٠٣ – ٦٠٨م تمكنت الجيوش الفارسية من اجتياح أرمينية وما بين النهرين, وآسيا الصغرى حتى وصلت إلى الضفة الشرقية لمضيق البسفور قبالة القسطنطينية , وقد اتصف ذلك الاجتياح بالتخريب والتدمير والنهب والسلب وعادت الجيوش الفارسية بغنائم كثيرة الأمر الذي عاد بأفدح الأضرار على الدولة البيزنطية[2].

ولمواجهة الانهيار الشامل الذي كانت تواجهه الامبراطورية البيزنطية (امبراطورية الروم) شارك حاكم ولاية إفريقية المسمى هرقلHeraclius الكبير في تدبير مؤامرة ضد فوقاس, ونجحت المؤامرة وتمكن هرقل بن هرقل الكبير من الوصول إلى عرش الدولة البيزنطية في القسطنطينية في شهر اكتوبر سنة ٦١٠م[3].

ويعتبر بعض أساتذة التاريخ البيزنطي هرقل (٦١٠ – ٦٤١م) امبراطوراً ذا موهبة عالية وأنه كان مفعماً بالحيوية والنشاط, وأنَّ توليه عرش الامبراطورية كان نقطة تحول في تاريخ الدولة البيزنطية, ووصفوه بأنه أعظم الأباطرة في التاريخ البيزنطي, وأنه الذي أوجد بيزنطة العصور الوسطى, وأنه جعل من روما إبان مجدها مثالاً وقدوة له, مع اتخاذه الثقافة اليونانية والنصرانية ديناً

---

(١) من عقيدة أريوس انظر : حسنين ربيع : المرجع السابق, ص ٢٨.

(9) Ostrogorsky. G: History of the Byzantine State. Trans. Joan Husscy. (Oxford 1968). P.85;

ليلى عبد الجواد: المرجع السابق, ص ٤٤ – ٤٨؛ يوسف الدبس : تاريخ سورية الدنيوي والديني الجزء الثاني, المجلد الرابع في تاريخ سورية في القرن الثاني وما يليه إلى فتح الخلفاء الراشدين لها في القرن السابع, بيروت ١٨٩٩م, ص ٥٤١ – ٥٤٤.

(٣) حسنين ربيع : المرجع السابق, ص ٦٠.

وملة[1].

والمتأمل في التاريخ الذي تولي فيه هرقل عرش الامبراطورية البيزنطية (دولة الروم) يلحظ أن ذلك يوافق السنة التي بدأ فيها نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم حيث نزل عليه صدر سورة إقرأ في غار حراء في رمضان الموافق لشهر اغسطس ٦١٠م[2]. فإذا كان تولي الأمبراطور هرقل عرش الأمبراطورية يعتبر في نظر مؤرخي التاريخ البيزنطي نقطة تحول في هذا التاريخ, لا سيما في مجرى سير الحرب الناشبة مع الفرس, فإن بدء نزول الوحي في السنة نفسها على النبي محمد صلى الله عليه وسلم يعتبر إيذاناً بتغيير مجرى التاريخ الإنساني بأكمله وتحويله من طريق الضلال والظلام إلى طريق الهدى والنور, وتحرير جنس الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد, وتخليص البشرية من جور الأديان إلى عدل الإسلام.

والحقيقة الصادقة التي يجب أن يُصرح بها المؤرخ المنصف ويأخذها بعين الاعتبار : أن تاريخ تولي هرقل عرش الأمبراطورية لا يشكل أهمية كبرى في مجرى التاريخ الإنساني, وإنما الأهمية الكبرى التي تزامنت مع هذا التاريخ هي بدء نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم. ولعل أبلغ وصف لهذا الأمر ما سطره أحد الباحثين المحدثين حيث وصفه بأنه (ضخم جداً , ضخم إلى غير حد, مهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته, فإن جوانب كثيرة ستظل خارج تصورنا, إنه حادث ضخم بحقيقته, وضخم بدلالته, وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعاً.. وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تُعد – بغير مبالغة – هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل. ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة ؟ حقيقته أن الله جل جلاله, العظيم الجبار القهار المتكبر, مالك الملك كله, قد تكرم – في عليائه – فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان, القابعة في ركن من أركان الكون لا يُكاد يُرى, اسمه الأرض, وكرَّم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي, ومستودع حكمته, ومهبط كلماته, وممثل قدره الذي يريده الله سبحانه بهذه الخليقة. وهذه حقيقة كبيرة, كبيرة إلى غير حد. تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان – قدر طاقته – حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية. ويتصور في ظلها حقيقة العبودية المحدودة الحادثة الفانية. ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنسان, ويتذوق حلاوة هذا الشعور, ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهال.. وهو يتصور كلمات الله تتجاوب بها جنبات الوجود كله, منزلة لهذا الإنسان في ذلك الركن المنزوي من أركان الوجود الضئيلة. وما دلالة هذا الحادث؟ دلالته – في جانب الله سبحانه – أنه ذو الفضل الواسع والرحمة السابغة, الكريم الودود المنان, يفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة, سوى أن الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة, ودلالته – في جانب الإنسان – أن الله قد أكرمه كرامة لا يكاد يتصورها, ولا يمكن أن يشكرها, وأنُ هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضى عمره راكعاً ساجداً.. هذه.. أن يذكره الله ويلتفت إليه ويصله به ويختار من جنسه رسولاً يوحي إليه بكلماته)[3].

ويعلق الباحث نفسه على وصفه لبدء نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم بالقول : (لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط, وكما لم يتحول من بعد أيضاً. وكان هذا الحادث هو مفرق الطريق. وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان ولا تطمسها الحوادث وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة, ولم يجئ بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعاً مع واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية. ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهي في الأرض, وتبينت خطوطه ومعالمه { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ }[4]... إنه الحادث الفذ في هذه اللحظة الفريدة. الحادث الكوني الذي ابتدأ به عهد في هذه الأرض وانتهى عهد, والذي كان فرقاناً في تاريخ البشر لا في تاريخ أمة ولا جيل. والذي سجلته جنبات الوجود كله وهي تتجاوب به, وسجله الضمير الإنساني. وبقي أن يلتفت هذا الضمير اليوم على تلك الذكرى العظيمة ولا ينساها, وأن يذكر دائماً أنه ميلاد جديد للإنسانية لم تشهده إلا مرة واحدة في الزمان)[5].

---

(11) Ostrogorosky: op. cit. p.92 ; Vasiliev. A.A: History of Byzantine Empire, 324-1453. Vol. I (Madison,1978) p.194.

(٢) المباركفوري : الرحيق المختوم, ص ٧٥.

(٣) سيد قطب, في ظلال القرآن ج٦ ص ٣٩٣٦ – ٣٩٣٧.

(٤) سورة الأنفال : آية ٤٢.

(٥) سيد قطب, المرجع نفسه, ج٦ ص ٣٩٣٨.

والمؤرخ الحق هو الذي ينظر للحوادث الكبرى نظرة شمولية من جميع زواياها. ومن المجازفة التي يرتكبها المؤرخ أن ينظر للحرب الأخيرة بين الفرس والروم بعين واحدة ويتتبع سيرها وحوادثها دون النظر والمقارنة بما كان يجري في جزيرة العرب من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ومجادلته قومه وصبره على أذاهم وهجرته وجهاده حتى نصره الله سبحانه وتعالى على المشركين, وقامت للإسلام دولة فتية في جزيرة العرب لأن مستقبل البشرية بأكمله كان يُرسم بحق على أرض الواقع في جزيرة العرب وليس في ميادين المعارك الكبيرة التي دارت رحاها بين الفرس والروم.

ومهما يكن من أمر فقد أدرك الامبراطور هرقل مدى ما حل بالأمبراطورية البيزنطية من كوارث على يد الفرس والصقالبة والآفار, وما وصلت إليه جيوشها من ضعف وتدهور, لذلك حاول شراء السلام مع الفرس بالمال, فأرسل إلى كسرى أبرويز هدايا قيمة, وعرض عليه دفع إتاوة سنوية مقابل السلام, لكن كسرى عرف مدى ما أصاب الروم من ضعف فرفض الصلح وأضفى على حربه صبغة دينية حين طالب النصارى بعدم عبادة المصلوب والتوجه لعبادة الشمس, وأخذ كسرى الهدايا وأمر بقتل رسل هرقل(١).

وبادر الفرس بغزو أراضي دولة الروم في سنة ٦١١م بقيادة شهر باراز Sahrbarazالذي اندفع بجيشه نحو شمال الشام فاستولى على الرها, المدينة المقدسة عند النصارى, ثم استولى على انطاكية, ذات الموقع العسكري المهم, بسبب إشرافها على المداخل الجنوبية للدروب الشامية التي تربط بلاد الشام بآسيا الصغرى, فضلاً عن أهميتها الدينية بوصفها من المدن المقدسة الرئيسة في عالم النصرانية, وقبض شهر باراز على الكثير من السكان وأرسلهم أسرى إلى فارس, كما قتل بطريرك المدينة, ثم استولى على حمص وأفامية. وسيطر بذلك على شمال الشام(٢).

وعمد كسرى إلى تشتيت انتباه الروم عن عمليات الجيش الفارسي في بلاد الشام فأرسل في الوقت نفسه جيشاً آخر بقيادة شاهينSahin فاتجه نحو كبادوقيا Cappadocia في شرق آسيا الصغرى, واقتحم حاضرتها مدينة قيصرية Caesarea وقتل الكثير من سكانها وأسر الباقين(٣).

وحاول هرقل كسر حدة الهجوم الفارسي المزدوج فخرج بجيشه من القسطنطينية, وقصد قيصرية لنجدة القائد البيزنطي بريسكوسPriascus الذي كان يكافح الفرس خارج قيصرية, ونجح بريسكوس أخيراً – بعد أن تلقى النجدات من هرقل – في حصار الجيش الفارسي داخل قيصرية الذي أصبح يعاني الأمرين من جراء نقص المؤن والطعام, ولكن الفرس خرجوا مستميتين من قيصرية وباغتوا جيش الروم (الجيش البيزنطي) على حين غرة وألحقوا به الهزيمة وتخلصوا من الحصار, غير أن الروم نجحوا بعد جهود مضنية في استرداد قيصرية سنة ٦١٢م(٤). وهو العام الذي يوافق جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة بعد أن نزل عليه قول الله تعالى : { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } (٥). لكن سيطرة الفرس على أنطاكية مكّن الفرس من فصل امبراطورية الروم براً عن ممتلكاتها في فلسطين ومصر وشمال أفريقيا, ولم يعد بوسع الروم الاتصال بتلك الممتلكات إلا عن طريق البحر.

واصل هرقل جهوده المضنية لصد الخطر الفارسي واسترداد ما فقده من بلاد الشام, فاختار

---

(16) Theophanis the Confessor: Chronographia, Exrecensione Ioannis Classeni. Vol. I, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. Ed. Weber (Bonnae 1839)p.464.

وانظر أيضا: المنبجي : لاغا بيوس بن قسطنطين المنبجي (ت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) العنوان المكلل بفضائل الحكمة المتوج بأنواع الفلسفة الممدوح بحقائق المعرفة, مطبعة الآباء اليسوعيين, بيروت ١٩٠٧, ص ٣٣١؛ محمود سعيد عمران : معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية , بيروت ١٩٨١م, ص ٧١ – ٧٢.

(٢) المنبجي : العنوان المكلل ص ٣٣١؛ يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع ص ٥٤٦؛ ليلى عبد الجواد : المرجع السابق, ص ٢٠٨.

(18) Sebeos, Leveque: Histoire d'Heraclius. Traduite de l'armenien et annotee par Fredenic Macler (paris 1904) p. 63;

ليلى عبد الجواد : المرجع السابق, ص ٢٠٩.

ليلى عبد الجواد: المرجع السابق, ص٢٠٩–٢١٠؛(19) Sebeos: op.cit. pp. 63-65

(٥) سورة الحجر : آية ٩٤

قائداً جديداً يدعى فيليبكوسPhilippicus وقرر سنة ٦١٣م إرساله لغزو الأراضي الفارسية مباشرة كي يُجبر الفرس على الإنسحاب من بلاد الشام. وقام الفرس في الوقت نفسه بقيادة شاهين بغزو بلاد الروم عن طريق إقليم الجزيرة الفراتية, فاستولوا على مدينتي أرزن الروم وملطية في أعالي الفرات, ورابط الجيش الفارسي بقيادة شاهين وشهرباراز في جنوب آسيا الصغرى[١]. ولم تغير غزوة الفرس هذه خطط هرقل المتمثلة في غزو أراضي الفرس لاجبارهم على التخلي عن مكاسبهم في بلاد الشام, فقد سار قائد الروم فيليبكوس بجيشه, وفقاً لأوامر هرقل, واجتاز إقليم كبادوقيا واندفع إلى أرمينية ثم عبر جبل أرارات في أرمينية قاصداً بلاد الفرس نفسها, فأصدر كسرى أوامره إلى شاهين وشهر باراز بمنع الروم من التقدم داخل الأراضي الفارسية, والقضاء على جيش فيليبكوس قبل تحقيق هدفه. فسار شاهين وشهرباراز مسرعين بقواتهما لصد الروم, وسلكا طرقاً وعرة بغية تحقيق هدفهما, ففقدا – بسبب ذلك – كثيراً من الرجال والدواب. ولما شعر فيليبكوس أنه حقق هدفه بانسحاب قائدي الفرس عاد مسرعاً إلى الأراضي البيزنطية. وتقدم هرقل بنفسه لاسترداد انطاكية من الحامية الفارسية المرابطة فيها. غير أن الجيش الفارسي الرئيس بقيادة شاهين وشهر باراز عاد مسرعاً إلى أنطاكية, واشتبك مع قوات هرقل, فدارت معارك دامية بين الجانبين خارج أسوار أنطاكية, وتدفقت دماء المحاربين بغزارة, ونجح الفرس أخيراً في إنزال الهزيمة بالروم, وطردوهم من أنطاكية, وأجبروهم على الإنسحاب إلى قيليقية فتعقبهم الفرس وهزموهم مرة أخرى , واحتلوا قيليقية , فاضطر هرقل إلى الانسحاب إلى القسطنطينية[٢].

وكان لهزيمة الروم وسقوط إقليم قيليقية في أيدي الفرس أبعد الأثر في تقرير سير مجرى الحرب بين الفرس والروم وتقرير مصير بلاد الشام حيث أصبح في مقدور الفرس إبقاء حاميات صغيرة في دروب قيليقية الضيقة لمنع جيوش الروم من التقدم عبرها إلى بلاد الشام, ومن ثمة التقدم بالجيوش الفارسية الكبيرة لانتزاع بقية بلاد الشام. وهذا ما فعله الفرس حيث تقدم القائد الفارسي شهر باراز جنوباً صوب دمشق فاستولى عليها سنة ٦١٣م وانتزع بقية موانئ الشام بسهولة, وحال بذلك دون وصول الإمدادات بحراً لإنقاذ بيت المقدس[٣].

اتخذ القائد الفارسي من دمشق قاعدة للانطلاق إلى فلسطين للإستيلاء على بيت المقدس التي أصبحت معزولة من ناحية البر عن بقية أجزاء دولة الروم, وذلك بسبب الأهمية الكبرى لبيت المقدس, فهي المدينة المقدسة الأولى عند النصارى التي ارتبطت بها أصول الديانة النصرانية, ففيها كنيسة القيامة, ومهد السيد المسيح عليه السلام حيث عاش فيها وبدأ دعوته, وفيها تناول العشاء الأخير مع حوارييه قبل أن يُرفع إلى السماء. وقد ازدادت أهمية بيت المقدس عند الروم منذ اعتراف

---

(21) Sebeos, op. cit. pp. 66-67.

(22) Ibid. p. 67.

تعتبر بلاد قيليقية ذات أهمية استراتيجية بالغة. وهي تمتد على طول ساحل البحر جنوب جبال طوروس, وتشتمل على خليج الأسكندرونة ومدن هامة مثل طرسوس, وأدنة والمصِّيصة وعين زربة وغيرها, وتكثر بها الجبال الوعرة, وغالباً ما تنتهي تلك الجبال بألسنة صخرية داخل البحر لتشكل مرافئ صغيرة محمية – حيث اتخذ منها القراصنة في العصور القديمة ملجئاً لهم – وكان يوجد ببلاد قيليقية الكثير من الغابات التي تمد مصر والشام بالاخشاب, أما الجزء الشرقي من قيليقية فهو مرصع بجروف صخرية عازلة شديدة الانحدار, ومثالية للدفاع العسكري, وقد تكلل ذلك ببقايا قلاع قديمة تتحكم في معظم الممرات التي تصل قيليقية ببلاد الشام, ويوجد بالبلاد سهل منخفض شديد الخصوبة تجري خلاله عدد من الأنهار. ومن وجهة النظر العسكرية والسياسية فإن السيطرة على قيليقية يعتبر حيوياً لضمان أمن الطرق بين آسيا الصغرى وبلاد الشام. وقد توافر بالمداخل القيليقية ممرات ضيقة يمكن النفاذ منها بشكل مريح, وأحياناً كانت الطريق الوحيد من القسطنطينية وغرب آسيا الصغرى إلى المدن الكبرى في بلاد الشام ومصر وبلاد النهرين. انظر :

Lang, David Marshall: Armenia Cradle of Civilization, (London 1978) p.200.

(23) Sebeos : op. cit. p. 686; Ostrogorsky: op. cit. p.95; Vaciliev: op. cit. Vol. I. p. 195;

ليلى عبد الجواد: المرجع السابق, ص٢١٢؛ يوسف الدبس: تاريخ سورية,ج ٢, المجلد الرابع, ص٥٤٦

الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧م) الكبير بالنصرانية, والكشف المزعوم عن خشبة الصليب[١] بواسطة هيلانة والدة قسطنطين, والتي يعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام قد صُلب عليها. وقد اعتنى الأباطرة منذ ذلك الحين بمدينة بيت المقدس وبالأعياد التي كانت تقام فيها, فأرسلوا لها الأموال والذخائر, وقام البطاركة بالعناية بالكنائس والمزارات المسيحية, وزينوها بالمعادن النفيسة والتحف الفاخرة, حتى تكدست بها ثروات طائلة عبر القرون, وأصبح الإستيلاء عليها هدفاً غالياً في نظر الفرس للحصول على ما فيها من غنائم قيمة, فضلاً عما يعنيه سقوطها في أيديهم من سقوط هيبة دولة الروم وزوال نفوذها عن سائر بلدان الشرق[٢].

وفي ربيع عام ٦١٤م اندفع الجيش الفارسي بقيادة شهر باراز نحو فلسطين, فاجتاح الجليل وضفتي نهر الأردن إلى بحيرة لوط فدمروا وأحرقوا كل ما واجهوه من عمران, وفر السكان هاربين, ولم يبق إلا بعض الرهبان والنُسَّاك العاجزين عن الهرب فقتلهم الفرس عن آخرهم, وتقدم شهر باراز صوب القدس للاستيلاء عليها[٣]. ويذهب البعض إلى أن شهر باراز مال إلى الاستيلاء على بيت المقدس صلحاً, بعد أن رأى قادته موقع المدينة والأودية والمنخفضات المحيطة بها فضلاً عن تحصيناتها القوية. وفي الوقت نفسه أدرك بطريرك بيت المقدس زكريا أنه ليس في مقدور الأمبراطور هرقل إرسال نجدة كبيرة لانقاذ بيت المقدس بعد أن قطع الفرس طرق الاتصال البرية مع القسطنطينية, كما سيطروا على معظم موانئ بلاد الشام, فأراد البطريرك أن يجنب بيت المقدس المصير الرهيب الذي ينتظرها إذا قاومت الفرس, فأشار بعقد الصلح مع الفرس, غير أن آراء معظم أهل المدينة لا سيما الشباب أصرت على مقاومة الغزاة, فأذعن البطريرك لتلك الآراء وتقرر الاستعانة ببقايا جيوش الروم للمساهمة في الدفاع عن المدينة المقدسة ضد هجوم الفرس[٤].

ويذكر المؤرخ الأرمني سيبيوس أن شهرباراز أقام ببلدة قيسارية على ساحل فلسطين[٥]. الأمر الذي يدل على حنكة هذا القائد وخبرته العسكرية, فلم يشأ الاندفاع مباشرة صوب بيت المقدس, وخشي – فيما يبدو – أن يتمكن أسطول القسطنطينية من إنزال نجدات عسكرية على ساحل فلسطين, مما يشد من أزر سكان بيت المقدس, ويضع أمام الجيش الفارسي صعوبات جمة, لذلك نصب معسكره في قيسارية, ومنها أرسل إلى أهل بيت المقدس يدعوهم إلى الاستسلام مقابل حقن دمائهم وأموالهم, ويبدو أن وجهاء المدينة والبطريرك زكريا أدركوا أنه لا أمل لهم في النجاة بعد أن عرفوا باحتشاد الجيش الفارسي في قيسارية على الساحل, الأمر الذي يحرمهم من أي نجدة عن طريق البحر, لذلك قرروا الموافقة على التسليم, وأرسلوا الهدايا القيمة لشهر باراز, وسمحوا له بإرسال بعض الحرس لحراسة أبراج المدينة. غير أن شباب المدينة وثبوا على الحرس فقتلوهم, ثم أغلقوا الأبواب, وأوقعوا باليهود الذين مالوا إلى الفرس, مما حفز بقية اليهود للوقوف بجانب الفرس بكل قوة[٦].

وعقب ذلك تقدم شهرباراز بجيشه صوب مدينة بيت المقدس وحاصرها ونصب معدات الحصار المكونة من المنجنيقات والأبراج والكباش. وقد بدأ حصار المدينة في ١٥ أبريل ٦١٤م[٧],

---

(١) عن خشبة الصليب انظر: اسحاق عبيد : قصة عثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب أسطورة أم واقع. المجلة التاريخية المصرية, المجلد ٣(١٩٧٠), ص ٥–٢١.

(25) Stratos, A.N: Byzantium in the Seventh Century, vol. I, 602-634, Trans, By Marco Ogilieve – Grant (Amsterdam 1968). P. 107.

(٣) يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٤٦.

(27) Expugnationis Hierosolymae A.D. 614, Recensiones Arabicae (ed.) Gerardo Garitte, in Corpus Scriptorom Christianorum Orientalum. Scriptores Arabici, T. 26, Louvain (Belgique 1973) pp.68,116-117.

(28) Sebeos: op. cit. p. 68.

(29) Ibid. p. 68.

(٧) تختلف المصادر في تحديد العام الذي اقتحم فيه الفرس بيت المقدس فبعضها أكد أنه عام ٦١٤م في حين ذكر البعض الآخر أنه سنة ٦١٥م. والراجح ما أثبتناه في المتن حيث قالت به المصادر المعاصرة للحوادث وبه أخذ الأستاذ فاسلييف. انظر :Vasiliev: op. cit. p. 195 , وانظر عن الخلاف بين المصادر : ليلى عبد الجواد : المرجع السابق, ص ٢١٣ – ٢١٤. وسواء كان التاريخ ٦١٤م أو ٦١٥م , فإن الفترة التي تفصل بين هذه الهزيمة الساحقة التي حلت بالروم وبين أول نصر يحرزه الروم على الفرس وهو سنة ٦٢٣م يصبح تسع سنوات باعتبار الاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦١٤م وثمان سنوات باعتبار ذلك كان سنة ٦١٥م, وكل ذلك

وظل الفرس زهاء ثلاثة أسابيع وهم يقذفون المدينة بأحجار المنجنيق ودافع الأهالي عن مدينتهم ببسالة رائعة واستطاعوا دفع المهاجمين مراراً عن أسوار بيت المقدس بما ألقوه عليهم من الأحجار والسهام. غير أن الأبراج والكباش الفارسية اخترقت أخيراً أسوار المدينة. كما نجحت فرق أخرى من النقابين في إحداث ثقوب أسفل الأسوار, ووضعوا فيها الحطب وأضرموا فيها النيران فسقطت أجزاء من الأسوار, فلاذ الحراس بالفرار إلى الكنائس والجبال القريبة للنجاة بأنفسهم(١).

وفي ٥ مايو سنة ٦١٤م, وبفضل مساعدة اليهود داخل بيت المقدس, دخل الفرس إلى المدينة(٢). وينقل فاسيلييف عن أحد المصادر وصفاً حياً لدخولهم حيث قال : (دخل الأعداء الأشرار إلى المدينة أمواجاً وهم أشبه ما يكونون بالحيوانات الحانقة وجموع التنين الهائجة)(٣). وعلى هذه الصورة اقتحم الفرس بيت المقدس وشرعوا في قتل السكان بدون تمييز, فوضعوا السيوف في رقاب الشيوخ والنساء والأطفال وقتلوهم بقسوة بالغة وبدون شفقة أو رحمة مدفوعين في ذلك بحقدهم المجوسي الدفين. واقتحموا ديراً للراهبات يسمى دير العذارى في شرق بيت المقدس وكان به أربعمائة راهبة فانتهكوا أعراضهن واقتسموهن بينهم(٤). وأنزل الفرس بالسكان النصارى من أعمال القتل ما لم يضارعهم فيه إلا الصليبيون بعد نحو خمسة قرون حين اقتحموا بيت المقدس على المسلمين سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م وارتكبوا تلك المذبحة المشهورة في تاريخ الحروب الصليبية.

وناصر يهود بيت المقدس الفرس وقاموا بدور رئيس في المذبحة التي حلَّت بالنصارى. وطبقاً لبعض المصادر فإن ما بين ٥٧ــ٩٠ ألفاً من النصارى قد قُتلوا, وأعداداً أخرى كبيرة تصل إلى خمسة وثلاثين ألفاً جرى استرقاقهم, وأرسل كثير من الأسرى إلا بلاد فارس وضمنهم البطريرك زكريا(٥). ولم تقتصر أعمال الفرس على القتل والهتك والأسر, بل اقتحموا الأماكن

يعني بضع سنين كما نص عليه القرآن الكريم في سورة الروم حيث فسَّر النبي صلى الله عليه وسلم البضع بأنه دون العشر – كما سيأتي إيضاحه بعد قليل.

(31) Sebeos: op. cit. p. 68; Expugnationis : op. cit. p.69; Vasiliev: op.cit. vol.I, p.195; Ostrogorsky: op.cit. p. 95;

يوسف الدبس: تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ض ٥٤٧؛ ليلى عبد الجواد : المرجع السابق, ص ٢١٤ – ٢١٥.

(32) Runciman, Steven: A History of the Crusades, 3 vols. (Cambridge 1968) vol. I, p.10.

(33) Vasiliev: op. cit., vol. I. p. 195.

(34) Expugatoionis: op. cit. pp. 120-121, 125, 126; Runciman: op. cit. vol. I, p. 10; Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 195 ;

يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٤٧؛ ليلى عبد الجواد: المرجع السابق, ص ٢١٥.

(35) Sebeos: op. cit. p. 69; Theophanis: op. cit. p. 463; Vasiliev: op. cit. Vol. I, p. 195; Ostrogorsky: op. cit. p. 85; Runciman: op. cit. vol. I,p.10.

يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٤٧.

ويجب أن نشير هنا إلى موقف اليهود من الغزو الفارسي حيث استغلوا ذلك الغزو منذ بدايته زمن الامبراطور فوكاس فثاروا على دولة الروم , وبدأت ثورتهم في أنطاكية حيث قبضوا على بطريرك أنطاكية انسطاس (انستاسيوسAnastasus) وقتلوه وسحبوا جثته في شوارع أنطاكية. وهاجموا منازل وجهاء النصارى فأحرقوها. فأمر فوقاس بتنصير اليهود بالقوة وانتشرت ثوراتهم في بيت المقدس والأسكندرية والقسطنطينية. ولما اجتاح الفرس بلاد الشام وبيت المقدس سنة ٦١٤م انتهز اليهود تلك الفرصة فأظهروا الفرح والسرور لما حل بخصومهم النصارى, وانضموا إلى الفرس وقدموا لهم المساعدة في اجتياح مدن فلسطين , كما شاركوا الفرس في إحراق وتدمير الكنائس النصرانية. انظر :

Thpophanis: op. cit. p. 457; Michel Le Syrien: Chronique universelle, Vol. II, pt. I, ed. And trans. By: J.B. Chabot. Paris : (Ernest Leroux,1901) Vol. II, p. 379.

يوسف الدبس : تاريخ سورية , ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٤٤, ٥٤٧.

هذا ويحاول المؤرخ اليهودي الحديث موسى جل في كتابه الواسع عن فلسطين ٦٣٤-١٠٩٩م تبرئة اليهود من الأعمال التي قاموا بها ضد النصارى. ويعتبر أن ما حصل مجرد صلات مثيرة للعاطفة من اليهود تجاه الفرس

المقدسة عند النصارى وسلبوا كنيسة القبر المقدس, المسماة كنيسة القيامة, التي شيدت إبان عهد قسطنطين الكبير ووالدته هيلانة, ثم أشعلوا فيها النيران[1]. أما صليب الصليوت, وهو أقدس المخلفات الدينية عند النصارى, وهو عبارة عن خشبة مغلفة بالذهب الخالص, يعتقد النصارى أنها الخشبة التي صلب عليها المسيح فقد اختفى. ويذكر الطبري أنه وضع في تابوت من ذهب وطُمِرَ في بستان داخل بيت المقدس, وزُرِع فوقه مبقلة, فأجبر القائد الفارسي أسقف المدينة وبقية القسس على أن يدلوه على الموضع, فدلوه عليه فاستخرجها بيده وأرسلها إلى كسرى أبرويز[2]. وواصل الفرس تخريب بقية المعابد النصرانية والكنائس فسلبوا وأحرقوا كنيسة القديس ستيفن Saint Stephen, ولم ينج من التخريب والحرق إلا كنيسة المهد في بيت لحم, احتراماً لما كان يعلو بابها من فسيفساء تصور الحكماء القادمين من الشرق في أزياء فارسية[3]. وهذا أمر له دلالته العميقة. إذ يشير بوضوح إلى أن جيوش الفرس كانت على وعي تام بكل ما تفعله وأن ما أجرته من تخريب وتدمير إنما كان وفق سياسة مرسومة أملتها طبيعة تلك الحرب وما اتصفت به من مظاهر دينية واضحة.

يتبنى الأستاذ فاسيلييف أراءً تحليلية لكاتب يدعى كوندكوفKondakov عن النتائج التي يرى أنها أصابت بيت المقدس جراء الغزو الفارسي حيث يعتبر أن الغزو الفارسي المدمر لفلسطين ونهب بيت المقدس نقطة تحول فاصلة في تاريخ المنطقة. ولما كانت تلك الآراء تحمل بعض المجازفات الخطيرة, أهمها: إلغاء دور بيت المقدس الحضاري خلال العصور الإسلامية بأكملها, وإلغاء دور الإسلام في حركة الفتوح الإسلامية[4], فإنه لا بد من عرض تلك الآراء ومناقشتها في ضوء الحقائق التاريخية حيث جاء في كتاب فاسيلييف ما ترجمته: (ولم يُسمع بمثل هذه الكارثة منذ الاستيلاء على بيت المقدس في عهد الامبراطور تيتوس Titus, لكن في هذا الوقت لم يعد بالإمكان معالجة الفاجعة, فلم تسترد هذه المدينة تاريخاً مشابهاً لدورها تحت حكم قسطنطين, فالمباني الفخمة داخل أسوار المدينة مثل مسجد عمر[5] لم يجدد ثانية أبداً في أي حقبة من التاريخ. ومنذ الآن أخذت المدينة ومبانيها تضمحل تدريجياً وباستمرار. وحتى الحروب الصليبية أفضت إلى نهب متعدد من أجل أوربا, وتسببت في اضطراب وفوضى وانحلال في بيت المقدس. وأزال الغزو الفارسي المظاهر الاصطناعية المستوردة للحضارة الإغريقية الرومانية في فلسطين. ودُمرت الزراعة , وحُرمت المدن من سكانها, وحُطمت الكثير من الأديرة والصوامع مؤقتاً أو دائماً. وتوقف نمو التجارة تماماً. وحرَّر هذا الغزو القبائل العربية من عوائق الاتحاد والخوف التي كانت تسيطر عليها, فبدأت تقيم الوحدة التي جعلت من الممكن لها القيام بهجمات شاملة في الفترة التالية ومنذ الآن انتهى التطور الثقافي للبلاد. وبعد ذلك دخلت فلسطين فترة مضطربة يمكن أن نطلق عليها فعلياً فترة العصور

نتيجة ما نعم به اليهود قبل مئات السنين من حدب من جانب الفرس وما كان بينهما من مصالح مشتركة. انظر :

Moshe Gil: A History of Palestine, 634-1099. Translated from Hebrew By Ethel Broido (Cambridge 1997) pp. 5-6.

(36) Vasiliev: op. cit. vol. I, p. 195.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك, ج٢ ص ١٨١, وانظر أيضاً : الفرد. ج. بتلر: فتح العرب لمصر, ترجمة محمد فريد أبو حديد, القاهرة, ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م, ص ١٠١.

(38) Runciman: op. cit. vol. I, p.10.

(٤) نقل بعض المؤرخين العرب بعضاً من تلك الآراء في مؤلفاتهم دون نقد. انظر على سبيل المثال: السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية, بيروت ١٩٨٢م, ص ١٨٨ – ١٩٩؛ عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية, الاسكندرية ١٩٩٤م, ص ١٠٠؛ ليلى عبد الجواد: المرجع السابق, ص ٢١٩.

(٥) المقصود بمسجد عمر , المكان الذي صلى فيه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه, فحين تسلم عمر بيت المقدس زار بعض كنائس النصارى صحبة البطريرك صفرونيوسSophronius , ولما وصلا كنيسة القيامة, حان وقت الصلاة عند المسلمين, فسأل الخليفة أين يمكن أن يفرش رداءه للصلاة, فتوسل إليه صفرونيوس أن يصلي داخل الكنيسة, غير أن عمر خرج إلى خارج باب الكنيسة وصلى أمام الباب, حتى لا يزعم المسلمون فيما بعد أن هذا المكان صلى فيه عمر فيأخذون الكنيسة, وهو ما حدث بالفعل حيث أصبح المكان الذي صلى فيه عمر مسجداً صغيراً للمسلمين, وهو حالياً داخل سور المسجد الأقصى. انظر :

Theophanis: op. cit. pp. 519-520; Runciman: op. cit. vol. I, p.3.

الوسطى, والتي استمرت في الحقيقة حتى عصرنا الحاضر)[1].

وإذا سلمنا بضخامة الكارثة التي نزلت ببيت المقدس وفلسطين تحت وطأة الغزو الفارسي وما ألحقه ذلك الغزو بهما من دمار كبير في تلك الحقبة إلا أن كونداكوف وفاسيلييف قد جازفا كثيراً عندما اعتبرا أن الدمار الذي حصل في بيت المقدس دماراً أبدياً لم تنهض منه المدينة حتى العصر الحاضر. والحقيقة أن بيت المقدس لم تنهض بعد ذلك كمدينة نصرانية تهيمن على حياتها الحضارة اليونانية الرومانية, ولكنها نهضت بعد الفتح الإسلامي وأصبحت من المدن الكبرى في عالم الإسلام, وقامت بدورها الفكري والحضاري على مدى نحو خمسة قرون, ولم تبدأ في التدهور إلا بعد الاحتلال الصليبي سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م. وبعد أن استردها المسلمون بقيادة صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م, استردت بيت المقدس عافيتها من جديد وتطورت شيئاً فشيئاً حتى غدت من كبرى المدن الإسلامية التي تعج بالمدارس والمساجد والأربطة, والعلماء وطلبة العلم. وقامت بدورها الحضاري والثقافي خير قيام. ونظرة سريعة في كتب التاريخ والتراجم وأسماء أعلام الفكر الإسلامي تُظهر لنا أسماء كثيرة للعلماء المقادسة من المحدثين والفقهاء والمؤرخين والجغرافيين وغيرهم. ولو تصفح القارئ – على سبيل المثال – كتاب " الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" لمجير الدين العليمي الحنبلي[2] , لاتضح له خطأ الحكم الذي أصدره كونداكوف وفاسيلييف بتوقف التطور الثقافي لفلسطين بغزو الفرس وإلى العصر الحاضر, ولاتضح له بما لا يدع مجالاً للشك أن بيت المقدس نهضت نهضة فكرية خلال العصور الإسلامية لا مثيل لها وأن ازدهارها الثقافي إبان العصر الروماني, لا يرقى إلى مستوى ازدهارها الثقافي إبان العصر الإسلامي. وأن ذلك التحول الثقافي في حياة بيت المقدس كان سيتم سواء وقع الغزو الفارسي أم لم يقع, لأن الفتح الإسلامي هو الذي حولها إلى مدينة إسلامية لها مكانتها المرموقة في ميدان الحضارة الإسلامية.

أما المجازفة الثانية التي وقع فيها كونداكوف وفاسيلييف فهي الزعم بأن الغزو الفارسي لامبراطورية الروم واحتلال الفرس لبلاد الشام حرَّر القبائل العربية من عوائق الوحدة والخوف التي كانت تسيطر عليها, فبدأت تلك القبائل تقيم الوحدة التي جعلت من الممكن لها القيام بهجمات شاملة في الفترة التالية. وفي هذا القول مغالطة كبيرة, بل هو باطل من أساسه, إذ أنه يُلغي دور الإسلام كلياً في إقامة كيان أمة جديدة وفريدة على أساس العقيدة , ومن ثمة القيام بحركة الفتوح الإسلامية لتحطيم العقبات والعوائق التي تحول دون وصول دعوة الإسلام إلى سائر الشعوب. وهذا الزعم يوحي وكأن قيام دولة الإسلام في جزيرة العرب وقيام حركة الفتوح كان نتيجة للغزو الفارسي لبلاد الشام, وليس نتيجة لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته وصبره وهجرته وجهاده, وتربيته الفريدة لأصحابه. ولو تأمل كونداكوف, وفاسيلييف ما كان يجري في جزيرة العرب إبان الحرب الفارسية الرومية لأدركا أن قيام تلك الدولة الفتية في جزيرة العرب كان على أساس دين الإسلام, وأن انتصار تلك الدولة لم يتم إلا بعد أن تحول سير مجرى الحرب الرومية الفارسية لصالح الروم, وأن صُلح الحديبية – الذي كان فتحاً مبيناً – حدث بعد انتصار هرقل النهائي على الفرس. وأن المسلمين حين شرعوا في غزو دولة الروم, كانت تلك الدولة في ذروة انتصاراتها الحاسمة على الفرس فجيوشها جاهزة وكاملة لم تُسرح, وروحها المعنوية في القمة, وقد حصلت على خبرات ميدانية طويلة ومفيدة, وعلى غنائم ضخمة, بحيث أصبحت انتصارات الروم على الفرس كفيلة بإثارة الخوف والفزع في نفوس أي قوة أخرى تريد الهجوم على أراضيها عدا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين غرس فيهم حب الجهاد والاستشهاد, ولم يعودوا يخشون إلا الله, ولا هدف لهم إلا التقرب إلى الله بأرواحهم, وليس أمامهم إلا الفوز بإحدى الحسنيين, إما النصر أو الشهادة, إضافة إلى أن المسلمين في المدينة غزو الروم بثلاثة آلاف فقط وقاتلوهم في مؤتة سنة ٨هـ / ٦٢٩م عندما كان هرقل وقادة الروم يحتفلون في بلاد الشام بانتصارهم النهائي على الفرس. وكانت قريش لا تزال تناهض المسلمين وخلفها معظم قبائل العرب, فأين الخوف الذي يتحدث عنه كونداكوف وفاسيلييف؟ وفوق هذا فإن المسلمين شرعوا بعد ذلك في مهاجمة الدولتين الكبيرتين, فارس والروم, في وقت واحد,

---

(41) Vasiliev: op. cit. vol. I, p.195.

نقلاً عن :

N.P. Kondakov: An Archeological Journey through Syria and Palestine, pp. 173 – 174.

(٢) انظر أيضاً كتاب : عبد الجليل حسن عبد المهدي: المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي, ودورها في الحركة الفكرية, في جزئين, عمان ١٩٨١م؛ سعيد عبد الفتاح عاشور : مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك, في كتاب بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته, القاهرة ١٩٨٧, ص ٤٨٩ – ٥٤٩.

وعلى جبهات متعددة, وبأعداد قليلة لا تُقارن بأي حال من الأحوال مع أعداد جيوش الفرس والروم.

وإذا تأملنا هذه المجازفة الثانية الباطلة – التي قال بها كوندراكوف وفاسيلييف – نجد فيها الزعم بأن قبائل العرب تحررت من الخوف وبدأت تقيم الوحدة بينها. فالقبائل العربية لم تقم دولة الإسلام, وإنما أقامها النبي صلى الله عليه وسلم. وقد وقفت القبائل العربية بسبب العصبية القبلية موقفاً معادياً بشراسة للإسلام, مثل قريش – قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم – التي أخذت على عاتقها محاربة دعوة الإسلام , حفاظاً على كيانها القبلي ومصالحها الضيقة. بل حشدت خلفها الكثير من قبائل العرب لاستئصال الإسلام في غزوة الأحزاب المشهورة. وبعد أن فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة سنة ٨هـ / ٦٢٩م, وانتصر على هوازن وثقيف في السنة نفسها. أدركت قبائل العرب أن هذه قوة جديدة كاسحة لا قبل لها بمواجهتها فأرسلت وفودها إلى النبي صلى الله عليه وسلم تعلن إسلامها ودخولها في طاعته, دون أن يتغلغل الإسلام – كعقيدة – في نفوس كل قبائل العرب, لذلك ما أن سمعت القبائل بمرض النبي صلى الله عليه وسلم ثم موته حتى قامت بالحركة المعروفة بالردة, والتي شملت معظم قبائل العرب[1]. ولم يبق على الإسلام إلا تلك النواة الصلبة المؤمنة التي صنعها الله تعالى على يد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار وقريش وثقيف, وبعض الثابتين على الإسلام من القبائل الأخرى, والذين كانوا في مجموعهم يشكلون أقلية أمام سائر قبائل العرب, ومع ذلك استطاعت تلك النواة الصلبة المؤمنة سحق حركة الردة بالكامل خلال فترة وجيزة وأذعنت جميع القبائل مرة أخرى لدولة الإسلام. وإذا تأملنا ما أصاب جماعة المؤمنين من خسائر أثناء صراعهم الدامي مع المشركين قبل فتح مكة ثم أثناء القضاء على حركة الردة , نجد تلك الجماعة المؤمنة قد تكبدت من الخسائر ما يفوق – بالنسبة لعددها – أضعاف الخسائر التي تكبدها الروم والفرس في حربهم الطويلة مقارنة بعددهم وإمكاناتهم, ومع ذلك تجاسرت جماعة المؤمنين بعد القضاء على حركة الردة على مهاجمة دولتي الفرس والروم في وقت واحد وحققت عليهما انتصارات كبيرة مع ملاحظة أن الخليفة أبا بكر الصديق (لم يشرك أحداً من المرتدين في الفتوح, بل جردهم من السلاح لأنه لم يأمنهم لحداثة عهدهم بالردة, وعقوبة لهم بإظهار الاستغناء عنهم, ثم إنه لم يشأ أن يكونوا طلائع الفتح الإسلامي فلا يعطون سكان المناطق المفتوحة المثل الصالح للجندي المسلم)[2].

والحق أن أسباب قيام حركة الفتوح الإسلامية وسرعة نجاحها تختلف تماماً عما ذهب إليه كوندراكوف وفاسيلييف, ومن تلك الأسباب : أن الدعوة الإسلامية قامت على أساس التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى وحده وإفراده بالعبودية دون سواه, وهذا ما يوافق الفطرة السليمة, لذلك انتشرت عقيدة الإسلام بسرعة بين شعوب البلاد المفتوحة , فدخل الكثير منهم في الإسلام عن اقتناع كامل وإرادة حرة. كما أن مبادئ الإسلام العادلة جعلت شعوب البلاد المفتوحة تتوق إلى حكم المسلمين, لما رأوه من عدل ورحمة لم يجدوها عند حكامهم السابقين. كما أن المسلمين أنفسهم كانوا شديدي الإيمان بقضاء الله وقدره, فدخلوا سائر المعارك دون أن يخشوا الموت, بل كانت الشهادة مطلباً غالياً للكثير منهم, فطلبوا الموت فوهبت لهم الحياة. وفوق هذا وذاك وجود الصحابة الذين رباهم النبي صلى الله عليه وسلم, الذين تخلقوا بأخلاق القرآن السامية وطبقوه واقعاً عملياً في حياتهم, وضربوا أروع الأمثلة بالفداء وحب الاستشهاد, وبذلك آثروا في العرب الذين تابوا بعد حرب الردة فاعتنقوا الإسلام بصدق والتفوا حول الصحابة واتخذوهم قدوة لهم. إضافة إلى شجاعة الجندي العربي وخشونته التي نشأ وتربى عليها فزادها الإسلام رسوخاً وقوة بدعوته إلى الخشونة والزهد والتقشف. كما أن الجهاد أصبح ذروة سنام الإسلام وأفضل الأعمال الصالحة التي تقرب العبد من الله. وكذلك إيمان المسلمين العميق بأن الله تعالى سوف ينصر دين الحق على سائر الأديان, قال تعالى : { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ }[3] وإيمان المسلمين أيضاً بأن الله سوف يستخلفهم ويمكنهم في الأرض, قال تعالى : { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ

---

(١) انظر تفاصيل هذا الموضوع في بحث : سعيد عبد الفتاح عاشور: أضواء جديدة على حركة الردة في صدر الإسلام, في كتاب : بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته, ص ٤٧ – ١١٦.

(٢) أكرم ضياء العمري : عصر الخلافة الراشدة " محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين", المدينة المنورة, ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م , ص ٣٢٨.

(٣) سورة الصف : آية ٩.

الْفَاسِقُونَ }[1].

وكيفما كان الأمر, فقد بدت خسارة الروم لبلاد الشام وبيت المقدس كبيرة ومصيبتهم فادحة. وكان لذلك دوي هائل في جميع أنحاء العالم النصراني, بل وفي بلاد العرب أيضاً حيث نجد أثر تلك الهزيمة الفادحة للروم في مكة حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعاني من تكذيب قومه له واضطهادهم لأصحابه, حيث توافق تلك الحادثة السنة الخامسة من بعثته. ولا شك أن تجار قريش الذين وفدوا إلى الشام في رحلة الصيف المعروفة سنة ٦١٤م شهدوا بأم أعينهم آثار انتصار الفرس وسقوط بيت المقدس بأيديهم وما حل بالروم من خسائر فادحة, فلما عادوا بتلك الأنباء إلى مكة, اتخذ المشركون من تلك الهزيمة وسيلة دعاية للشماتة بالمسلمين حيث (كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان)[2]. ويفهم من هذا النص أن المسلمين والمشركين في مكة كانوا يسمعون بالحرب القائمة بين الفرس والروم ويتابعون سيرها, فلما احتل الفرس الشام واقتحموا بيت المقدس أيقن المشركون أن الحرب حُسمت لصالح الفرس, وقد أوضح القرآن الكريم في أوائل سورة الروم أن هزيمة الروم – التي فرح بها المشركون – ليست إلا جولة في حرب طويلة سيكون النصر في نهايتها للروم { الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[3]. والمعروف عند المسلمين أن سورة الروم مكية بالإجماع[4]. وأن سبب نزولها هزيمة الروم في بلاد الشام وسقوط بيت المقدس بأيدي الفرس, حيث ابتهج المشركون بانتصار الفرس لأنهم أقرب إليهم من أهل الكتاب. وساء ذلك المسلمين لأن أهل الكتاب أقرب إليهم[5]. وقد روت لنا المصادر الإسلامية مدى السخرية والشماتة التي أظهرها المشركون بالمسلمين في مكة حيث قالوا لهم : (أنتم والنصارى أهل كتاب, ونحن وفارس أمّيون, وقد ظهر إخواننا من فارس على الروم وهم أهل كتاب, وأنتم تزعمون أنكم ستغلبون بالكتاب الذي أُنزِلَ على نبيكم, ولئن قاتلتمونا لنظهرن عليكم كما ظهرت فارس على الروم)[6] ويتضح من هذا أن العامل الديني هو الذي جعل كفار قريش يتعاطفون مع الفرس ويشمتون بالمسلمين, ويوضح شيخ الإسلام

---

(١) سورة النور : آية ٥٥.

(٢) هذا النص جزء من الحديث الصحيح المشهور حول الحادثة, وقد أخرجه أبو إسحاق الفزاري حيث رواه عن سفيان الثوري عن حبيب بي أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما, وذلك في كتاب السير ص ٣١٧ برقم ٦١١, ومن طريقه أخرجه أحمد في المسند , ج١ ص ٢٧٦, ٣٠٤؛ والترمذي , ج٥, ص ٣٤٣ – ٣٤٤ في التفسير باب ومن سورة الروم برقم ١٩٣؛ والنسائي في السنن الكبرى في التفسير ج ٢١, ص ١٢؛ والطبراني في المعجم الكبير ج ١٢, ص ٢٩ برقم (١٢٣٢٧)؛ والحاكم في المستدرك ج٢, ص ٤١٠, وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي؛ وأبو نعيم في دلائل النبوة ج٢, ص ٣٥١ – ٣٥٢ برقم ٢٤٢؛ والبيهقي في دلائل النبوة ج٢, ص ٣٣٠ – ٣٣١.

ويجب لفت الانتباه هنا إلى أن المحدثين والمفسرين والمؤرخين المسلمين الذين تحدثوا عن الحرب بين الفرس والروم كان تركيزهم على تفسير الآيات الواردة في صدر سورة الروم وصدى تلك الحرب على المسلمين والمشركين. أما فيما يتعلق بسير تلك الحرب وحوادثها وقادتها وتواريخها فقد بذلوا جهدهم في هذا المجال إلا أنه قد يقع منهم بعض الأخطاء في ذلك لأنه لم يكن في مقدورهم – في ذلك الحين – الاطلاع على مصادر تلك الحرب سيما المعاصرة منها مثل : جورج البسيدي والحوليات الفصيحة, وأعمال الآباء اليونانيين ويوحنا النقيوسي. لهذا يجب أن نلتمس لهم العذر في هذا الباب. ولذا لن نتحدث عن رواياتهم في سير حوادث تلك الحرب وسوف نقتصر على الحديث عن صدى وأثر الحرب على المسلمين والمشركين.

(٣) سورة الروم : الآيات ١ – ٧.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن, ط القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م, ج ١٤, ص١.

(٥) الواحدي : أسباب النزول , ص ٢٣١ – ٢٣٢؛ تحفة الأحوذي ج٩ , ص ١٥ – ٥٣.

(٦) الطبري : جامع البيان, ج١, ص ١١–١٥؛ الطبري : تاريخ الرسل والملوك, ج٢, ص ١٨٤؛ أبو نعيم الأصبهاني : دلائل النبوة ج١, ص ١٢٣ – ١٢٤؛ البيهقي : دلائل النبوة, ج٢, ص ٢٣٠؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق, ج١, ص ٣٥٦؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن, ج١٤, ص ١–٢؛ ابن كثير : السيرة النبوية , ج٢, ص ٩١–٩٢؛ السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالمأثور, ج٥, ص ١٥٠–١٥٢؛ الصالحي : سبل الهدى والرشاد, ج٢, ص ٥٦٠ وما بعدها. وهذا الحديث في مجموع طرقه متواتر عن أهل التفسير والمغازي والحديث والفقه " والقصة متواترة عند الناس " كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح, ج١, ص ٢٧٤.

ابن تيمية ذلك بقوله : (إنما كانت قريش تستفتح يومئذ بالفرس لأنهم وإياهم أهل تكذيب بالبعث وأهل أصنام, وإنما كان المؤمنون يستفتحون يومئذ بالروم لأنهم وإياهم أهل نبوة وتصديق بالبعث) [1]. ومن الإعجاز العجيب الذي أراده الله تعالى أن جاءت حوادث الحرب موافقة لما استفتح به كل فريق – كما سنرى – إذ أن استمرار انتصارات الفرس حتى سنة ٦١٩م صاحبها شدائد عظيمة على الأقلية المسلمة في مكة, ثم لما بدأ التحول منذ سنة ٦٢٠م وحتى نصر الروم النهائي جاء موافقاً لاستفتاح المسلمين, فما من نصر يحرزه الروم إلا ويعقبه مباشرة نصر عظيم للمسلمين, فلما حقق الروم النصر الكاسح والنهائي على الفرس أعقبه مباشرة الفتح المبين بصلح الحديبية ثم فتح مكة بعد ذلك, وعلى أية حال فإن هذا الأثر الذي أحدثه انتصار الفرس على الروم على شعور المشركين في مكة بحيث فرحوا به وشمتوا بالمسلمين يوضح لنا من الحقائق ما يلي :

أولاً : شدة عداوة المشركين للمسلمين المستضعفين ولغطهم ضد دعوة التوحيد في مكة لدرجة أنهم وجدوا في انتصار الفرس الوثنيين وسيلة للتشفي من المسلمين وفألاً بانتصار عقائد الوثنية على عقيدة التوحيد. في وقت كانت فيه مصالح قريش وتجارتها أشد ارتباطاً بالروم في بلاد الشام منها مع الفرس, وبخاصة وأن ما نزل ببلاد الشام وسكانها من قتل ودمار وخراب وتهجير يجعلهم عاجزين عن شراء ما كانت تحمله رحلة الصيف القرشية من تحف الهند واليمن والحبشة الأمر الذي يعود بأفدح الضرر على تجارة مكة, فضلاً عن أن سيطرة الفرس على بلاد الشام يتيح لهم القدرة على تحويل الطريق التجاري القادم عبر بلاد فارس إلى موانئ الشام مباشرة ومن ثمة إلى بقية عالم البحر المتوسط. وفي هذا ما فيه من تهديد دائم لتجارة قريش. وبالإضافة إلى هذا التهديد الاقتصادي, فإن سيطرة الفرس الدائمة على بلاد الشام مع اليمن الواقعة فعلاً تحت سيطرتهم يجعل من قريش وسائر جزيرة العرب واقعة بين فكي كماشة, ويجعل استقلال العرب جميعاً مهدداً من جانب الفرس. ومع كل هذه الأخطار المحتملة , فإن المشركين في مكة تغاضوا –أو جَهلوا- عنها, وأعلنوا فرحهم بانتصار الفرس وهزيمة الروم لإغاظة المسلمين وتبديد آمالهم في انتصار دعوة الحق.

ثانياً : إدراك المشركين في مكة أن تلك الحرب الكبيرة بين الفرس والروم قد طفحت بالمشاعر والحوافز الدينية وأن المنتصر فيها يعني, من وجهة نظرهم, تفوق عقيدته وديانته على عقيدة وديانة خصمه, فوجدوا في انتصار الفرس فألاً حسناً ودليلاً على أن عقيدة قريش الوثنية هي التي سوف تتغلب على عقيدة الإسلام في النهاية.

ثالثاً : أن الحرب الرومية الفارسية في ميزان الإسلام هي حرب بين دولتين كافرتين تشكلان خطراً متساوياً على الإسلام في المستقبل. بل إن خطر الروم كان أشد وأطول من خطر دولة الفرس التي انتهى أمرها زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2]. ولم يكن هناك عهد ولا حلف يربط المسلمين بالروم حتى يحزنوا لهزيمتهم. ولا مصلحة للمسلمين في انتصار إحدى القوتين على الأخرى إلا بالقدر الذي يخدم دعوة الإسلام في نهاية المطاف. والراجح أن المسلمين تمنوا انتصار الروم لإغاظة المشركين فقط ورداً على شماتتهم التي أظهروها حين سمعوا بانتصار الفرس على الروم.

وقد دخل أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بهزيمة الروم وشماتة المشركين, فكان الرد على تلك الشماتة التي أظهرها المشركون أن أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم صدر سورة الروم { الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }. فأخبر القرآن أن الروم غُلبت في تلك الجولة التي سقطت فيها بلاد الشام وبيت المقدس في أيدي الفرس, والتي فرح بها

---

(١) الجواب الصحيح, ج١, ص ٢٧٢.

(٢) جاءت رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لفارس نطحة أو نطحتان, ثم قال : لا فارس بعدها أبدا, والروم ذات القرون كلما ذهب قرن خلف قرن هبهب إلى آخر الأبد). انظر: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (من علماء القرن السادس الهجري) : مجمع البيان في تفسير القرآن, بيروت ١٣٨٠هـ, ج٢١, ص ٩؛ وقد أورد علاء الدين الهندي الحديث لكنه يختلف في جزئه الأخير ونصه هو : (فارس نطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعد هذا أبداً. والروم ذات القرون كلما هلك قرن خلفه قرن أهل صبر وأهل آخر الدهر...) انظر : علاء الدين الهندي : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال, حلب ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م, ج١٢, ص ٣٠٣.

المشركون ووجدوا فيها فرصة للشماتة بالمسلمين والتفاؤل بنصر العقيدة الوثنية على عقيدة التوحيد وأخبر بمكان المعركة وهي أدنى الأرض إلى أرض العرب[١] في الشام. ثم أخبر بالأمر الأهم وهو انتصار الروم الذي سيحدث في المستقبل القريب بعد بضع سنين, والبضع كما فسَّره النبي صلى الله عليه وسلم هو دون العشر[٢]. والأمر كله لله من قبل ومن بعد, وهو ينصر من يشاء. وعندما يتحقق ذلك النصر الموعود للروم يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء. ذلك أن شماتة المشركين ستعود عليهم. ومن عجب أن انتصارات الروم القادمة سوف تتزامن – كما سنرى – مع انتصارات المسلمين, وعندئذ لا يكون فرح المؤمنين بنصر الروم فقط بل بنصر الله لهم على المشركين. وهذا الخبر المعجز بانتصار الروم بعد بضع سنين, ليس نبوءة تُقال أو توقع يحدث. بل هو وعد من الله لا بد من وقوعه على أرض الواقع لأنه صادر من خالق الكون ومقدِّر الأشياء صاحب المشيئة المطلقة بحيث لا يكون في الوجود إلا ما يريد ويشاء ويختار[٣].

وخرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه من عند النبي صلى الله عليه وسلم جذلاً فرحاً وهو يقرأ تلك الآيات البينات بأعلى صوته ليسمع كفار قريش فقال له الملأ من المشركين (ما هذا يا ابن أبي قحافة لعله مما يأتي به صاحبك ؟ قال: لا والله ولكنه كلام الله وقوله – تبارك وتعالى – قالوا : فذاك بيننا وبينك إن ظهرت الروم على فارس في بضع سنين, فراهنهم أبو بكر ففتح الله للروم على فارس دون التسع, فأسلم عند ذلك خلق كثير من المشركين)[٤]. بعد أن تحققت المعجزة على أرض الواقع.

أما الطبري فيُقدِّم رواية أكثر تفصيلاً. حيث أورد في تاريخه خبر الرهان بسنده فقال: (.... فخرج أبي بكر الصديق إلى الكفار, فقال أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحون , ولا يُقرنَّ الله أعينكم, فوالله ليظهرن الروم على فارس, أخبرنا بذلك نبينا, فقام إليه أُبيّ بن خلف الجمحيّ, فقال : كذبت يا أبا فصيل, فقال أبو بكر : أنت أكذب يا عدو الله. فقال أناحبك عشر قلائص[٥] , مني عشر وعشر قلائص منك, فإن ظهر الروم على فارس غرمتُ, وإن ظهرت فارس غرمتَ إلى ثلاث سنين, ثم جاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم, فأخبره, فقال : ما هكذا ذكرتُ, إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع, فزايده في الخطر ومادّه في الأجل, فخرج أبو بكر فلقي أبياً, فقال : لعلك ندمت. قال: لا, تعال أزايدك في الخطر وأمادّك في الأجل, فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين, قال : قد فعلت)[٦].

وكيفما كان الأمر , فقد ترتب على اجتياح الفرس لفلسطين أن هاجر السواد الأعظم من أهلها إلى مصر, فاستقبلهم بطريرك الأسكندرية يوحنا الرحوم وأكرمهم وقدَّم لهم كل ما كان يعوزهم من

---

(١) ذكر ابن كثير أن ابن عباس وعكرمة وغيرهما قالوا بأن الروم غُلبت بين أذرعات وبصرى وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز , انظر : تفسير القرآن العظيم, ط بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م, ج٥, ص ٣٤٧؛ ونقل القرطبي عن مقاتل أن غلبة الروم كانت بالأردن وفلسطين. وقد ذهبت بعض الدراسات الحديثة إلى الإشارة إلى إعجاز آخر في الآية , فقالت إن المقصود بأدنى الأرض هو أخفض بقعة على سطح الأرض وهي منطقة الأغوار والبحر الميت بالأردن وفلسطين, انظر كتاب " إنه الحق " إصدار هيئة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة, رابطة العالم الإسلامي, مكة المكرمة , الحلقة العاشرة, أخبار كونية جغرافية, ص ٦٨ – ٧٠.

(٢) أبو إسحاق الفزاري, كتاب السير, ص ٣١٧, رقم ٦١١, وانظر بقية المصادر الواردة في حاشية رقم (٤٧), وقال الزجّاج : البضع : القطعة من العدد ما بين الثلاثة إلى العشرة, وقال المبرد: البضع ما بين العقدين في جميع الأعداد. انظر : الطبرسي : مجمع البيان, ج٢١, ص ٦.

(٣) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم, ج٥, ص ٣٤٩؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن, ج٤, ص ٥–٧.

(٤) ابن تيمية : الجواب الصحيح, ج١, ص٢٧٢, وانظر أيضاً : مسند الإمام أحمد, ج١, ص ٢٧٦, ٣٠٤؛ تحفة الأحوذي, ج٩, ص ٥١, ٥٣؛ الحاكم : المستدرك, ج٢, ص ٤١٠.

(٥) المناحبة : المخاطرة والمراهنة. والقلائص : جمع قلوص وهي الإبل الشابة.

(٦) تاريخ الطبري, ج٢, ص ١٨٤–١٨٥. وكان الرهان في مكة قبل تحريم القمار لذلك لما كسب أبو بكر الرهان الأخير من ورثة أبي بن خلف وجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له : (هذا السحت تصدق به). انظر : تفسير ابن كثير, ج٥, ص ٣٤٣؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن, ج١٤, ص ٣؛ ابن عساكر : تاريخ دمشق, ج١, ص ٣٥٨؛ السيوطي : الدر المنثور, ج٥, ص ١٦٤.

قوت وملبس ومأوى, وأرسل رجلاً من قبله إلى بيت المقدس, بعد أن زوده بالأموال والقمح والملابس ليساعد بها الذين مكثوا في ديارهم, كما أرسل أموالاً ورجالاً ليفتدي بعض الأسرى[١].

ولم يقتصر الغزو الفارسي لدولة الروم على انتزاع بلاد الشام, بل وجّه الفرس للروم ضربة قاصمة أخرى بعد فترة قصيرة من احتلالهم لبيت المقدس. ففي سنة ٦١٧م سار جيش فارسي كبير نحو مصر, فانتزع أولاً مدينة الاسكندرية من الروم بعد حصار طويل, ويبدو أن ذلك طبقاً للسياسة العسكرية التي اتبعها الفرس بالشام, وذلك بالسيطرة على السواحل أولاً لمنع تدفق النجدات من العاصمة القسطنطينية عبر البحر, ثم التوغل بعد ذلك للسيطرة على داخل البلاد, وقد نهب الفرس الاسكندرية, ثم دبروا مذبحة راح ضحيتها الآلاف من رجال الاسكندرية, فغادر بطريرك الاسكندرية يوحنا الرحوم إلى قبرص حيث توفي بها, كما هرب حاكم مصر نيكتاس إلى القسطنطينية. ثم توغل الفرس في ديار مصر جنوباً واستولوا على كل ما يقع إلى جنوب الدلتا, فوصلوا الصعيد, ونهبوا كل المناطق التي مروا بها وتقدموا جنوباً حتى وصلوا النوبة[٢].

وكان فقدان مصر كارثة ثقيلة على دولة الروم, نظراً لأن مصر كانت مخزن القمح للقسطنطينية, إذ أن توقف إمدادات الحبوب المصرية كان له أثره المباشر الثقيل على الأحوال الاقتصادية في العاصمة[٣]. حيث اشتد القحط في القسطنطينية, وغلت أسعار المؤن في الوقت الذي أصبحت فيه خزينة الامبراطورية خاوية الأمر الذي دفع حكومة هرقل لزيادة الضرائب مما ولّد حالة من التذمر والضجر, ولم يحل دون اندلاع الثورة ضد هرقل سوى ما كان له من رصيد في قلوب مواطنيه بعد أن خلصهم من ظلم وعسف فوقاس[٤]. ومما زاد الأمر سوءاً بالنسبة لدولة الروم أن السكان النساطرة والمونوفزتيين في بلاد الشام ومصر رحبوا بالغزو الفارسي لبلادهم , وفضّلوا الهيمنة الفارسية على الرومية بسبب ما عانوه من اضطهاد أباطرة الروم لهم إبان الحقب الماضية, فنال أولئك السكان عطف وعناية الفرس[٥]. الأمر الذي يشير إلى تصميم الفرس على ضم تلك البلاد التي انتزعوها إلى امبراطوريتهم الواسعة.

وفي الوقت الذي كان فيه الفرس يزحفون غرباً للاستيلاء على مصر كان جيش فارسي آخر بقيادة شاهين يجتاح آسيا الصغرى ناهباً ومخرباً كل ما يجده في طريقه حتى وصل إلى خلقدونية فانتزعها من الروم. وأقام الجيش الفارسي معسكره بجوار خريسبولي Chrysopolis (سكوتاري الحالية) مواجهاً للعاصمة القسطنطينية التي لم يعد يفصله عنها سوى مضيق البسفور, الأمر الذي أوقع الخوف والفزع في نفوس سكان القسطنطينية[٦].

ونظراً لسيطرة الفرس على معظم بلدان الشرق الأدنى فقد تطلعوا إلى إحياء الامبراطورية الأخمينية القديمة Achaemenids التي عاشت قبل مئات السنين, مثلما تطلع جستنيان إبان سنوات حكمه المبكرة إلى إحياء الامبراطورية الرومانية التي سيطرت في أزمنة سابقة على حوض البحر المتوسط بأكمله[٧]. وبالإضافة إلى ما نزل بدولة الروم من خسائر فادحة على أيدي الفرس في الجنوب والشرق , فقد تعرضت لخطر جسيم من الشمال من قبل حشود الآفار والسلاف الذين انساحوا في شبه جزيرة البلقان بقيادة خان الآفار, وشنوا سلسلة من الغارات بلغت أسوار القسطنطينية ذاتها وحصل خان الآفار على غنائم نفيسة وأسر الكثير من الروم[٨].

وهكذا بدت الأمبراطورية البيزنطية (امبراطورية الروم) في سنة ٦١٩م وكأنها قد هوت إلى أسفل سافلين, وقد ذكر فاسيلييف أن أحد الكتاب الغربيين المعاصرين لتلك الحقبة وهو

---

(١) يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٤٨؛ بتلر : فتح العرب لمصر, ص ١٠٣؛ العريني : مصر البيزنطية, ص ٣٨٧.

(٢) يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٤٨؛ ليلى عبد الجواد: المرجع السابق, ص ٢٢١ – ٢٢٥.

(62) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 196

(٤) يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٤٨ – ٥٤٩.

(64) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 196.

(65) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 196 ; Ostrogorsky: op. cit. p.95;
المنبجي : العنوان المكلل ص ٣٣١؛ يوسف الدبس : تاريخ سورية , ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٤٨.

(66) Ostrogorsky: op. cit. p. 95.

(67) Ibid: p.95; Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 196

إيسيدورIsidore أسقف اشبيلية أشار إلى تلك الخسائر التي نزلت بهرقل في حوليته. وأضاف بأن امبراطورية هرقل خسرت في الوقت نفسه بقية ممتلكاتها في أسبانيا لحساب الملك القوطي سوينتيلا Suinthila ولم يبق بيد هرقل سوى جزر البليار[١].

ويصف المطران يوسف الدبس أثر هذه الهزائم المتلاحقة على هرقل فيقول عنه : (فضاق ذرعه عن تحمل هذه المصائب والمصاعب فعزم على الفرار والعزلة في افريقيا, بل شحن كل ما كان نفيساً في سفن وأمر أن تمخر إلى قرطاجنة, فثار عاصف شديد غرَّق بعض هذه السفن وكسر بعضها, وذاع خبر عزم الملك على الاعتزال فاحتشد جم غفير حول القصر وكان بعضهم يصيح إليه بألا يغادرهم وبعضهم يهدد بقتله إن أصر على عزمه. فرق الملك لهم, وكان لما أبدوه من التعلق به وقع شديد في قلبه فاستدعى البطريرك إليه, وسار معه إلى كنيسة القديسة صوفيا فحلف هناك يميناً على أنه لا يغادر عاصمة ملكه. فجأر الشعب بالدعاء له, وأكثروا من مظاهر السرور التي أنْسْتهم إلى وقت تراكم المصائب عليهم[٢]).

والمتأمل في الحالة التي وصلت إليها الأمبراطورية البيزنطية خلال سنتي ٦١٩-٦٢٠م تبدو له وكأنها قد وقعت في هوة سحيقة لا سبيل إلى الخروج منها , بل وكأنها في طريق السقوط والاندثار, ومع ذلك ظلت الحقيقة القرآنية ثابتة بأن الروم سوف يغلبون في نهاية المطاف. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : هل كانت هذه الهزيمة الثانية بسقوط مصر في أيدي الفرس وحصار القسطنطينية بعيدة عن مصادرنا الإسلامية؟ الحق أن مصادرنا لم تهمل هذه الهزيمة الثانية بل أشار بعضها إليها لا سيما من جانب بعض المفسرين, فعلى سبيل المثال نجد أبو حيان يورد رأياً آخر في تفسير قوله تعالى : { وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ } بالقول (بأن المعنى هنا يتضمن غلبهم مرتين)[٣]. وهذه إشارة إلى هزيمتهم الأولى بسقوط بلاد الشام, وهزيمتهم الثانية بفقدان مصر ومحاصرة القسطنطينية واجتياح الآفار والسلاف للبلقان حتى أسوار القسطنطينية. ويفسر هذا الترمذي برواية أخرى حيث يقول : (فمضت ست سنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر)[٤] وذلك عندما حدثت هذه الغلبة الثانية, وهذا الرهن كان عشر قلائص, لذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم : فزايده في الخطر وماده في الأجل كما ذكرنا من قبل. ومن الطبيعي أن يقبل المشركون وعلى رأسهم أبي بن خلف الجمحي الرهان الجديد, بعد أن كسب الرهان الأول وبعد أن أيقن المشركون أن سير الحرب لصالح الفرس, وأن امبراطورية الروم على وشك الزوال.

وإذا تأملنا هذه السنوات الست التي تلت سقوط بيت المقدس بيد الفرس, منذ سنة ٦١٤ وحتى سنة ٦٢٠م, والتي كانت كوارث متلاحقة وشدائد مهلكة على امبراطورية الروم, وقارناها بما كان يجري في مكة فقد جاءت مثلما تفاءل المشركون, حيث جاءت قاسية وشديدة على الأقلية المسلمة بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم. فقد اتبع المشركون أساليب كثيرة في محاربة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه, مثل محاولات التأثير على عمه أبي طالب لوقف دعوته أو التخلي عنه, والتهديد بمنازلة بني هاشم, والاتهامات الباطلة للنبي صلى الله عليه وسلم, والسخرية والأستهزاء به, بل والاستهزاء بالقرآن والمطالبة بالمعجزات, وترهيب المسلمين والاعتداء عليهم, والتعذيب الجسدي للمستضعفين من المسلمين, الأمر الذي أدى إلى هجرتي الحبشة, ثم محاولة قتل النبي صلى الله عليه وسلم والمقاطعة الشاملة لبني هاشم في شعب أبي طالب, وغير ذلك من الشدائد التي أنزلها المشركون بالنبي وأصحابه في مكة[٥].

تراجع هرقل – كما رأينا – عن قرار الفرار إلى شمال افريقيا وذلك بفضل وقوف جماهير القسطنطينية ضد هذا القرار. كما كان للبطريرك سرجيوس دوره في إعادة الهدوء إلى نفس هرقل

---

(68) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 196

(٢) تاريخ سورية, ح٢, المجلد الرابع, ص ٥٤٩.

(٣) أبو حيان (محمد بن علي الاندلسي, ث ٧٥٤هـ) البحر المحيط, بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م, ج٧, ص ١٦١.

(٤) أخرجه الترمذي في باب التفسير, سورة الروم برقم ٣٢٤٥ , ٣٢٤٦ وقال عنه حديث حسن صحيح غريب, وانظر أيضاً تحفة الأحوذي, ج٩, ص ٥١ – ٥٤.

(٥) انظر تفاصيل ذلك في : أكرم ضياء العمري : السيرة النبوية الصحيحة, المدينة المنورة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م, ج١, ص ١٤٧ – ١٩٤؛ مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية, الرياض ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م, ص ١٦٥ – ٢٤٠؛ محمد الصوياني : السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة, الرياض ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م, ج١, ص ٨٧ – ١٨٦.

بأن أبدى استعداده لتقديم كل ثروات وكنوز الأديار والكنائس بما فيها آنيتها وشمعداناتها الذهبية والفضية للامبراطور على سبيل القرض حتى يتمكن من تجنيد الجنود والاستعداد للحرب ضد الفرس, فتسلم هرقل تلك النفائس في سنة ٦٢٠م وأرسلها إلى دار الضرب كي تسك عملات جديدة[١]. وإذا أمعنا النظر في هذا الأمر نجده يحدث لأول مرة في تاريخ الدولة البيزنطية أن تصبح ثروات الكنيسة في خدمة الحرب وأصبح هذا عادة سارية فيما بعد. بل يمكن القول إن كل القيادات الكنسية والمنظمات الرهبانية, فيما بعد, وجدت في هذا سابقة لاستخدام أموال الأديار والكنائس لحرب المسلمين على مدى القرون التالية سيما في عصر الحروب الصليبية.

شرع هرقل في رسم خططه الحربية وجند عدداً ضخماً من الجنود ودربهم لعدة أشهر وألقى فيهم خطبة يشجعهم ويرفع روحهم المعنوية ويتعهد بالقتال إلى جانبهم, وراسل خان الآفار في الشمال, حتى يدفع خطره, فأرسل إليه عدداً من الرهائن البارزين ومبلغاً من المال[٢]. وبعد أن أكمل استعداداته ذهب إلى كنيسة أياصوفيا في ابريل سنة ٦٢٢م ليضفي على حربه الصبغة الدينية وجثا على ركبتيه خاشعاً مناجياً ربه بقوله : (اللهم لا تسلمنا لأعدائنا جزاءً لآثامنا بل ارفق بنا وأولنا الظفر لينكف الأشرار عن الاعتداء على ميراثك) [٣]. وبعد الابتهال والتوسل أمسك الامبراطور بأيقونة المسيح واتخذها لواءً له. وبدأت الحرب في مشاعر دينية ملتهبة لم تعرف من قبل في دولة الروم. بل واعتبرت كأنها أول حرب صليبية في التاريخ[٤].

وإذا تأملنا هذا التحول الذي حدث منذ أن تخلى هرقل عن قرار الفرار إلى أفريقيا سنة ٦٢٠م وحتى اكتمال استعداداته سنة ٦٢٢م نجده يتزامن مع تحول بدأ يحدث في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم, حيث أسلم في موسم الحج من سنة ١١ من النبوة الموافق لسنة ٦٢٠م ستة رجال من أهل يثرب, فعادوا إلى يثرب وأفشوا خبر النبي صلى الله عليه وسلم, فجاء وفد في العام التالي سنة ٦٢١م فبايعهم النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام, وأرسل معهم مصعب بن عمير ليعلمهم القرآن, فانتشر الإسلام في المدينة. حتى جاء في موسم الحج التالي سنة ٦٢٢م وفد من المسلمين في المدينة كان عددهم سبعين رجلاً فبايعوه على السمع والطاعة والنصرة في الحرب. وهذه بيعة العقبة الثانية التي تعتبر نقطة تحول كبرى في تاريخ الدعوة الإسلامية[٥]. وهكذا تحولت الأمور عكس ما كان يتفاءل به المشركون ويستفتحون ويأملون, وجاءت موافقة لما كان يستفتح به المسلمون ويأملون !!!

بعد أن فرغ هرقل من تدريب جيشه وتجهيزه قام بحملته الأولى الناجحة في سنتى ٦٢٢-٦٢٣م فعبر البسفور في سنة ٦٢٢م ووصل إلى قيصرية في كبادوقيا في خريف عام ٦٢٢م ثم اتجه شرقاً إلى أرمينية بقصد مهاجمة بلاد فارس نفسها وفي أرمينية التقى بجيش الفرس بقيادة شهر باراز, لكنه تحاشى مواجهته وجهاً لوجه, واتبع معه أساليب الخِدَع العسكرية مثل نصب الكمائن والتظاهر بالهرب والانقضاض عليه مرة أخرى, وبعد أن أرهق الجيش الفارسي بتلك الخطط انقض عليه في معركة حاسمة فلاذ جنود الفرس بالفرار فتعقبهم الروم وقتلوا أعداداً كبيرة منهم, ووقع معسكر الفرس بكل ما حواه غنيمة سائغة للروم وذلك في سنة ٦٢٣م أي بعد تسع سنين من سقوط بيت المقدس. وهو أول نصر يحرزه الروم على الفرس بعد أن ظلوا يخسرون كل معاركهم أمام الفرس طوال عشرين سنة مضت من عمر الحرب. وترك هرقل جيشه مرابطاً في أرمينية وعاد إلى

---

(73) Theophanis: op. cit. p.466 ; Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 197;
يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٥٠؛ ليلى عبد الجواد: المرجع السابق, ص ٢٣١.

(74) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 197;
يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٥٠.

(٣) يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٥٠.

(٤) هـ. سانت : ميلاد العصور الوسطى, ترجمة عبد العزيز جاويد, القاهرة ١٩٦٧, ص ٢٣٣ – ٢٣٤؛ حسنين ربيع , المرجع السابق, ص ٦١ – ٧٢.

(٥) انظر : العمري: السيرة النبوية الصحيحة, ج١, ص ١٩٤ – ٢٠٠؛ مهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية, ص ٢٤٤ – ٢٥٦؛ محمد الصوياني : السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة, ج١, ص ٢٣٢ – ٢٤٥.

القسطنطينية عندما سمع أن الآفار نقضوا الصلح مع الروم وأنهم يتأهبون لمهاجمة بلاده[١].

وإذا تأملنا هذه الحملة الأولى الناجحة لهرقل نجدها تزامنت مع حوادث عظيمة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ففي سنة ٦٢٢م كانت الهجرة النبوية إلى المدينة التي كانت نقطة تحول في تاريخ البشرية بأكمله, حيث وضع النبي قواعد الدولة الإسلامية في المدينة[٢]. وقد قامت تلك الدولة على أساس العقيدة بين المسلمين حيث نصت الصحيفة المشهورة – التي كانت بمثابة دستور الدولة الجديدة – في بندها الثاني على (أنهم أمة من دون الناس) أمة تربط أفرادها رابطة العقيدة وليس رابطة الدم[٣]. وفي سنة ٦٢٣م بدأ تشريع الجهاد بنزول قول الله تعالى : {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } [٤] , وبدأت خلال سنة ٦٢٣م طلائع حركة الجهاد[٥].

أما الحملة الثانية التي قام بها هرقل وأحرز فيها سلسلة من الانتصارات الرائعة على الفرس فقد جرت حوادثها خلال سنة ٦٢٤م, إذ تمكن هرقل من تجديد الصلح مع الآفار عن طريق زيادة الأتاوة التي يدفعها لهم. ثم عبر البسفور في مارس ٦٢٤م واتجه بجيشه الضخم, الذي بلغ نحو ٢٢٠ر٠٠٠ ألف رجل , إلى الشرق حتى وصل إلى أرمينية وتابع سيره حتى دخل أرمينية الفارسية فاستولى على عاصمتها دوفينDovin وأحرقها وعلى مدينة نقشفانNakhchevan , وتقدم هرقل صوب بلاد فارس عبر أذربيجان , ولما سمع كسرى أبرويز بحملة هرقل جمع جيشاً كبيراً واستعد لمواجهته, والتقى الجانبان عند مدينة غانزاكGanzac عاصمة أذربيجان, وأحرز هرقل نصراً كبيراً, فلاذ كسرى بالفرار وتبعه جيشه فطاردهم الروم وقتلوا عدداً كبيراً منهم, واستولى هرقل على غانزاك وأحرق معبد النار الشهير بها ودمرها انتقاماً لما فعله الفرس في بيت المقدس, ثم طارد هرقل كسرى وفلوله إلى مدينة تبريز في جنوب أذربيجان. ولم يعد في وسع كسرى الصمود في ميدان مكشوف فلجأ إلى سياسة الأرض المحروقة المتمثلة في حرق كل ما يمكن أن يفيد منه جيش هرقل من أعلاف وأقوات. ورغم ذلك فقد وصل هرقل إلى تبريز وأحرقها , وظل كسرى يتقهقر وهرقل يقفو أثره حتى وصل إلى بلاد ما بين النهرين. ولما كان شتاء عام ٦٢٤م شديد البرودة, فقد قرر هرقل الانسحاب شمالاً إلى إقليم القوقاز للتزود بالمؤن من جانب الشعوب القوقازية مثل الكرج والأبخاز , وهي شعوب مسيحية تميل إلى الروم, وكان قد وقع في أسر هرقل نحو خمسين ألف من الفرس, فأطلق سراحهم بعد أن أصبحوا في حالة سيئة من شدة البرد[٦].

والمتأمل في هذه الحملة الثانية التي قام بها هرقل ضد الفرس سنة ٦٢٤م والمعارك الكبيرة التي خاضها يجدها وقعت في السنة نفسها التي وقعت فيها غزوة بدر التي حدثت في رمضان من السنة الثانية للهجرة الموافق لشهر مارس سنة ٦٢٤م[٧]. وإذا ما قارنا معركة بدر مع تلك المعارك التي دارت بين الفرس والروم في سنة ٦٢٤م نجدها – بالمقاييس المادية – معركة صغيرة محدودة, لا تمثل مع تلك الحرب إلا مثل اشتباك صغير بين طلائع تلك الجيوش التي كانت الحرب بينها عالمية بالمفهوم المادي. وتتضح المقارنة الدقيقة بينهما إذا ما تذكرنا أنه وقع في أسر المسلمين في معركة بدر سبعين أسيراً من المشركين بينما وقع في أسر الروم خمسين ألف أسير من الفرس. وإذا

---

(78) Theophanis: op. cit. pp. 468 – 471; Stratos: op. cit. vol. I, pp. 139-143;

يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٥٠؛ ليلى عبد الجواد: المرجع السابق, ص ٢٣٧ – ٢٣٩.

(٢) انظر : حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية , ص ٥٩ – ٦٠.

(٣) العمري : السيرة النبوية الصحيحة, ج١, ص ٢٩٢؛ محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة, ط مصر بدون تاريخ, ص ٤١–٤٧.

(٤) سورة الحج : آية ٣٩.

(٥) انظر : العمري : السيرة النبوية الصحيحة, ج٢, ص ٣٤٥ – ٣٤٨.

(83) Sebeos: op. cit. pp. 80-82; Theophanis: op. cit. pp. 471 – 475; Ostrogorsky : op. cit. p. 102;

ليلى عبد الجواد : المرجع السابق, ص ٢٤١ – ٢٤٥.

(٧) انظر عن غزوة بدر : العمري : السيرة النبوية الصحيحة : ج٢, ص ٣٥٤ – ٣٧٣؛ مهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية , ص ٣٣٧ – ٣٦٦؛ محمد الصوياني : السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة, ج٢, ص ٥١ – ١٥٥.

كان هرقل قد ظن أنه بتلك الانتصارات في طريقه إلى أن يصبح سيداً على العالم بعد أن غزا الفرس في عقر دارهم وأن نهاية الحرب ستكون في صالح الروم, فإن مشيئة الله وإرادته فوق كل شئ, ذلك أن معركة بدر هي التي قررت مصير الجماعة المؤمنة ورسمت مستقبل الفرس والروم, بل ورسمت مستقبل البشرية جمعاء. ولذلك فإن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم قبل خوض معركة بدر عندما قال (اللهم إنَّكَ إنْ تهلِكْ هذه العِصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض) [١]. كان دعاءً عميقاً, فنصره الله مع أصحابه ليكون ذلك نقطة الإنطلاق لعقيدة الإسلام لتسود على عقائد الفرس والروم معاً. وهذا يعطينا معنىً أعمق لقوله تعالى في سورة الرسوم { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ }. فالمعنى فرح المؤمنين بنصر الله لهم في بدر نصراً عظيماً كبت به المشركين وكسر شوكتهم ورد عليهم شماتتهم. يدل على ذلك ما حدث من استقبال حافل للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عندما عاد من بدر إلى المدينة حيث لقيه من لم يحضر معركة بدر من المسلمين يهنئونه بنصر الإسلام[٢] وليس بنصر الروم, والفرح فيما يتعلق بنصر الروم هو الفرح فقط بتحقق المعجزة العجيبة التي أخبر الله بها عندما سقطت بيت المقدس بيد الفرس, فانتصار الروم هو إعجاز ودليل من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن القرآن هو من عند الله الذي أنزله بالحق على نبيه وليس افتراءً مثلما زعم المشركون !!! ذلك أن نصر الروم في حد ذاته لم يعد يعني شيئاً بالنسبة للمسلمين. فبعد تشريع الجهاد لم يعد للجدل مع المشركين مكان وأصبحت كلمة الفصل معهم في ميادين الجهاد. إذ لا بُدَّ من القضاء على الشرك والجاهلية.

أمضى هرقل شتاء ٦٢٤م في منطقة القوقاز فحاول كسرى أبرويز الانتقام لهزائمه فأرسل ثلاثة جيوش جديدة عليها أشهر قادته مثل شهر باراز, وشاهين المتمرسين في حروب الروم, لكن هرقل استطاع أن يضم إليه عدداً من قبائل القوقاز, وبعد مناورات بارعة وجهود مضنية, تمكن هرقل من إنزال الهزائم المتتابعة بتلك الجيوش وتشتيت شملها. ولم يمنع هرقل– بعد سيطرته على أرمينية – من العودة لمهاجمة بلاد فارس في ذلك الوقت, سوى انسحاب حلفائه من القوقازيين وعودتهم إلى ديارهم[٣].

علم هرقل وهو في أرمينية أن الآفار تحالفوا مع الفرس لمهاجمة القسطنطينية, وأن الفرس بدأوا الاستعداد لإرسال قوات جديدة نحو القسطنطينية. فغادر هرقل أرمينية نحو بلاد الشام عائداً إلى بلاده عبر قيليقية. لكنه واجه في قيليقية جيشاً فارسياً كان يقوده شهرباراز, وتعجل جنود الروم في الهجوم على الفرس عند نهر سيحان[٤] في آخر مارس سنة ٦٢٥م. الأمر الذي أحدث اضطراباً في صفوف الروم وتمكن الفرس من هزيمتهم , وتمكن هرقل بعد ذلك من جمع بقايا جيشه وانسحب شمالاً إلى سيواس لمراقبة تحركات الفرس والآفار[٥].

ومن عجب أن هذه الهزيمة التي حصلت لهرقل قد تزامنت مع معركة أحد التي حدثت في منتصف شوال سنة ٣ هـ[٦] الموافق لنهاية مارس ٦٢٥م. فكانت الكبوة الوحيدة التي حصلت لهرقل منذ بداية حملاته سنة ٦٢٢م وحتى انتصاره النهائي والحاسم في سنة ٦٢٨م. مثلما كانت معركة أحد الخسارة الوحيدة للمسلمين منذ معركة بدر وحتى فتح مكة.

وحشد كسرى من جديد كل ما أمكنه من قوات وعهد بقيادتها إلى شاهين وأرسلها لمقاتلة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد, باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر, صحيح مسلم بشرح النووي, ج١٢, ص ٨٤؛ والإمام أحمد في مسنده, ج١, ص ٣٠؛ والترمذي في أبواب التفسير, تفسير سورة الأنفال, حديث رقم ٥٠٧٥؛ وأخرجه البخاري في كتاب المغازي باب قصة غزوة بدر بلفظ (... اللهم إن شئت لم تعبد) برقم (٣٩٥٣) فتح الباري, ج٧, ص ٣٣٥.

(٢) انظر : سيرة ابن هشام : تحقيق أحمد حجازي السقا, دار التراث العربي, القاهرة , بدون تاريخ, ج٢, ص ٤٢٩؛ صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم, مكة المكرمة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م, ص ٢٥٤.

(87) Theophanis: op. cit. pp. 475 – 480 ; Sebeos: op. cit. pp. 81-83; Stratos: op. cit. pp. 158 – 159 ;

ليلى عبد الجواد : المرجع السابق, ص ٢٤٥ – ٢٤٩.

(٤) وهو النهر الذي تطلق عليه المراجع الغربية اسم ساروسsarus.

(89) Theophanis: op. cit. pp. 481 – 484 ;

ليلى عبد الجواد : المرجع السابق, ص ٢٥١ – ٢٥٣.

(٦) انظر : العمري : السيرة النبوية الصحيحة, ج٢, ص ٣٧٨.

هرقل , في حين سار شهر يازار بقواته لمهاجمة القسطنطينية مع الآفار. وقد تمكن هرقل من مواجهة كل ذلك بنجاح باهر, فقد أرسل قسماً من جيشه للدفاع عن القسطنطينية, وأرسل تعليمات عسكرية في كيفية مواجهة الهجوم المزدوج على عاصمته, ثم عهد هرقل لأخيه تيودور بمواجهة شاهين, وسار ببقية جيشه إلى جنوب شرق البحر الأسود بغية التحالف مع الخزر ومع القبائل القوقازية المسيحية. ونجحت تلك الخطط فقد تمكن المدافعون عن القسطنطينية في صيف عام ٦٢٦م من إفشال حصارها وإحباط هجوم الآفار والفرس واستطاع شقيق هرقل التغلب على شاهين ونجح هرقل في أن يضم إليه أربعين ألف مقاتل من الخزر وغيرهم من القبائل القوقازية[١].

ومن عجب أن فشل حصار القسطنطينية من جانب الآفار والسلاف والفرس في صيف سنة ٦٢٦م قد أعقبه ببضعة أشهر حصار المسلمين في المدينة من جانب الأحزاب في غزوة الخندق وذلك في شوال سنة ٥هـ الموافق لشهر فبراير ٦٢٧م وفشل الأحزاب في اقتحام المدينة مثلما فشل الفرس والآفار والسلاف في اقتحام القسطنطينية , وهناك تشابه كبير بين حوادث حصار كلا العاصمتين حتى انتهى حصارهما بالفشل الذريع. وهذا التشابه العجيب في حوادث حصار القسطنطينية مع حصار المدينة يوضح أن الله تعالى قدَّر أن تجري حوادث الحرب الفارسية الرومية وفقاً لما استفتح به المسلمون والمشركون عن تلك الحرب[٢].

وبدأت حملة هرقل الأخيرة والحاسمة في سنة ٦٢٧م حيث زحف من أرمينية متجهاً بقواته قاصداً قلب بلاد فارس, والتقى بجيش الفرس الرئيس الذي كان يقوده رازاتRhazates. ودارت المعركة الحاسمة في ١٢ ديسمبر ٦٢٧م بالقرب من خرائب بلدة نينوى القديمة (بجوار الموصل الحالية), وأحرز هرقل انتصاراً ساحقاً حيث قتل قائد الفرس رازات , وثلاثة من كبار القادة التابعين له, وأُبيدَ أكثر من نصف جيش الفرس ولاذ الناجون بالفرار. ولم يتكبد هرقل سوى القليل من الخسائر. ولقد قررت هذه المعركة مصير الحرب, فلم يعد لدى كسر أبرويز من العساكر ما يستطيع به مواجهة هرقل, بالإضافة إلى انهيار معنويات الفرس وسخطهم على ملكهم كسرى الذي أشعل هذه الحرب الطويلة. وأصبح الطريق أمام هرقل مفتوحاً للاستيلاء على المدائن عاصمة الفرس, واندفع هرقل بجيشه نحو المناطق الفارسية الرئيسة والتي تقع فيها قصور كسرى الشهيرة, فاستولى على قصر داستاجردDastagerd وحاز ما فيه من غنائم نفيسة, ودمَر بقية قصور كسرى الأخرى بعد أن غنم ما فيها. وأخذ كسرى يهرب من مدينة إلى أخرى وهرقل يسير في أثره[٣].

وقبل أن يصل هرقل إلى المدائن حدث من التطورات داخل مملكة الفرس ما أوقف الحرب. فقد ثار قباد شيرويه على أبيه كسرى أبرويز واعتقله ثم قتله واستولى على العرش في فبراير ٦٢٨م, وأرسل سفارة مع هدايا كثيرة إلى هرقل يلتمس منه عقد السلام بين الجانبين والاعتراف به ملكاً على الفرس , فرد عليه هرقل يطيب خاطره ويخبره بشروطه للصلح المتمثلة في إعادة الحدود إلى ما كانت عليه قبل قيام الحرب, والجلاء عن جميع البلاد التي استولى عليها الفرس, واطلاق سراح الأسرى مع الضمانات الكافية لعودتهم سالمين إلى ديارهم وإعادة صليب الصلبوت إلى الروم. فالتزم شيرويه بتلبية كل تلك الشروط وتنفيذها على الفور. كما ابتهج شيرويه بما جاء في رد هرقل

---

(91) Theophanis: op. cit. pp. 484 – 486 ; Stratos: op. cit. pp. 161 – 193 ;
Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 197; Ostrogorsky : pp. 102 – 103;
يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٠٠؛ ليلى عبد الجواد : المرجع السابق, ص ٢٥٤ – ٢٥٧ , ٢٩٤ – ٣٢٤.

(٢) انظر عن حوادث حصار القسطنطينية : ليلى عبد الجواد : المرجع السابق, ص ٢٩٥ – ٣١٨ وقارن حوادث حصار القسطنطينية عند ليلى عبد الجواد بحوادث حصار المدينة عند كل من : العمري : السيرة النبوية , ج٢, ص ٤١٨ – ٤٣٢؛ مهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء= =المصادر الأصلية, ص ٤٤٣ – ٤٥٧؛ المباركفوري : الرحيق المختوم, ص ٣٣٨ – ٣٥١؛ الصوياني : السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة , ج ٣, ص ٧٩ – ١١٦. لترى التشابه والتماهي العجيب في الحوادث؛ ويمكن لأي باحث أن يعقد مقارنة بالحوادث المتشابهة في حصار المدينتين في بحث مستقل يبلغ عشرات الصفحات !!!

(93) Theophanis: op. cit. pp. 487 – 500 ; Sebeos : op. cit. p. 83 ;
Stratos : op. cit. pp. 200 – 220 ; Ostrogorosky: op. cit. p. 103 ;
Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 197 – 198 ; Moshe Gil: op. cit. pp. 7 – 8;
يوسف الدبس : تاريخ سورية, ج٢, المجلد الرابع, ص ٥٥١.

من أنه يعتبره مثل ابنه, وأصبح شيرويه يعد هرقل بمثابة الأب الروحي له[1]. ليس هذا فحسب بل أعلن شيرويه عن أنه يُقَدِّم ابنه ووريثه في العرش بوصفه عبداً للامبراطور هرقل[2].

لقد تزامن هذا النصر الكاسح والنهائي الذي حققه الروم على الفرس مع صلح الحديبية الذي عقده النبي صلى الله عليه وسلم مع قريش, حيث اعترفت فيه قريش لأول مرة بكيان المسلمين بعد أن كانت تعتبرهم جماعة من الصُّباة والأوباش[3]. وقد حدث الصلح في شهر ذي القعدة سنة ٦ هـ الموافق لشهر مارس ٦٢٨م. حيث أنزل الله سبحانه وتعالى سورة الفتح التي بدأها بقوله : {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً}. ولما تلى النبي صلى الله عليه وسلم السورة على أصحابه قال أحدهم : (يا رسول الله : أفتح هو ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح) [4]. ويوضح الزهري أن صلح الحديبية كان فتحاً بقوله : (فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه, إنما كان القتال حيث التقى الناس, فلما كانت الهدنة, ووُضعت الحرب, وآمن الناس بعضهم بعضاً, والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة, فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه, ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر) ويعلق ابن هشام على قول الزهري بقوله : (والدليل على قول الزهري, أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئة, في قول جابر بن عبدالله, ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف) [5]. ويمكن أن نضيف إلى هذا التوضيح عن فتح صلح الحديبية بالقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم مكث في مكة منذ بُعث ثلاث عشرة سنة وست سنوات قبل صلح الحديبية في المدينة, أي أن المجموع تسع عشرة سنة ولم يفتح المسلمون بلدة مهمة, وإذا نظرنا بعد تسع عشرة سنة من صلح الحديبية نجد المسلمين قد فتحوا بلاد العراق وفارس وأذربيجان وأرمينية وبلاد الشام ومصر والنوبة وليبيا, وهي بلاد واسعة تشمل كل ممتلكات دولة الفرس ومعظم البلاد التي كانت تابعة للروم.

وإذا دققنا النظر في هذا الإعجاز الوارد في صدر سورة الروم يمكن أن نلاحظ ما يلي :

أولاً : رأينا أن الآيات نزلت بعد سقوط بيت المقدس في أيدي الفرس سنة ٦١٤م وأن أول نصر أحرزه الروم على الفرس في حملة هرقل الأولى كان سنة ٦٢٣م أي بعد تسع سنوات وهي مدة في إطار البضع الذي هو دون العشر.

ثانياً : إذا أخذنا ببعض آراء المفسرين مثل ابن حيان الذي قال إن قول الله تعالى: { بَعْدِ غَلَبِهِمْ } يعني غلبهم مرة ثانية. والمرة الثانية كما ذكرنا كانت بسقوط مصر بكاملها بيد الفرس سنة ٦١٩م وما صاحبه من حصار لعاصمة الروم القسطنطينية, وأن المشركين أخذوا رهن أبي بكر, لذلك عاد فزاد في الرهن ومدَّ في الأجل. وجاء النصر النهائي والحاسم للروم سنة ٦٢٨م والمدة الفاصلة بين التاريخين تسع سنوات وهو في إطار البضع الذي دون العشر. وأي تاريخ من تواريخ انتصارات هرقل من سنة ٦٢٣م حتى سنة ٦٢٨م هو أيضاً في نطاق البضع.

ثالثاً : والإعجاز الأعجب الذي لم يذكره أحد من العلماء المسلمين من قبل – وهذا من عظمة هذا القرآن الذي لا تنقضي عجائبه – أنه استخدم كلمة {فِي بِضْعِ سِنِينَ} ولم يستخدم كلمة بعد, إذ أن كلمة (بعد) تعطي معنىً محدداً وهو أن الغلبة للروم سوف تقع بعد بضع سنين, بينما كلمة (في) ذات معنىً واسع رحيب, فهي تعني أولاً بعد بضع سنين وهو ما حدث بالفعل. وتعني ثانياً خلال, أي أن

---

(94) Sebeos : op. cit. pp. 85 – 87; Stratos: op. cit. pp. 223 – 226 ;
Ostrogorsky : op. cit. p. 103.

(95) Ostrogorsky: op. cit. p. 103, and note. I

(٣) يدل على وصف الصُّباة عندما ذهب سعد بن معاذ إلى مكة معتمراً بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم فنزل على صديقه أمية بن خلف ثم ذهب معه ليطوف بالبيت, فلقيهما أبو جهل فقال لأمية: (يا أبا صفوان , من هذا معك ؟ فقال : هذا سعد, فقال أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصُباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينوهم. أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً...) صحيح البخاري, كتاب المغازي حديث رقم ٣٩٥٠, فتح الباري, ج٧, ص ٣٢٩؛ ومما يدل على وصف الأوباش ما قاله عروة بن مسعود الثقفي عندما بعثته قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية فجلس بين يديه وقال : (يا محمد جمعت أوباش الناس ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها...) مسند أحمد , ج٤, ص ٣٢٤.

(٤) سنن أبي داود مع معالم السنن كتاب الجهاد حديث رقم ٢٧٣٦ : مسند أحمد, ج٣, ص ٤٢٠؛ مستدرك الحاكم, ج٢ , ص ٤٥٩.

(٥) سيرة ابن هشام, ج٣, ص ٢٤٠.

الروم سوف يواصلون انتصاراتهم خلال بضع سنين وهو أيضاً ما حدث بالفعل إذ أن حملات هرقل الثلاث الناجحة ضد الفرس وقعت واستمرت بين سنتي ٦٢٢م و ٦٢٨م وهي مدة ست سنوات تقع ضمن نطاق البضع !!!

وقد يبدو للباحث الذي ينظر فقط في مصادرنا الإسلامية دون النظر للحرب الفارسية الرومية في مصادرها الأصلية. أن هناك اختلاف بين العلماء المسلمين في تحديد تاريخ نصر الروم على الفرس, فمنهم من قال إنهم ظهروا يوم بدر, ومنهم من قال يوم الحديبية. وهذا الأخير الذي رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية[١]. والحق أنه لا يوجد تناقض مطلقاً بين القولين , فالذين قالوا بأن الروم ظهروا في يوم بدر, قولهم صحيح فقد انتصر هرقل على كسرى عند مدينة غانزاك عاصمة أذربيجان سنة ٦٢٤م في حملته الثانية وهو العام نفسه الذي وقعت فيه معركة بدر. وكان هرقل قد أحرز نصره الأول على الفرس في السنة السابقة في أرمينية. وظهور الروم الذي تزامن مع صلح الحديبية هو نصر هرقل الأخير والحاسم على الفرس في عقر دارهم كما رأينا.

أرسل هرقل إلى القسطنطينية بياناً رسمياً مبتهجاً فيه بالنصر, ووصف فيه انتصاراته على الفرس, ثم عاد بعد ذلك إلى القسطنطينية , وأثناء عودته كان أهالي البلاد التي مر بها يحيونه ويهتفون باسمه, وكان الرهبان يقرعون أجراس الكنائس على طول طريق الامبراطور[٢]. هكذا كانت الفرحة وهكذا كانت الكنائس تدق أجراسها احتفالاً بانتصار الروم بقيادة هرقل. وقد ظن قارعوا تلك الأجراس من رجال الدين النصارى أنهم حققوا النصر الأبدي لدولة الروم, دون أن يعلموا أن مصير امبراطوريتهم كان يُرسم في ذلك الحين – بقدر الله – في جزيرة العرب وأنه لن يمضي عقدين من السنين, إلا وأصوات المآذن بنداء " الله أكبر " يعلو على أجراس تلك الكنائس حين يبدأ التحول الضخم لشعوب تلك البلاد من ظلام النصرانية المحرفة – والمجوسية إلى نور الإسلام.

*****

ويتصل بهذا الإعجاز الوارد في سورة الروم إعجاز حديث نبوي تحدث به النبي صلى الله عليه وسلم عن كسرى أبرويز, وهرقل المعروف بلقب قيصر, وذلك أثناء تلك الحرب الدائرة بينهما. حيث قال : (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده, وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده, والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله) [٣]. وقد فسَّر النووي وابن حجر الحديث تفسيراً لا يُظهر الإعجاز كاملاً على حقيقته. فقد علق النووي على الحديث قائلاً : (قال العلماء : معناه لا يكون كسرى بالعراق ولا قيصر بالشام كما كان في زمنه صلى الله عليه وسلم. فعلمنا صلى الله عليه وسلم بانقطاع مُلكهما في هذين الإقليمين فكان كما قال صلى الله عليه وسلم. فأما كسرى فانقطع ملكه وزال بالكلية من جميع الأرض, وتمزق ملكه كل ممزق واضمحل بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤]. وأما قيصر فانهزم من الشام ودخل أقاصي بلاده فافتتح المسلمون بلادهما واستقرت للمسلمين ولله الحمد, وأنفق المسلمون كنوزهما في سبيل الله كما أخبر صلى الله عليه وسلم وهذه معجزات ظاهرة) [٥]. أما ابن حجر فقد علَّق على الحديث وقال : (وقد استشكل هذا مع بقاء مملكة الفرس لأن لآخرهم قُتل زمن عثمان واستشكل أيضاً مع بقاء مملكة الروم, وأجيب عن ذلك بأن المراد لا يبقى كسرى بالعراق ولا قيصر بالشام) [٦].

---

(١) الجواب الصحيح, ج١, ص ٢٧٨

(100) Theophanis: op. cit. p. 504; Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 198.

(٣) صحيح البخاري, واللفظ له, حديث رقم ٣٦١٨, فتح الباري , ج٦, كتاب المناقب, ص ٧٢٣؛ صحيح مسلم بشرح النووي, ج١٨, ص ٤٢ – ٤٣.

(٤) يشير إلى إجابة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم حينما بلغه أن كسرى مزق رسالته التي يدعوه فيها إلى الإسلام فقال : (مزق الله ملكه) فجاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم (فأخبره أن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله). انظر : البخاري, كتاب المغازي حديث رقم ٤٤٢٤ (فتح الباري, ج٧, ص ٧٣٢, ٧٣٤)؛ ابن القيم : زاد المعاد , ج٣, ص ٦٨٩؛ ابن سيد الناس : عيون الأثر, ج٢, ص ٢٦٥ – ٢٦٦؛ تاريخ الطبري, ج٢, ص ١٣٣.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي, ج١٨, ص ٤٢ – ٤٣.

(٦) فتح الباري (شرح حديث رقم ٣٦١٨), ج٦, ص ٧٢٣.

والمتأمل في نص الحديث يجد أن الحديث صريح تماماً ولا يحتاج إلى هذا التأويل وإلى حدوث هذا الإشكال عند العلماء المسلمين, فالحديث معناه واضح تماماً, ذلك أن كسرى الذي كان معاصراً للنبي صلى الله عليه وسلم وأرسل له رسالته المعروفة يدعوه إلى الإسلام هو كسرى أبرويز صاحب , الحرب على الروم , وخلفاؤه الذين جاءوا بعده بداية من ابنه شيرويه وحتى آخر ملوك الفرس يزدجرد الثالث, جميعهم عُرفوا بأسمائهم ولم يتسم أو يتلقب أحد منهم بإسم كسرى. فكان كسرى أبرويز آخر الأكاسرة, فلم يأتي كسرى بعده.

أما الأشكال الأكبر الذي حدث لدى العلماء المسلمين فهو بقاء دولة الروم حتى سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م عندما فتح العثمانيون القسطنطينية, فحاولوا تفسير الحديث بأنه يعني زوال سلطان الروم عن الشام. ومن الجلي البين أنه لا داعي للإشكال وتأويل الحديث أصلاً. فقيصر الذي كان معاصراً للنبي صلى الله عليه وسلم وأرسل له رسالته المشهورة يدعوه فيها إلى الإسلام هو هرقل. وهو فعلاً كما أشار نص الحديث آخر القياصرة فلم يأت قيصر بعده قط. ذلك أن الامبراطور هرقل الذي كان يُعرف بلقب قيصر عَمَدَ في سنة ٦٢٩م – بعد انتصاره على الفرس – إلى التخلي عن جميع الألقاب الرومانية القديمة التي كانت تُطلق على الأمبراطور مثل قيصر وأغسطس, وهي الألقاب اللاتينية التي استخدمها الأباطرة منذ قرون كثيرة. فاتخذ هرقل لقباً يونانياً قديماً في تلك السنة هو لقب باسيليوسBasileus وهو اللقب الملكي المعروف عند الإغريق القدماء. وأصبح لقب باسيليوس هو اللقب الذي يُطلق على امبراطور دولة الروم (الدولة البيزنطية) وهو اللقب الذي أطلقه هرقل على ابنه وقسيمه في الملك قسطنطين ثم على ابنه الآخر هرقلوناس. ومنذ ذلك الحين أُسْتُبْعِدَ لقب قيصر وفقد أهميته ودلالته وأصبح اسماً عادياً يتسمى به عامة الناس فلم يتلقب أحد من اباطرة الدولة البيزنطية بلقب قيصر حتى سقوط القسطنطينية[١]. فكان هرقل آخر قيصر, ولم يأت بعده قيصر آخر مثلما نص عليه قول الصادق المصدوق, الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. وهذا إعجاز باهر ودليل ساطع من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم.

*****

ويتصل بصلح الحديبية الذي كان فتحاً مبيناً والذي تزامن مع تحقق المعجزة القرآنية بانتصار الروم, أن تفرغ النبي صلى الله عليه وسلم لتبليغ رسالته إلى سائر ملوك وحكام عصره, لا سيما خارج الجزيرة العربية. وكان على رأس أولئك الملوك الذين أرسل إليهم, الامبراطور هرقل الذي حقق لتوه نصراً ساحقاً على الفرس. فأرسل إليه رسالته المعروفة والمشهورة. ومن عجب أن بعض المستشرقين يشكك في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل[٢] , بل والبعض منهم ينفيها مستدلاً بزعم كذوب وهو أن ابن إسحاق, وهو من أقدم كتّاب السيرة لم يذكرها[٣]. وهذا الزعم الكذوب يفضح جهل هؤلاء المستشرقين بالمصادر الإسلامية. فأولاً: سيرة ابن اسحاق لم تصل كاملة إليهم, لكنها وصلت كاملة إلى كثير من العلماء المسلمين الذين جاءوا بعد ابن اسحاق. فالطبري في تاريخه تحدث عن خبر إرسال رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل وأورد نص السند الذي اعتمد عليه وصرح فيه باسم محمد بن إسحاق حتى انتهى السند إلى ابن عباس الذي قال : (حدثني أبو سفيان بن حرب قال : كنا قوماً تجاراً...)[٤]. ثم أورد الخبر كاملاً بما فيه الحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان, ثم أورد نص الرسالة المشهورة وروايات أخرى حول الخبر جميعها عن ابن اسحاق, فكيف يستدل هؤلاء المستشرقون بالقول : إن ابن اسحاق لم يذكرها. وكان تاريخ الطبري متداولاً ومعروفاً لهم ولو راجعوه لوجدوا رواية ابن اسحاق كاملة غير منقوصة !!!

ثانياً : كما أن شيخ الإسلام ابن تيمية أورد الخبر أيضاً عن ابن إسحاق بقوله: (قال ابن

---

(105) Stratos : op. cit. pp.343-344 ; Ostrogorosky: op. cit. p. 106 - 107 ; Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 199 ;

العريني : الدولة البيزنطية, ص ١٣١ – ١٣٢.

(106) Runciman: op. cit. vol. I, p. 13.

(107) Caetani, Leon: Annali del L'Islam. (Milano Ulrico Hoepli; 1910) vol. 5 pp. 323 – 324; Mair, William: The Caliphatea its rise, decline, and Fall (Edinburgh John Grant, 1915) pp. 43-44 ;

وانظر أيضاً : عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية, ص ١٠٤؛ ليلى عبد الجواد: المرجع السابق, ص ٣٤٤.

(٤) تاريخ الطبري, ج٢, ص ٦٤٦ – ٦٥١.

إسحاق)[1] ثم أورد التفاصيل ونص رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلي هرقل, وختم نقله عن ابن إسحاق بقوله : (وهذا حديث مشهور من حديث محمد بن إسحاق, وهو ذو علم وبصيرة بهذا الشأن فحفظ ما لا يحفظه غيره) [2]. فهل سمع أولئك المستشرقون بكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية؟ وهل عرفوا أن كتابه من أوسع المصادر الإسلامية فيما يتصل بالعلاقات مع النصارى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ليس هذا وحسب بل إن معظم من كتب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بعد عصر الطبري أوردوا كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل نقلاً عن ابن اسحاق.

ثالثاً : والأعجب من هذا كله أن هؤلاء المستشرقين تجاهلوا – أو جَهِلوا- أهم مصدرين لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم, بعد القرآن الكريم , وهما صحيحي البخاري ومسلم , حيث أورد الشيخان (البخاري ومسلم) خبر إرسال رسالة النبي المشهورة إلى هرقل, ونص الرسالة, والحوار الذي دار بين أبي سفيان وهرقل وأخبار كثيرة تتعلق بموقف هرقل إزاء رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل[3] والمعروف لدى العلماء المسلمين الشروط الصارمة التي وضعها البخاري ومسلم لكل راوي في سلسلة السند حتى تُقبل روايته, لدرجة أنهما لا يقبلان رواية ابن اسحاق ولذلك جاءت روايتهما عن رواة آخرين عن الزهري. والمسلم به عند المسلمين أن روايات البخاري ومسلم يفوقان في الموثوقية روايات ابن اسحاق لدرجة أن ابن اسحاق لا يُعد بجانبهما شيئاً مذكوراً فكيف ينكر هؤلاء المستشرقون رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل وهي موجودة في الصحيحين. وجاءت أيضاً عن ابن اسحاق خلافاً لزعمهم الكذوب ؟؟؟

ومهما يكن من أمر فقد وصلت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عندما جاء إلى الشام من القسطنطينية في سنة ٦٢٩م, وسار من حمص إلى بيت المقدس ماشياً على قدميه ليصلي فيه شكراً لله الذي نصره ورد إليه ما فقده. وفي بيت المقدس وصلته رسالة النبي صلى الله عليه وسلم مع دحية بن خليفة الكلبي والتي نصها : (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم, سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام, أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله, فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[4].

وقد اتخذ هرقل موقفاً من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم, أعدل وأقرب إلى الحق من سائر الزعماء النصارى الذين جاءوا بعده, والذين اتصفت مواقفهم بالتشويه والتلفيق المعجونة بروح الظلم والبغي والعدوان. فأخذ يبحث عن بعض الناس الذين لهم صلة بالنبي صلى الله عليه وسلم, فعلم بوجود جماعة من تجار قريش كان فيهم أبو سفيان, فأحضرهم إلى مجلسه وسألهم عن طريق الترجمان : (أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟) فقال أبو سفيان : (أنا أقربهم نسباً), فأدناه منه وقرّب أصحابه, وأمرهم أن يواجهوه بالتكذيب إذا كذب في أجوبته. فأخذ هرقل يسأل عن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان يجيبه بصدق خوفاً أن يؤثر عنه الكذب. ونصوص ذلك التحقيق الذي أجراه هرقل مع أبي سفيان مروية في الصحيحين عن الزهري وفي كثير من مصادر السيرة عن محمد بن اسحاق. واستنتج هرقل من أجوبة أبي سفيان أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبي حقاً وقال في ختام كلامه لأبي سفيان : (فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين, وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنّ أنه منكم, فلو أعلم أني اخلص إليه لتجشمت لقاءه, ولو كنت عنده لغسلت

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسح, ج١, ص ٢٧٩ – ٢٨٢.

(٢) المصدر نفسه, ج١, ص ٢٨٢.

(٣) البخاري, كتاب بدء الوحي, حديث رقم ٧ (فتح الباري , ج١ , ص ٤٢-٤٣)؛ صحيح مسلم بشرح النووي, ج ١٢, كتاب الجهاد والسير, باب كتب النبي صلى الله عليه وسلم, ص ١٠٣-١١١.

(٤) البخاري, حديث رقم ٧ (فتح الباري, ج١, ص ٤٣)؛ صحيح مسلم بشرح النووي, ج١٢, ص ١٠٧ – ١٠٨؛ الطبري, ج٢, ص ٦٤٨ – ٦٤٩ نقلاً عن ابن إسحاق؛ ابن تيمية : الجواب الصحيح, ج١ , ص ٢٧٩ – ٢٨٠ نقلاً عن ابن إسحاق.

قدمه)[1].

وإذا دققنا النظر لفحص الأسباب الكامنة وراء اتخاذ هرقل لهذا الموقف العادل من دعوة الإسلام فيمكن أن نخرج بالملاحظات التالية :

أولاً : أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وصلت إلى هرقل وهو في ذروة انتصاره على الفرس, وقمة مجده, وأقوى قوته, فشدت انتباهه وأذهلته بمحتواها المخالف تماماً لمحتوى الرسائل والسفارات التي وصلت إلى هرقل في ذلك الحين من ملوك القوى العظمى المعاصرة له. فقد خرج منتصراً في تلك الحرب التي دامت ربع قرن من الزمان, وبعث إليه شيرويه ملك الفرس الجديد بسفارة وهدايا كثيرة يلتمس منه السلام ويعلن خضوعه له – كما رأينا -. والرسالة الثانية التي وصلت إلى هرقل كانت من طرف ملك الهند يهنؤه فيها على انتصاره على الفرس وينشد صداقته مع هدية تمثلت في كمية كبيرة من الأحجار الكريمة. كما بعث ملك الفرنجة داجوبرتDagobert بسفارة خاصة إلى هرقل يهنؤه على انتصاره ويلتمس عقد سلام دائم مع الامبراطورية البيزنطية[2]. وفي هذه الحال تصله رسالة من رجل لم يسمع به من قبل , هي رسالة النبي صلى الله عليه وسلم, ليس لتهنئته بانتصاره الكبير على الفرس, وإنما لدعوته للتخلي عن ديانته النصرانية والدخول في ديانة صاحب الرسالة الجديدة. فكان هذا سبباً جدياً شد انتباه هرقل وجعله يبحث الأمر بجدية بغية الوصول إلى الحقيقة.

ثانياً : لم يكن هرقل يحمل حقداً دفيناً على الإسلام. فلم يسمع به إلا بعد وصول رسالة النبي صلى الله عليه وسلم, ولذلك لم يكن يضمر حكماً مسبقاً عن الإسلام ملؤه الحقد والضغينة, وهو ما حصل فيما بعد من جانب الأباطرة الروم ورجال الدين النصارى , الذين نظروا للإسلام باعتباره قد قهرهم, وانتزع من النصرانية أغلى وأبهى وأقدس بلادها سيما مصر والشام, التي ارتبط بها – في نظرهم – أصول النصرانية الأولى , فجاء حديثهم عن الإسلام معجوناً بالكره والألم. أما هرقل فإن انتفاء الحكم المسبق والتجربة الماضية عنده جعله يبحث حقيقة دعوة نبي الإسلام بصورة موضوعية.

ثالثاً : آمن هرقل وأيقن بصدق نبؤه توصل إليها بنفسه عن طريق ممارسته للتنجيم, ورؤيا رآها في منامه, أن الذين سوف يقضون على امبراطوريته (امبراطورية الروم) شعب يتخذ عادة الختان, فذهب ظنه في بداية الأمر إلى أنهم اليهود, فكان ذلك من الأسباب التي جعلته يقتل اليهود ويجبرهم على التنصر, فلما وصلت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم, وعرف أنه من العرب الذين يختتنون أيضاً , أدرك أنه أمام منعطف حاسم سيغير مجرى التاريخ البشري بأكمله, وأن الأمة التي ستقضي على امبراطورية الروم لها صفات تختلف عن سائر القوى التي واجهت الامبراطورية الرومانية طوال أكثر من ألف سنة, منذ أن نشأت روما وحتى عصر هرقل, ومن عجب أن قصة هذه النبؤة التي استقرت في أعماق هرقل, لم يقتصر ذكْرَ خبرها في المصادر الإسلامية[3] فقط. بل وردت في المصادر النصرانية الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية, مما يجعلها تحوز درجة التواتر, فعلى سبيل المثال, حين تحدثت بعض المصادر النصرانية الشرقية الأرثوذكسية عن أسباب قتل هرقل لليهود وتنصيرهم بالقوة, ذكرت أن السبب في ذلك يعود إلى تأثره بنبؤة رآها في المنام أو عن طريق ممارسة التنجيم بأن الأمة التي سوف تدمر الامبراطورية الرومية هي أمة مختونة[4].

والأعجب من هذه المصادر التي أوردت خبر هذه النبؤة التي أيقن بها هرقل هي الحولية

---

(١) البخاري, حديث رقم ٧ (فتح الباري, ج١, ص ٤٣)؛ صحيح مسلم بشرح النووي, ج١٢, ص ١٠٧؛ الطبري, ج٢ , ص ٦٤٨ نقلاً عن ابن إسحاق؛ ابن تيمية : الجواب الصحيح, ج١, ص ٢٨٤ نقلاً عن ابن إسحاق.

(114) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 199.

(٣) البخاري, حديث رقم ٧ (فتح الباري, ج١, ص ٤٣-٤٤)؛ الطبري, ج٢, ص ٦٤٧ نقلاً عن ابن إسحاق؛ ابن تيمية : الجواب الصحيح, ج١, ص ٢٨٧؛ أبو نعيم : دلائل النبوة, ص٢٩١.

(٤) ساويرس بن المقفع : تاريخ بطارقة الأسكندرية, ص ٢٢٨؛ وانظر أيضاً :

Runciman : op. cit. vol. I, p. 12.

وانظر المصادر في الصفحة نفسهاnote 2.

الميروفنجية[١] التي تُعرف باسم فريديجار Fradegar ومؤلفها لاتيني مجهول, يُرجح أنه برجندي. وقد كتب حوليته سنة ٦٥٨م / ٣٧ – ٣٨ هـ, أي بعد سبع عشرة سنة من وفاة هرقل, وهي أقرب المصادر النصرانية التي تحدثت عن النبوءة إلى عهد هرقل, وهي أيضاً أول حولية لاتينية تتحدث عن الفتوحات الإسلامية. وقد افتتح المؤلف حديثه عن الفتوحات الإسلامية بقوله : (إن الامبراطور هرقل – الذي يكتبه بهذا الشكل Aeraglius emperatur - اكتشف خلال ممارسته لعلم التنجيم أن امبراطوريته سوف تؤول إلى الخراب بواسطة أجناس يختتنون. وبسبب ذلك طلب هرقل من الملك الفرنجي أن يُعمّد (يُنصر) جميع اليهود في مملكته , وبعث أوامر مشابهة في كل أنحاء امبراطوريته. والتي سرعان ما غزيت من جانب شعب آخر يختتن, وهم المسلمون)[٢]. ثم تواصل الحولية الحديث باختصار عن انتصار المسلمين على جيوش هرقل, وفتح بيت المقدس ومصر, والمنطقة الرومانية في شمال أفريقية, والجزية التي صار على حفيد هرقل قنسطانز الثاني أن يدفعها للمسلمين. وهكذا كان اقتناع هرقل بهذه النبوءة حاسماً في اتخاذه ذلك الموقف تجاه دعوة الإسلام, لذلك عندما استجوب أبا سفيان قال له – كما ذكرنا آنفاً – فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. ذلك أن هرقل أدرك حينذاك أنه ليس في مقدوره الوقوف أمام قدر الله المكتوب وهو زوال امبراطوريته على يد أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

رابعاً : الهزيمة المعنوية والنفسية الكاملة التي أصابت هرقل عندما قرأ رسالة النبي صلى الله عليه وسلم مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم (نُصِرتُ بالرعب بين يدي مسيرة شهر)[٣]. فقد أشارت بعض التفاصيل التي وردت في كتب الحديث الأخرى إلى الرعب والكرب الذي أصاب هرقل بسبب رسالة النبي صلى الله عليه وسلم, فقد ذكرت تلك الروايات أن أبا سفيان قال في قصة خبره مع هرقل : (وحضرته يتحادر جبينه عرقاً من كرب الصحيفة التي كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم)[٤]. فلم يعد في مقدور هرقل سوى اتخاذ موقفه الذي اتخذه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) نسبة إلى ميروفنج, وهو أحد أسلاف مؤسس دولة الفرنجة كلوفس. وهذه الأسرة الأولى حكمت دولة الفرنجة ثم جاءت بعدها أسرة شارلمان التي عُرِفت بالأسرة الكارولنجية.

(118) Fredegoriu: Chronicon, ed. B. Krusch, 1888 (Scriptores Merovingicarum), vol. II, pp. 153-154, 162 ; Mabillon, J: Annales Ordins S. Benedicti, I, Paris. 1703. Book XI, par. 39, p. 323 ; Moshe Gil: op. cit. p. 9.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي, كتاب المساجد ومواضع الصلاة, ج٥, ص ٣–٤.

(٤) الهيثمي: مجمع الزوائد, ج٥, ص ٣٠٧. وقال عنه : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

أضواء على بعض المواقع المهمشة في الساحل الشمالى[*]

أ.د. محمد السيد عبد الغنى
أستاذ التاريخ والحضارة اليونانية والرومانية
كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

المصرى في كتابات الجغرافيين الكلاسيكيين وأضواء على المجهول... حدود وشهود

أود في هذا البحث أن أسلط الضوء – كما يتضح من عنوان الورقة- على بعض مناطق الساحل الشمالى المصرى التى لم تلق حظًا وافرًا من اهتمام الباحثين القدماء والمحدثين لقد استأثرت الاسكندرية منذ أن أقامها الإسكندر الأكبر المقدونى عام ٣٣١ق.م- بتخطيط مهندسه جدينو كرايتس وتنفيذ ومتابعة وتمويل كليومينيس النقراطيسي- بنصيب الأسد من اهتمام الجغرافيين والكتاب الذين تحدثوا عن مصر عمومًا- بصفتها العاصمة الإغريقية الجديدة-، وعن الساحل الشمالى لمصر خصوصًا- بصفتها من أهم موانئ البحر المتوسط ومن أكثر حواضره إزدهارًا وثروة وعلمًا واستنارة.

وسأركز بحثى في محورين أساسيين هما:

الأول: تحديد امتداد الساحل المصرى على البحر المتوسط وحدوده من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، وما يستتبعه من امتداد للحدود المصرية غربًا وشرقًا في أرجاء مصر غرب وشرق وادى النيل ودلتاه وامتدادها نحو الجنوب بما يوازى خط عرض أقصى حدود مصر الجنوبية عند أسوان واليفانتين.

الثانى: إلقاء مزيد من الضوء- قدر المستطاع والمتاح من كتابات الجغرافيين والرحالة الكلاسكيين- على بعض مناطق الساحل الواقعة بين أقصى نقطتين له غربًا وشرقًا والتى لم تحظ باهتمام كبير من قبل.

الآنس أدخل مباشرة في المحور الأول للدراسة واقتبس فقرة مهمة من استرابون (حوالى ٦٣ ق.م- حوالى ٢٤م) تسهم في تحديد القضية التى أود تناولها وحسمها قدر المستطاع، إذ يرد في هذه الفقرة ما يلى:

"إن الكتاب القدماء قد أطلقوا اسم مصر على ذلك الجزء المسكون من البلاد الذى يرتوى من النيل دون سواه والذى يبدأ من النقطة المحيطة بـ "سيتى" (أسوان) و(تمتد) حتى البحر (المتوسط). لكن الكتاب اللاحقين حتى وقتنا الحالي (عصر سترابون) أضافوا إليها من جهة الشرق كافة المناطق الواقعة بين الخليج العربى (البحر الأحمر الحالى) والنيل تقريبًا، كما أضافوا من جهة الغرب المناطق الممتدة حتى الواحات، وعلى الساحل (الغربى) المناطق الممتدة من المصب الكانوبى حتى كاتاباثموس (السلوم)[1]...."

من هذه الفقرة المحورية يتضح أن النظرة إلى حدود مصر قد اختلفت –زمنيا- بين الكتاب والجغرافيين الكلاسيكيين: فالرعيل الأول القديم من هؤلاء الكتاب- ربما لقصور معرفته ودرايتهم- اعتبروا مصر قاصرة على وادى النيل ودلتاه من أسوان حتى البحر المتوسط. أما من أتى بعدهم- ومع ازدياد المعارف والعلوم- فقد تبنوا تحديدا جديدًا أدق لتلك الحدود، وترسخ هذا التحديد بمرور الوقت بحيث صار حقيقة جغرافية معلومة انقطع حولها الجدل أيام سترابون ومن قبله كما سنرى. وبمقتضى هذا التحديد صار معلومًا أن الصحراء الشرقية والمسماة "العربية" بحكم قربها الجغرافي من بلاد العرب ومن "الخليج العربى" وهو الاسم القديم للبحر الأحمر الحالى) والصحراء الغربية (المسماه "بالليبية" لقربها الجغرافى من الصحراء الأفريقية الكبرى والمعروفة باسم "ليبيا"، وهو الاسم الذى أطلقه الإغريق على الجزء الذى يعرفونه من القارة الأفريقية الحالية) هي أجزاء لا تتجزأ من حدود مصر، وأن الساحل الشمالى لمصر يبدأ – من جهة الغرب- من عند هضبة السلوم.

وقد تبنى استرابون بمنتهى الوضوح والثقة ذلك التحديد الأخير للجغرافيين اللاحقين واعتبر

(*) بحث ألقى في ندوة للجنة الآثار بالمجلس الأعلى للثقافة تعقد فى ٢٠ -٢١ مارس ٢٠٠٧ بعنوان " الآثار الغارقة ومستقبلها" ولم يسبق نشرف فى أية مجلة أو مؤتمر.

كون الساحل الشمالى لمصر- من ناحية الغرب- يبدأ عند كاتاباثموس (السلوم) أمر بديهيا أقره في أكثر من موضع. ففى أحد المواضع يتحدث عن المميزات الطبيعية لمصر فيقرر بأنه:

"يمكن للمرء أن يدرك هذه المميزات الطبيعية (لمصر) بصورة أوضح إذا ما طاف بأرجاء البلاد ليزور في أول الأمر الساحل الذى يبدأ من كاتاباثموس- إذ أن مصر تمتد حتى ذلك المكان- أما البلاد الواقعة وراءها فهى قوريتانية وما يجاورها من مناطق البرابرة المرمديين"[٤].

ثم يستطرد في الفقرة التالية ليذكر مناطق الساحل الشمالى الغربى لمصر من كاتاباثموس وما يليها من مناطق ومدن مصرية إلى الشرق حتى بحيرة ماريا (مربوط) وشواطئها ومزارع الكروم حولها وما تضمه من مناطق آهلة بالسكان تشتهر بالنبيذ المربوطى في المنطقة الواقعة إلى الغرب من الإسكندرية مباشرة[٣]؛ وهى مناطق ستعود إليها بقدر من التفصيل لاحقًا.

ومع ثبات هذه الحقائق لدى الجغرافيين الكلاسيكيين من قبل استرابون- كما يؤكد هو – فلا بأس من أن نتعرف على بعض الكتابات الكلاسيكية الأقدم والتى كانت تعبر عن التصور القديم للحدود المصرية في إطار وادى النيل ودلتاه. فها هو هيرودوت (والذى زار مصر حوالى منتصف القرن الخامس ق.م، وخصص للحديث عنها الكتاب الثانى من كتبه التسعة التى تشكل مؤلفه "التاريخ") يرى أن "مصر هى كل تلك الأرض التى يسكنها مصريون:

Αιγυπτον μεν πασαν ειναι ταυτην την υπ, Αιγυπτιων οικουμ
ενηγ[٤]

ثم ينطق إلى تحديد وتعريف أدق للـ "مصريين" بأنهم كل من ارتوى من مياه النيل وروى أرضه منها (اعتبارا من بداية حدودها الجنوبية عند اليقانتين). ويورد هيرودوت في هذا الصدد واقعة يؤكد بها هذه المقولة، وتتلخص تلك الرواية في أن سكان الصحراء الغربية القريبين من دلتا النيل من سكان مدن ماريا وأبيس أرسلوا مندوبين عنهم إلى معبد وحى الإله آمون في سيوة يشتكون من أن قواعد الديانة المصرية التى تحرم أكل لحوم الأبقار تطبق عليهم رغم أنهم ليسوا بمصريين- حسب اعتقادهم- بل ليبيون، ولكن كان رد وحى آمون أنهم يشربون من مياه النيل ويروون أرضهم منها، وأن كل من ينطبق عليه ذلك إلى الشمال من اليقانتين فهو مصرى[٥].

وفي نفس هذا السياق يشير هيرودوت إلى جغرافى ورحالة يدعى سكيلاكس من كارياندا قام حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. برحلة بحرية حول المحيط الهندى في عهد الملك الفارسى داريوس الأول[٦]. لكن هناك مخطوطًا مبتورًا عُرف باسم "الرحلة البحرية لسكيلاس" ظُن في أول الأمر أنه يخص سكيلاكس الذى جاء ذكره عند هيرودوت، ولكن ما تبقى من محتواه يدل على أنه لا يرجع إلى تاريخ أقدم من ٣٦٠ ق.م، ولكن المخطوطة المذكورة لا تعدو أن تكون ملخصا يضم بعض التعديلات والأمور المقحمة من القرن الثالث أو الرابع الميلادى من المخطوطة الأصلية بهذا الاسم والتى يرجع تاريخها- على الأرجح- إلى منتصف القرن الرابع ق.م. كما أسلفنا. ما يعنينا في هذا المقام من محتوى ذلك المخطوط أنه يصف – فيما بقى منه وفى صورة مرتبة- شواطئ أوروبا وآسيا وأفريقيا كما عرفها الإغريق، مع ملاحظة المسافات بين كل نقطة وأخرى على هذه السواحل. وما يهمنا بصورة أدق ذلك الجزء المتبقى من وصفه للساحل المصرى الشمالى الذى لا تذكر فيه الإسكندرية بالطبع- حيث وضع هذا المؤلف قبل إنشاءها- بل يذكر مدينة تُدعى تونيس كانت قائمة قرب مصب الفرع الكانوبى للنيل[٧]، سنتناولها تفصيليًا فيما بعد.

ويعتبر مؤلف "رحلة سكيلاكس البحرية" كلا من كانوب وفاروس جزرا مهجورة والفرع الكانوبى للنيل على أنه يمثل الحد الفاصل بين مصر وليبيا. ويقدر المسافة بين المصب البيلوزى والكانوبى بألف وثلاثمائة ستاديون مثل ديودور وسترابون فيما بعد[٨]. ولكن على الرغم من أنه اعتبر الفرع الكانوبى حدًا بين مصر وليبيا، إلا أنه في وصفه للمناطق الواقعة إلى الغرب من كانوب على الساحل الليبى- من وجهة نظره- أقر بأن الحكم والإدارة المصرية قد امتدت إلى بارايتونيوم (مرسى مطروح) وأبيس (زاوية أم الرخم) إلى الغرب منها مباشرة.

إذا نظرنا إلى شهادة هيرودوت ومن بعده سكيلاكس حول هذا الموضوع لوجدنا أن الأول قد زار مصر في ظل الاحتلال الفارسى لمصر حوالى منتصف القرن الخامس. وربما "كانت هذه هى نظرة الإدارة الفارسية لحدود مصر بحيث تستفيد من بحرياتها وأرضها التى يرويها النيل دون سواها من صحارى. أما الثانى وهو مؤلف رحلة سكيلاكس البحرية فقد كتب مخطوطته الأصلية بعد ذلك بنحو قرن حوالى منتصف القرن الرابع ق.م. وهو القرن الذى شهدت مصر منذ بداياته استقلالا متذبذبا عن الحكم الفارسى استمر حتى عام ٣٤٣ حين أعاد الملك الفارسى أوتاكسركيس الثالث (أوخوس) احتلال مصر واضطهد أهلها وعقائدها. معنى ذلك أن مؤلف "رحلة سيكلاكس" قد كتب

عن حدود أو سواحل مصر في النصف الثاني من فترة الاستقلال عن الحكم الفارسي في عهد تاخوس أو بكتانيبو الثاني (من ملوك الأسرة الثلاثين) وهي فترة تميزت بالهدوء النسبي في عهد آخر ملوكها تكتانيبو الثاني (٣٥٩-٣٤٣) كما شهدت نهضة إلى حد ما[١٠]. ربما في أجواء هذه النهضة وفي فترة الاستقلال مدّ حكام مصر نفوذهم من جديد جهة الغرب إلى ما بعد بارايتونيوم كما يخبرنا سكيلاكس.

ثم نأتي على مرحلة خضوع مصر لحكم الإسكندر الأكبر ومن بعده البطالمة ثم الرومان (٣٢٢ق.م-٦٤١م) لنرى كيف كانت حدود الساحل الشمالي لمصر على وجه الخصوص وبقية حدودها على وجه العموم بعد أن فتح الإسكندر الأكبر مصر ولوج فرعونا في معبد الإله بتاح في منف ثم قرر تأسيس مدينة الإسكندرية في موقع قرية راقودة وجزيرة فاروس المقابلة لها واصل رحلته غربا إلى بارايتوثيوم (مرسي مطروح) والتقى هناك وفدًا من إغريق قورينة ثم اتجه جنوبا في قلب الصحراء إلى معبد وحي الإله آمون في واحة سيوه. كل هذا دون أن يشار في المصادر القديمة أن الإسكندر قد تجاوز حدود مصر واتجه نحو ليبيا. بمعنى أن كل الرحلة كانت داخل الحدود المصرية، وأن سفراء قوريتانية قد وفدوا إليه في بارايتونيوم وأهدوه بضع مئات من الخيول الممتازة دليلاً على خضوع بلادهم له[١١]. كما أن الإسكندر – بعد انتهاء زيارته تلك لسيوه وعودته إلى منف استعدادًا لاستكمال حملته ضد الفرس شرقا- تفرغ بعض الوقت لإعادة نظام الإدارة والحكم في مصر على أسس جديدة. ومن بين هذه الأسس أنه أقام مقاطعتين في الصحراء الشرقية والصحراء الغربية على جانبي النيل، وأسند إدارة الأولى- واسمها المقاطعة العربية إلى كليومينيس التقراطيسي، والثانية – واسمها المقاطعة الليبية- إلى أبوللونيوس بن خاريتوس[١٢]. ولعل هذه المقاطعة المصرية- المسماه بـ "الليبية" – قد امتدت حدودها على ساحل البحر المتوسط شمالاً حتى كاتاباثموس (السلوم) كحد غربى متاخم لليبيا (قوريتانية).

من هنا ربما جاز القول بأن الكُتاب اللاحقين الذين أشار إليهم استرابون – والذين أقروا حدود مصر متضمنة الصحراء الشرقية (الغربية) والغربية (الليبية)، وأشاروا إلى أن حدودها على الساحل الشمالي تبدأ من كاتاباثموس غربا- بدأوا في التعبير عن هذه الحقيقة بجلاء بعد فتوحات الإسكندر ثم خلفائه في مصر من البطالمة. وعلى مدى تلك الفترة البطلمية ثم الرومانية أصبح الحديث عن المقاطعة العربية والمقاطعة الليبية كمقاطعات إدارية مصرية أمرا شائعا ومألوفا في كتابات المؤرخين والجغرافيين والأدباء والوثائق بأنواعها من بردية ونقشية وغيرها.

تعود الآن مرة أخرى إلى كتابات الجغرافيين الكلاسيكيين من هذه الفترة اليونانية الرومانية الذين أشاروا إلى الساحل الشمالي المصرى، فها هو ديودور الصقلي مثلا – الذى زار مصر حوالى منتصف القرن الأول ق.م في عهد الملك بطلميوس الثاني عشر (الزمار) (٨٠-٥١ق.م)- يتحدث عن المتعة والحماية الطبيعية التى تتمتع بها مصر من كل جانب من جوانبها الأربعة، فضلاً عن جمال مناظرها الطبيعية[١٣]. وبعد أن يتحدث عن تلك المميزات الطبيعية من جهات الغرب والجنوب والشرق يتحدث عن الساحل الشمالي لمصر ليقول:

"الآن وقد عرضنا الحقائق بشأن المناطق الثلاثة التى تحصن مصر من البر نضيف إليها المنطقة الرابعة.. إن الامتداد على مدى ذلك الجانب الرابع تحف به كله تقريبًا مياه بحر بغير مرافئ ويحميه البحر المصرى الذى تمتد الرحلة على سواحله امتدادًا كبيرًا جدًا والرسو على أرضه أمر في غاية الصعوبة. فمن بارايتونيوم التابعة للمقاطعة الليبية إلى يافا في سوريا الحالية وهى رحلة مسافتها نحو خمسة آلاف ستاديون لا يمكنك العثور على مرفا آمن سوى ميناء فاروس"[١٤].

يتحدث ديودور هنا بوضوح عن الساحل الشمالي المصرى الهائل الامتداد فيما يُسمى بـ "البحر المصرى"، وهو الجزء المقابل للشواطئ المصرية المطلة على البحر المتوسط.

Προβεβληται το Αιγυπτιον πελαγος, ο τον μεν

παραπλουν εχει μακροτατον,

وهو حين يذكر بارايتونيوم هنا لا يذكرها كأول نطقة من جهة الغرب على الساحل المصرى بل كأول مدينة مهمة على ذلك الساحل إلى الغرب من الإسكندرية، وحين يقول "باريتاونيوم التابعة لـ "ليبيا" فإنما يقصد التابعة للمقاطعة المصرية المسماه بالمقاطعة الليبية...

.απο γαρ Παραιτονιου της Λιβυης

أما ميناء فاروس هنا فالأرجح أنه يقصد به مينائى الإسكندرية الشرقى (الكبير) والغربى (العود الحميد) واللذين تسببت جزيرة فاروس- بعد توصيلها بالبر بجسر الهيبتاستاديون- في قيامهما.

ومن القرن الأول الميلادى نجد اثنين من المؤلفات اللاتينية التى تناولت الموضوع، وهما بوميوتيوس ميلا وبلينى الأكبر. الأول وهو "بومبوثيوس ميلا" ولد في مقاطعة بايتكا في جنوب أسبانيا وكتب مؤلفه الجغرافى المسمى De situ orbis, Chorographia فى أوائل عصر الإمبراطور كلاوديوس حوالى عام ٤٤/٤٣م، ربما احتفالاً بفتح بريطانيا[١٥]. وفيه تناول فى وصف منهجي – فى ثلاثة كتب- وصف الكرة الأرضية كما كانت معروفة فى عصره فى القارات الثلاثة للعالم القديم أوروبا وآسيا وأفريقيا. وقد خصص الفصل التاسع من كتابه الأول للحديث عن مصر التى اعتبرها جزءًا من قارة آسيا وتمتد من كاتاباثموس (السلوم) غربًا حتى بيلوزيوم (تل القرما/ بالوظة شرق بورسعيد) شرقًا (على امتداد الساحل الشمالى) ومن البحر المتوسط شمالا حتى اليقانتين جنوباً.

أما المؤلف الثانى فهو الكاتب الشهير "بلينى الأكبر" فى مؤلفه "التاريخ الطبيعى". وحين يتحدث بلينى عن مصر فهو يضع فى اعتباره فقط ذلك الجزء المأهول بالسكان منها incolitur Aegyptus الممتد فى الجنوب حتى أسوان (سيينى) الذى يبدأ النيل فى دخول الحدود المصرية من عندها[١٦].أما عن شمال مصر فهو يعتبر الدلتا المصرية بحدبها الشرقى والغربى (القرعين البيلوزى والكاتوبى) منطقة فاصلة بين قارتى آسيا وأفريقيا إذ يفصلها الفرع البيلوزى عن قارة آسيا والقرع الكانوبى عن قارة أفريقيا. ويفصل بين مصبى النيل هذين مسافة ١٧٠ ميلا رومانيا[١٧]. وهكذا يصور بلينى "مصر المأهولة"- ولاسيما الدلتا- منطقة عازلة أو فاصلة بين قارتي آسيا وأفريقيا ولا تنتمى لأى منها! وهو تصور جد غريب! ومن المؤكد أن بلينى لم يشأ العودة للتصور القديم للحدد المصرية لدى الكتاب الكلاسيكيين (قبل فتوحات الإسكندر) وهو مفهوم كان قد عفا عليه الزمن واندثر قبل فترة طويلة، وإنما أراد التأكيد على المناطق المأهولة بالسكان من البلاد قبل غيرها. والدليل على ذلك أنه لم يجعل بقية أرجاء مصر فى الصحارى الغربية والشرقية تنتمى إلى بلد آخر وإنما قسمها تقسيمًا قاريا بحيث تنتمى المناطق الواقعة إلى الغرب من النوع الكانوبى ووادى النيل لقارة أفريقيا وتلك الواقعة إلى الشرق من الفرع البيلوزى وشرق الوادى لقارة آسيا، مع استثناء أنه اعتبر المنطقة الواقعة من بحيرة البردويل (Sirbonian Lake) وإلى الشرق حتى "رينوكوثورا" (العريش) و"راقيا" (رفح) ضمن حدود الإيدوميين[١٨]. مخالفًا بذلك ما استقر عليه الرأى فى بقية المصادر الأدق كما رأينا وكما سنرى.

ولكن بلينى أورد – باستثناء ذلك- كافة المناطق المصرية على الساحل الشمالى وغيره من مناطق الصحراء الغربية والليبية (كما جرى العرف على تسمية تلك المناطق الحدودية المصرية)، وذكر أول تلك الحدود الساحلية من جهة الغرب من كاتاباثموس[١٩] إلى بيلوزيوم حتى بداية بحيرة البردويل[٢٠].

أما الجغرافى الأشهر فى العالم القديم كلاوديوس بطلميوس الإسكندرى (حوالى ٩٠ إلى حوالى ١٦٨م)، فقد ضمَّن الفصل الخامس من كتابه الرابع من مؤلفه "الجغرافيا" المناطق الساحلية الواقعة على "البحر المصرى" من ما قبل حدود مصر جهة الغرب فيما يسمى بالمقاطعة المرمريدية[٢١]- التى ورد ذكرها عند استرابون (حاشية ٢) أعلاه على أنها تقع خارج حدود مصر وراء السلوم ومجاورة لقورينائية- ثم منذ بداية المقاطعة المصرية المسماة الليبية (الصحراء الغربية) ويحددها على الساحل بميناء يقع إلى الغرب من السلوم مباشرة ويسمى "ميناء بانوروموس" وبعده مباشرة تأتى كاتاباثموس (السلوم) [٢٢]، ثم يستمر فى تحديد المواقع والمدن على الساحل المصرى (من الغرب إلى الشرق) بخطوط الطول ودوائر العرض حتى يصل إلى ما بعد رينو كولورا (العريش) فى أقصى الساحل الشمالى الشرقى لسيناء[٢٣] وبداية حدود منطقة اليهودية إلى الشرق منها.

ومن القرن الثالث الميلادى هناك دليل ملاحي عن اتجاهات الملاحة على سواحل البحر المتوسط كتبه باليونانية مؤلف مجهول، وقد عُرف هذا الدليل الملاحى باسم Stradiasmus of the Great Sea والأجزاء المتبقية من هذا المؤلف وصلتنا من خلال شذرات متبقية من نسخة مخطوطة من هذا العمل يعود تاريخها إلى القرن العاشر الميلادى ومحفوظة فى المكتبة الملكية بمدريد. وقد قـــام C. Muller بنشر هذه الشذرات وترجمتها إلى اللاتينية وعلق عليها تعليقا قيما باللاتينية كذلك، ثم قام الأمير يوسف كمال بترجمتها إلى الفرنسية[٢٤]. هذه الأجزاء المتبقية من ذلك المخطوط تقدم وصفا تفصيليا للساحل الشمالى المصرى من الإسكندرية حتى كاتاباثموس (السلوم) غربًا، دون أن يورد المناطق الواقعة إلى الشرق من الإسكندرية، وفى هذه الإجزاء يحدد المؤلف المسافات بين الأماكن والمواقع على امتداد هذا الساحل[٢٥].

ومن أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع (من عهد الإمبراطور دقلديانوس ٢٨٥-٣٠٥م) هناك ما يسمى بـ "دليل السفر الأنطونينى" أو Itinerartium Provinciarum Anotonini Augusti والذى

كان على الأرجح مؤلفا شخصيا وضع كدليل رحات للرحالة والمسافرين فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية. ويتضمن هذا الدليل – ضمن مواده المتنوعة- الطرق الرومانية فى مصر والمواقع والأماكن الموجودة عليها والتى يصل عددها إلى ١٠٣ موقعًا تغطى مساحة قدرها ٢٥٠٠ ميل رومانى (٣٧٠٠ كيلومتر). وفى هذا الدليل ترد المسافات والمواقع على الساحل الشمالى الغربى لمصر من كاتاثموس (السلوم) حتى كابورتيس" (الضبعة) ويصل مجموع المسافات بين المواقع المذكورة عليه إلى ٢١٠ ميلا رومانيا، وكذلك لمسافات والمواقع من الساحل الشمالى الشرقى (فى شبه جزيرة سيناء) من الشرق إلى الغرب من رفح إلى بيلوريوم ويصل مجموع المسافات بين مواقعه إلى ١١٢ ميلا رومانيا[٢٦].

وهكذا يدرك بوضوح – من مُجمل كتابات الجغرافيين والرحالة والمؤرخين الذين تناولوا الحديث عن مصر وحدودها بعد فتوحات الإسكندر ثم تحت البطالمة ثم الرومان – أن الساحل الشمالى لمصر على البحر المتوسط كان يحده ما يسمى "البحر المصرى" وذلك الجزء من البحر المتوسط المقابل للسواحل المصرية، أو بالأحرى – إن جاز ذلك التعبير الحديث- "المياه الإقليمية المصرية" والذى جاء ذكره كما رأينا عند ديودور الصقلى وبطلميوس الجغرافى بل وقبلهما هيرودوت من القرن الخامس ق.م ١١,١١٣) وكانت أول نقطة حدودية له من جهة الغرب كاتاباثموس (السلوم) وتعنى لغويا (المنحدر الشاهق)، وهو فى هذه الحالة الذى يفصل مصر عن ليبيا، أى "هضبة السلوم" الحالية.

هذا عن بداية الحدود المصرية من جهة الغرب على الساحل الشمالى لمصر المطل على البحر المتوسط، فماذا عن الساحل الشمالى الشرقى لمصر وبدايته من جهة الشرق، إن بوليبيوس يحدد لنا- فى سياق حيثه عن موقعة رفح عام ٢١٧ ق.م بين البطالمة والسيليوفيين فى الصراع المحتدم بينهما للسيطرة على جوف سوريا- بداية الحدود المصرية من جهة الشرق على البحر المتوسط حين يقول:

"....وعسكر (الملك بطليموس الرابع فيلوباتور) على مسافة خمسين ستاديون من رفح التى تقع بعد رينو كولورا (العريش)، وتعد أول مدن جوف سوريا من ناحية مصر"[٢٧].

هذه الإشارة صريحة الدلالة فى بيان أن "العريش" كانت تمثل آخر الحدود المصرية على الساحل الشمالى الشرقى لمصر المطل على البحر المتوسط وإن رفح الواقعة إلى الشرق منها تمثل أول مدن جوف سوريا.

ثم يورد ديودور الصقلى بعد ذلك فى "المكتبة التاريخية" تأصيلاً تاريخيًا لانتماء "رينوكولورا" (العريش) الأصيل للحدود المصرية منذ عصور أقدم فحين يتحدث عن الملك أماريس الثانى (أحمس الثانى) آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين (وإن كان ابنة ابسماتيك الثالث قد تولى الحكم لمدة واحد قبل غزو قمبيز لمصر عام ٥٢٥ ق.م) يتحدث عن مظامله وقسوته مع جموع المصريين المغلوبين على أمرهم وغروره وعجرفته معهم وقلة حيلتهم حيال أفعاله. ولكن واتتهم الفرصة للتمرد على مليكهم الظالم حين قاد أكتيانيس – ملك الإثيوبيين- جيشًا ضد أمازيس ثار عليه معظمهم مما جعل الملك الإثيوبى يتغلب عليه بسهولة ويخضع مصر لحكمه. وقد أبدى اكتياليس – حسب قول ديودور- عدلاً وحكمة فى التعامل مع المصريين، ولكنه لم يشأ أن يفلت اللصوص بجرمهم كما لم يشأ أن يعدمهم. فبعد أن جمع كافة المتهمين بهذه الجريمة من كل أرجاء البلاد وأجرى محاكمة عادلة لكافة الحالات "أخذ كافة المدنيين من بينهم وجدع أنوفهم ووطنهم فى مستوطنة على حافة الصحراء، وأقام هناك مدينة أطلق عليها "وينوكولورا" والمجدوعة الأنف) بما يتفق ومصير سكانها، وتقع هذه المدينة على الحدود بين مصر وسوريا على مقربة من شاطئ البحر"[٢٨].

ويشير استرابون – فى إنجاز- إلى نفس تلك القصة التى رواها ديودور الصقلى عن "وينوكولورا" وأصل تسميتها وما فعله الملك الأثيوبى الذى غزا مصر مع المجرمين المدنيين من جدع أنوفهم وتوطنيهم فى تلك البقعة التى اكتسبت اسمها من مصيرهم[١٩]. كما ورد ذكر "رينوكولورا على أنها تمثل أقصى حدود مصر الشرقية على ساحل البحر المتوسط عند كل من بطلميوس الجغرافى الإسكندرى الأشهر (حاشية ٢٣) وكذلك فى "الدليل الانطونينى للمسافرين" كما ورد أعلاه (حاشية ٢٦)، وبذلك تكون هذه المعلومات مؤكدة وثابتة فى مصادرنا القديمة.

أخيرا وليس آخرا على مستوى هذا المحور من الدراسة فإن التصور الأقدم للحدود المصرية – من جانب بعض الكتاب والمؤرخين واقتصارها على وادى النيل والدلتا ربما أمكن تبريره ببعض العوامل الظاهرية. من هذه العوامل مثلا أن المناطق الحدودية البعيدة عن مراكز الحكم والإدارة والعمران على امتداد هذه الصحارى الشاسعة – فى دولة مركزية مثل مصر القديمة – ربما لم

تخضع بصورة قوية للسلطات المركزية وكانت متقلبة فى ولاءها، لاسيما في ظروف الاحتلال الفارسى لمصر وما صاحبه من تقلبات سياسية. كما أن التباين الواضح فى السلوك والعادات والتقاليد والعقائد بين البدو من سكان الصحارى من جهة والحضر من سكان الوادى والدلتا من جهة أخرى ربما أوحى للزائر الأجنبى بأن هذه العناصر لا تشكل منظومة دولة واحدة، بل ربما أوحى هؤلاء البدو أنفسهم أنهم ليسوا بمصريين كما أورد هيرودوت. إن هذا التباين الثقافى فى العادات والتقاليد بين البدو والحضر في أرجاء مصر لا يزال يتردد صداه من حين لآخر فى مصر حتى وقتنا هذا – خصوصا بين بدو وأعراب الصحراء الشرقية والغربية – وإن كان هذا كله لا يمنع أنهم جميعا مصريون فى داخل حدود مصر التاريخية قديما وحديثا.

والآن لندلف إلى المحور الثاني من الدراسة لنحاول إلقاء مزيد من الضوء- وإن كان قليلا- على بعض المواقع على الساحل الشمالى المصرى على البحر المتوسط فى ضوء ما أورده بعض الجغرافيين والمؤرخين الكلاسيكيين بعد ثبات ورسوخ نظرية حدود مصر الأشمل والأوسع من كاتاباثموس (السلوم) غربا حتى ريو كولورا (العريش) شرقًا. إن أبرز من تناول هذه المواقع بالذكر استرابون من بداية الحكم الرومانى لمصر ثم كلاوديوس بطلميوس من القرن الثاني الميلادى، لذلك سنعول عليهما ونحاول تفسير بعض ما ورد لديهما، ولا سيما على استرابون الذى أورد بعض التعليقات، فى حين اقتصر بطليموس الجغرافي على ذكر المواقع محدودة بخطوط الطول ودوائر العرض، وهو إنجاز كبير فى حد ذاته فى هذه الفترة المبكرة وبهذه الدرجة العالية من الدقة.

ومن أبرز الملاحظات والأضواء على تلك المواقع على الساحل الشمالى المصرى عند الكاتبين ما يلى:

- يبدأ استرابون في ذكر هذه المواقع مرتبة من الغرب إلى الشرق ابتداءًا من كاتاباثموس (17.1.14) ويذكر بعد كاتاباثموس المناطق والمواقع القائمة بينها وبين بارايتونيوم (مرسى مطروح)، وأول موقع يذكره بعد كاتاباثموس منطقة أوردها باسم "قرية المصريين"

واسم هذا الموقع فى هذا المكان لا يخلو من دلالة هامة، وهي – في تقديرى- إن الإدارة المصرية ربما أرادت إضفاء مزيد من المسحة المصرية على تلك المنطقة التالية من الحدود المصرية مع المناطق الليبية فاقامت مستوطنة من المصريين الخلص من أهل الوادى والدلتا فى ذلك المكان لتثبيت الحق المصرى في هذه الحدود واكسابها نمط الحياة المصرى. ويرى البعض أن هذه القرية تمثل تذكارا لإقامة مستوطنة مصرية قرب المناطق الليبية وأن تاريخ إقامة تلك المستوطنة يعود إلى العصر الفرعوني وأنها تحتفظ بلمحات وبقايا أنثروبولوجية وأثرية لهذا الأصل القديم. (٣٠). ولكن هذه المنطقة أو القرية لا يرد ذكرها بطلميوس الجغرافى- بعد قرابة قرنين من استرابون- في تحديده لمواقع تلك المنطقة، ربما كان الأمر لا يستحق الذكر من وجهة نظره بعد أن ثبتت معالم تلك الحدود وصارت أمرا بديهيا. أو ربما أدت هذه المستوطنة دورها واصبحت رمزا من الماضى البعيد وأصحبت أثرا بعد عين.

- حين ذكر استرابون "بارايتونيوم" (مرسى مطروح) أعطاها كذلك اسما آخر هو "أمونيا" فقال: "وهى مدينة ومرفا كبير يبلغ (محيطها) نحو أربعين ستاديون، ويطلق البعض على هذه المدينة اسم "بارايتونيوم"، فى حين يسميها البعض الآخر "آمونيا":

πολις δ ετι και λιμην τετταρακοντα που σταδιων. καλουσι

δ οι μεν Παραιτονιον την πολιν, οι δ Αμμωνιαν .

أتصور أن البعض الذى كان يسميها "بارايتونيوم" هم إغريق مصر في العصر البطلمى، أما من سموها "آمونيا" فهم بلا ريب المصريون. فمن المرجح أن وحى الإله آمون فى "سيوة" إلى الجنوب قد ترك بصمته جلية على المنطقة الغربية بأسرها وحتى ساحل البحر، ومن هنا جاء الاسم الآخر للمدينة(٣١). لقد أراد المصريون تعظيم الههم الأكبر آمون فأطلقوا اسمه على تلك المدينة الكبيرة والرئيسية على الساحل الشمالى العربى المصرى. وكما يتضح من وصف سترابون ومن قبله ديودور الصقلى (حاشية ١٤ أعلاه) فقد كانت "بارايتونيوم" أو "آمونيا" وميناءً عظيمًا فى تلك الفترة يبلغ محيطها نحو خمسة أميال رومانية، وهي بلاشك مساحة كبيرة فى تلك المنطقة الصحراوية فى الزمن القديم، ومرة أخرى لاتجد عند بطلميوس الجغرافى ذلك المسمى المصرى لـ "بارايتونيوم"، ويبدو أنه كان حريصا على ذكر الأسماء الرسمية الإغريقية دون سواها، أو ربما كان هذا هو توجه الإدارة الرومانية لمصر والتزم به الكاتب.

– وعلى امتداد الساحل من "بارايتونيوم" إلى الإسكندرية- والتى يقدرها استرابون بألف وثلاثمائة ستاديون – يحدد بعض المواقع الهامة على هذا الساحل مثل "ليوكى اكتى" ومعناها "القمة البيضاء" (رأس الحكمة)، ويذكر من بعدها عدة مواقع ذات مرافئ صغيرة مثل "فوينيكوس" وجزيرة بيدونيا التى تضم مرفأ كذلك. ويذكر أن هذه المنطقة إلى الشرق من "رأس الحكمة" لا تنتج نبيذًا جيدًا لأن جرار النبيذ فيها تحتوى على مياه بحر أكثر من النبيذ ويطلق على نبيذها النبيذ الليبى الذى هو أقرب للجعة ويحتسيه معظم الإسكندريين، ولكن نبيذ منطقة انتيفراى (ربما فى مارينا العلمين الحالية على الأرجح) هو النبيذ الأكثر عرضة للسخرية والتهكم. ثم يأتى بعد ذلك – فى وصف سترابون٠- موانئ أخرى صغيرة مثل "ديريس" (رأس جيسة) ورزفيريون (الضبعة) وليوكاسبيس "أى الدرع الأبيض" (مرسى الحمرا) [٣٣].

وهكذا نتعرف فى هذه المنطقة على عدد من الموانئ الصغيرة من "رأس الحكمة" إلى "الحمام" تقريبا، وعلى النبيذ الردئ الذى تنتجه ويُعب منه كثير من الإسكندريين، ولكن لعل هذه لمحة تهكم على الإسكندريين من جانب استرابون نظرا لأن الإمبراطور أغسطس كان خناق عليهم واسترابون صديق للوالى الرومانى ويعبر – بصورة غير مباشرة- عن الميول والسياسة الرومانية فى ولاية مصر الرومانية. هل يلمح استرابون بذلك إلى أن النبيذ الردئ الذى كانوا يتعاطونه كان أحد أسباب جنوح الإسكندريين واستفزازهم للحكام الرومان وتصويرهم (أى الإسكندريين) فى صورة المشاغبين المتمردين"[٣٣].

ويتفق بطلميوس الإسكندرى فى تحديد معظم المواقع مع استرابون بمسمياتها الواردة عند الأخير، ويذكر بعض المواقع بأسماء مختلفة ربما تغيرت عبر الفترة الزمنية الفاصلة بين الكاتبين.

ثم يورد استرابون بعد ذلك تابوزيريس (أبو صير)- والغريب أن لا يرد ذكرها عند بطلميوس الجغرافى فى سياق تحديده لمواقع المنطقة- التى لا تقع على البحر مباشرة ويقول عنها استرابون أنها تستقبل احتفالية كبرى، ثم يستطرد قائلا أنه بالقرب منها هناك منطقة صخرية على البحر يحتشد فيها شباب فى ربيع العمر فى كافة فصول السنة[٣٤]. هل الاحتفال الكبير الذى يشير إليه استرابون مرتبط بالإله المصرى أوزيريس الذى أعطى اسمه للمكان (إذ أن معنى الاسم بالمصرية يعنى معبد أوزيريس، وباليونانية مقبرة أو ضريح أوزيريس)، هذا فضلا عن وجود معبد بطلمى فى المكان لم يتبق منه سوى القليل من بقاياه. ثم هل يشير استرابون إل منتجع ترفيهى سياحى للشباب من الأثرياء الميسورين فى المنطقة الصخرية الساحلية القابلة لأبى صير الكبرى؟!

ومن بعد الإسكندرية جهة الشرق يتحدث استرابون عن كانوبوس (أبو قير) الواقعة على بعد مائة وعشرين ستاديون شرق الإسكندرية وأصل تسميتها باسم قائد سفينة مينيلاوس الذى توفى هناك. ويتحدث عن معبد سرابيس الكبير هناك الذى يحظى بكل توقير وتبجيل لشهرته في شفاء المرضى. كما يروى مظاهر الصخب والاحتفال من جانب المبحرين من الإسكندرية عبر القناة الممتدة من هناك إلى كانوب – مرورا باليوسيس (الخضرة) ثم شيديا ثم شمالا إلى كانوب – وخلال هذه الرحلة بالقوارب يرقصون ويصدحون بالموسيقى – رجالا ونساء- في مظاهر خليعة يشاركهم فيها أهل كالوب[٣٥]. هذا أمر عادى تعلمه عن كانوب أما مالا يعلمه كثيرون فهو أمر منطقة "هيراكليون" الواقعة إلى الشرق من كانوب وعند مصب الفرع الكانوبى للنيل حيث بداية الدلتا، وهذه المنطقة كانت تضم معبدا غيراكليس[٣٦]. ويشير في موضع آخر إلى أن الدلتا جزيرة محصورة بين فرعى النيل البيلوزى والكانوبى ما بين بيلوزيوم وهيراكليون[٣٧]. ويذكر ديودور الصقلى أن الفرع الكانوبى للنيل يطلق عليه من قبل البعض الفرع "الهيراكليتى"[٣٨]. بل أن بطليموس الجغرافى يسمى مصب ذلك الفرع بـ "المصب الهيراكليوتى" المسمى كذلك "المصب الكانوبى"[٣٩] (أى أنه قدم تسمية "الهيراكليوتى" على "الكانوبى".

وهكذا نرى أن الشائع والمألوف قد تغلب على الصحيح والدقيق فيما يتصل بتسمية هذا الفرع من النيل في أقصى الغرب وكذلك مصبه باسم "الكانوبى" في حين كان الأجدر والأصح تسميته باسم "الهيراكليوتى" نسبة إلى منطقة هيراكليون (الطابية الحمراء) [٤٠١]. المطلة على ذلك الفرع القديم.

وإذا كانت تسمية "الهيراكليونى" كانت لا تزال مستخدمة – جنبا إلى جنب- مع تسمية "الكانوبى" في أواخر العصر البطلمى (ديودور) وعلى مدى القرنين الأول والثانى الميلادى (استرابون ثم بطليموس الجغرافى) فإن التسمية الأقدم لنفس تلك المنطقة (هيراكليون) كانت تسمى "ثونيس" منذ فترة قديمة جدا قبل انشاء الإسكندرية.

وقد أورد هيرودوت ذكر هذه المنطقة بمسمياتها المعروفة في عهده، إذ ذكر- في سياق قصة

هروب هيلين مع باريس (الإسكندر) إلى طروادة ومرورها بالساحل المصرى- أن الرياح العتيقة قد دفعت بهما إلى "البحر المصرى" عند مصب النيل المعروف بالمصب الكانوبى، وأنه كان هناك عند الساحل معبد لهيراكليس وأن القائم على حراسة ذلك المصب كان يُدعى ثونيس[٤١].

وهكذا نرى المسميات الثلاث لذلك المصب: "الكانوبى" و"الهيراكليونى" ومنمطقة "ثونيس" وقد وردت بصورة أو بأخرى في نصر هيرودوت، ثم يأتى ديودور الصقلى ليخبرنا بأن "ثونيس" كانت في العصور القديمة الميناء التجارى لمصر حيث يفرغ النهر مياهه في البحر[٤٢]. لكن استرابون يروى أن ثونيس كانت مدينة قائمة عند مصب النهر وأنها تسمت باسم الملك الذى أكرم "قاده مينيلاوس وزوجته هيلين . ويشير في هذا المقام إلى بيت من الأوديسية لهوميروس جاء فيه أن بوليدامنا زوجة ثون قد أهدت هيلين بعض العقاقير الطبية[٤٣]. وهكذا أشار هيرودوت إلى ثونيس بصفته القائد الذى كان يتولى حراسة مصب النيل في ذلك المكان قرب كانوب وأنه أبلغ مليكه بروتيوس في منف بجرم باريس في اختطاف هيلين، بينما جاء عند استرابون على أنه الملك نفسه، على أية حال فإنه محاولات من جانب المؤرخين لتأصيل اسم ذلك المكان الذى كان معروفا بذلك الاسم في العصور القديمة.

عموما هذه محاولة متواضعة لإلقاء قدر من الضوء على بعض المواقع التى لم تحظ بها تستحق من اهتمام، لعلها تفيد.

حواشى البحث

(1) Strabo, Geography, 17.1.5 (790 - 91):

Οι μεν ουν αρχαιοι το οικουμενον αυτο και ποτιζομενον υπο του Νειλου μονον Αιγυπτον εκαλουν, απο των περι Συηνην τοπων αρξαμενοι μεχρι της θαλαττης. οι δ υστερον μεχρι νυν προσελαβον εκ μεν των προσ εω μερων τα μεταξυ του Αραβιου κολπου και του Νειλου σχεδον τι παντα (οι δ Αιθιοπες ου πανυ χρωνται τη Ερυθρα θαλαττη) εκ δε των εσπεριων τα μεχρι των Αυασεων και εν τη παραλια τα απο του Κανωβικου στοματος μεχρι Καταβαθμου και της Κυρηναιων επικρατειας.

(2) Ibid., 17.1.13 (798):

ετι δε μαλλον κατιδειν εστι την ευφυιαν ταυτην περιοδευοντι την χωραν, και πρωτον την παραλιαν αρξαμενην απο του Καταβαθμου. μεχρι δευρο γαρ εστιν η Αιγυπτος, η δ εξης εστι Κυρηναια και οι περιοικουντες βαρβαροι Μαρμαριδοι.

(3) Ibid., 17.1.14 (799).

(4) Herodotus, Historiae, 2.17.

(5) Ibid., 2.18:

ο δε θεος σφεας ουκ εα ποιεειν ταυτα, φας Αιγυπτον ειναι ταυτην την ο Νειλος επιων αρδει, και Αιγυπτιους ειναι τουτους οι ενερθε Ελεφαντινης πολοις οικεοντες απο του ποταμου τουτου πινουσι.

(6) Ibid., 4.44.

(7) John Ball, Egypt in the Classical Geographers, Cairo, 1942, pp

(8) Periplus of Scylax: Text, Latin translation and notes in C.Muller, Geographici Graeci Minores, vol.I, Paris, 1855, pp. 15 - 96 and XXIII - LI 106.

(9) Ibid., 107.

(١٠) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، مكتبة الأنجلو – القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٤ ، الجزء الأول ، ص ص ١٢ – ١٣ .

(11) Diodorus Siculus, 17.49.2; Quintus Curtius, 6.7.9.

إبراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(12) Arrianus, Anabasis, 3.5.

مصطفى العبادى ، العصر الهللينستى – مصر ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ص ٢١ – ٢٢ .

(13) Diodorus Siculus, 1.30.

(14) Ibid., 1.31. and the notes of the translator, C.H. Oldfather.

(15) The Oxford Classical Dictionary, 3rd edition 1996 by S. Hornblower and A. Spawforth, under (Pomponius Mela P. 1218), with the reference to the recent editions of the text; J. Ball, op. cit., p. 71.

(16) Plinius Maior , Historia Naturalis, 5.10. 59 :

Dicionis Aegyptiae esse incipit a fine Aethiopiae Syene.

(17) Ibid ., 5. 9. 48 :

Proxima Africae incolitur Aegyptus .....

Inferiorem eius partem Nilus dextera laevaque divisus amplexu suo determinat , Canopico ostio ab Africa , ab Asia Pelusiaco, CLXX passum intervallo.

(18) Ibid. , 5. 12. 13-15.

(19) Ibid ., 5.5. 32; 6.39.

(20) Ibid. , 5. 12. 68.

(21) Carolus Fridericus Augustus Nobbe, Claudii Ptolemaei Geographia, Lipsiae, 1881, IV.5.2.

2: απο δε αρκτων τω τε Αιγυπτιω πελαγει κατα περιγραφην της πα ραλιου τοιαυτην Μαρμαρικης νομου.

(22) Ibid., IV.5.4:

4: Νομου Λιβυης παραλιος.

πανορμος λιμην		νδγ	λα	
Καταβαθμος μεγας	νγ	λα	δ	

(23) Ibid., IV.5.12-13:

12. Κασσωτιδος

Κασσιον			ξγ		λαδ
Εκρηγμα Σιρβωνιδος	λιμνης ξγ	γ ιβ		λα	
Οστρακινη		ξδ		λα	γ
Ρινοκορουρα	ξδ		γο		λα γ
Ανθηδων	ξδ	γ		λα	γο

13. απο δε ανατολων της τε Ιουδαιας μερει τω απο

Ανθηδονος πολεως μεχρι περατος.

(24) C. Muller, GGM, vol.1, Paris, 1855, pp. 429-438; Prince Youssouf Kamal, Monumenta Cartographica Africae et Aegypti, vol.II, Part1, Leyden, 1928, PP. 188- 193; J. Ball, op. cit., p. 130.

(25) Ibid., pp. 130-133.

(26) Ibid., p. 138; the most generally accepted text of that Itinerary being that of O.Cuntz, Itineraria Romana, vol.I, Leipzig, 1929.

(27) Polybius, Historiae, 5.80.3:

..... ;Κατεστρατοπεδευσε πεντηκοντα σταδιους αποσχων Ραφιας, η κ
ειται μετα Ρινοκολουρα πρωτη των κατα

Κοιλην Συριαν πολεων ως προς την Αιγυπτον.

(28) Diodorus Siculus, I. 60. 1-6; 5-6 :

....., ηθροισεν απαντες τους καταδεδικασμενους,

αποτεμων δ αυτων τους μυκτηρας κατωκισεν εν τοις

εσχατοις της ερημου, κτισας πολιν την απο του

συμπτωματος των οικητορων Ρινοκολουρα

προσαγορευθεισαν.

Αυτη δε κειμενη προς τοις μεθοριοις της Αιγυπτου και

Συριας ου μακραν του παρηκοντος αιγιαλου ..... .

(29) Strabo, 16.2.31.

(30) Jean Yoyotte et Pascal Charvet, Strabon, Le Voyage en Egypte, un regard romain, Paris, 1997, p. 102, note 158.

(31) Ibid., note 157. See also note 403, p. 162.

(32) Ibid., P. 102, nn. 165 - 174 .

(٣٣) هناك بحث تحت الطبع لمحمد عبد الغنى بعنوان " طبائع الاسكندرين فى مصادر الإمبراطورية الرومانية – دراسة نقدية " تتناول هذا الموضوع بالتفصيل .

(34) Strabo, 17.1.14:

εἰτα Ταποσειρις, ουκ επι θαλαττη, πανηγυριν δεχομενη μεγαλην. αυτης δε πλησιον πετρωδες επι τη θαλαττη χωριον, και αυτο δεχομενον πολλους τους ακμαξοντας απασαν ωραν ετους.

(35) Ibid., 17.1.17.

(36) Ibid., 17.1.18.

(37) Ibid., 17.1.4:

πλευρας δε του τριγωνου τα σχιξομενα εφ εκατερα ρειθρα καθηκοντα μεχρι της θαλαττης, το μεν εν δεξια της κατα Πηλουσιον, το δ εν αριστερα της κατα Κανωβιου και το πλησιον Ηρακλειον προσαγορευομενον, βασιν δε την παραλιαν την μεταξυ του Πηλουσιου και του Ηρακλειου.

(38) Diodorus Siculus, I. 33.7.

(39) C. Ptolemaius, Geographia, 4.5.10.

(40) J. Ball, op. cit., p. 105.

(41) Herodotus, II. 113 - 114.

(42) Diodorus Siculus, I. 19.4.

(43) Strabo, 17.1.16. (at the end of the paragraph).

ودوره في الحياة العلمية بمصر والشام في القرن الثامن الهجري – الرابع عشر الميلادي

د. عفاف سيد محمد صبرة
أستاذ التاريخ الوسيط كلية الدراسات الإنسانية بالقاهرة
جامعة الأزهر/ فرع البنات.

يعتبر عمر بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله سراج أبو حفص الأندلسي ثم المصري[١] علما بارزا من أعلام العلم والثقافة في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، حيث فهو امتداد لسلالة أندلسية عاشت في هذه البلاد وتعلمت بها وتثقفت من علومها وثقافتها، حيث كان أبوه نور الدين أبو الحسن علي من أهل وادي آش[٢]، درس فيها وتعلم ثقافة أهل الأندلس في فروع العلوم الدينية والعلوم العربية حيث وصف بأنه "نحويا أندلسيا متميزا"[٣] حيث "حصل علم العربية والحساب ومذهب مالك ببلاده وبرع"[٤].

وقبل أن نخوض في موضوع البحث رأينا أن نعطي لمحة سريعة عن المعالم الثقافية التي أثرت وبلورت شخصية الوالد والتي حددت الاتجاه الثقافي الذي سيسلكه في حياته المستقبلية.

كانت العلوم الدينية والعربية هي العلوم التي يسعى إليها طلاب العلم في بلاد الأندلس الإسلامية، وذلك لأن حكام الأندلس منذ عهد الولاية فالإمارة حتى عصر الخلافة على عهد عبد الرحمن الناصر (ت٣٥٠هـ)، وابنه الحكم المستنصر (ت٣٦٦هـ) ثم عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر (ت٣٩٣هـ) في فترة خلافة هشام الثاني المؤيد (ت٣٩٩هـ)، وهي الفترة السابقة لعصر ملوك الطوائف حيث كانت الأندلس تعيش ازدهارا حضاريا في جميع المجالات العلمية والأدبية، وما يهمنا هنا العلوم النقلية، فقد كان هناك علماء في الفقه والتفسير والفرائض والنحو والتاريخ والجغرافيا، ويكفي أن بلاد الأندلس حتى في عصر الطوائف، قد أنجبت ابن حزم الفقيه والمفكر الأندلسي الشهير وفي هذا ما يكفي للتعريف به[٥].

ومن هؤلاء أيضا الفقيه الأندلسي المشهور ابن عبد البر الذي كان يقال له "حافظ أهل الغرب"[٦].

وفي هذه البيئة العلمية نشأ الأب،ولكن ظروفا دفعته للهجرة وترك البلاد، حيث كانت بلاد

---

(١) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد، إنباء الغر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٩-١٩٧٢م، ج٢، ص٢١٦-٢١٩،
محمد عبد الرحمن السخاوي، التوضيح الأبهر لتذكرة ابن الملقن في علم الأثر، تحقيق عبد الله محمد عبد الرحيم البخاري، مقدمة المحقق، مكتبة أضواء السلف، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ، ص٨.

(٢) مدينة من كورة البيرة بالأندلس بينها وبين غرناطة أربعين ميلا. انظر : ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧، ج١، ص٢٧٩.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الحياة، بيروت، لبنان، د.ت، ج٦، ص١٠٠.

(٤) محمد كمال عز الدين، إبن الملقن مؤرخا، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٧م، ص٦٩، ملحق رقم ١ إجازة من إبن الملقن برواية مصنفاته.

(٥) انظر ترجمته في :
ابن خلكان، وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، مجلد ٣.
ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، القاهرة، ١٩٣٢، ج١٢، ص٩١-٩٢.
أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٣٠، ج٥، ص٧٥.

(٦) انظر ترجمته في :
ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧، ترجمة ٨٣٧.
ابن بشكوال، أبو القاسم، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم، تحقيق كوديرة، مدريد سنة ١٨٨٢.

الأندلس آنذاك تمر بظروف سياسية أدت إلى هجرة كثير من العلماء من البلاد لما تعرضوا له من محن كثيرة حيث تحولت البلاد إلى ممالك وطوائف وانحسر الإسلام عن معظمها وحل محلها الإمارات النصرانية الشمالية والتي كانت تستمد قوتها من دولة الفرنجة في فرنسا والبابوية في إيطاليا، هذا في الوقت الذي انتهى أمر المرابطين المغاربة، وحل محلهم الموحدون[١]، لكنهم تراجعوا أيضا ليصبح الأندلس مملكة واحدة فقط في غرناطة منذ منتصف القرن السابع الهجري قام بتأسيسها أبو محمد عبد الله بن نصر[٢].

تعاقب أبناء نصر على حكم غرناطة بعد وفاة محمد الأول مؤسس المملكة سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م وخلفه ابنه محمد الثاني الملقب بالفقيه الذي رأى من أول توليه أن يسعى إلى الارتباط بروابط صداقة وتعاون مع بني مرين أصحاب السلطان السياسي الأعلى في المغرب في ذلك الحين[٣].

وكان عليه أن يقاوم محاولات للثورة عليه، وكان بنو مرين قد تغلبوا على بقايا الموحدين في المغرب الأقصى، وكان أقوى المنافسين له بني أشقيلولة أصحاب مالقة ووادي آش[٤].

استطاع محمد الثاني الفقيه أن يتغلب على الثائرين عليه فضرب أنطكيرة Atequere بفضل المساعدة التي تلقاها من الأمير الدوق فيليب. ومن الدوق نونيدولارا Nunedo Lara ولم يلبث أن لاحظ أن ملك قشتالة يرى من صالحه أن يترك الدولة الإسلامية تهلك تحت وطأة النزاعات الداخلية وهذا هو الذي جعل محمد الثاني الفقيه يلتفت إلى دولة بني مرين ووفق سلطان فاس المريني أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني الذي عبر إلى الأندلس وأنزل هزيمتين بقوات قشتالة، واستولى على طريف التي كان يحكمها قزمان الطيب بعد أن استمر يدافع عنها إلى سنة ١٢٩٣م. ومن ذلك الحين بدأ تدخل السلطان المريني في أعمال سلطنة غرناطة وكان لذلك أثر طيب في السلطنة، ولكنه كان يشجع الاضطراب فيها، وكان هؤلاء المرينيون يعرفون في الأندلس بالغزاة[٥].

مات محمد الثاني الفقيه سنة ٧٠١هـ/١٣٠٢م وخلفه ابنه محمد الثالث المعروف بالمخلوع وهو الذي بدأ في إنشاء الحمراء، وكان عليه أن يواجه ثورات قامت عليه في وادي آش[٦] والمرية، لكنه في النهاية استسلم لأمير ثار عليه في المملكة وهو نصر بن محمد الذي بدأ يحكم سنة ٧٠٨هـ/١٣٩٠م، واعتزل في مدينة المنكب[٧].

عاش نور الدين أبو الحسن علي والد ابن الملقن في وادي آش في ظل هذا الاضطراب السياسي والفوضى من قبل الحكام من بني نصر والمرينيين في المغرب وكذلك النصارى الشماليين.

ومن المرجح أن هذه الأحوال دفعت كثير من العلماء الذين برزوا إلى

---

(١) عن المرابطين والموحدين انظر :

علي بن زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.

أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب.

ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب، ج٢، بيروت، سنة ١٩٥٠.

السلاوي الناصري، الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى.

حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين.

محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، المرابطون والموحدون.

يوسف أشباح، تاريخ المرابطين والموحدين.

(٢) حسين مؤنس، موسوعة تاريخ الأندلس، ج٢، ص١٩٧.

(٣) عن دولة بني مرين بالمغرب انظر :

السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٢، المغرب الإسلامي، الاسكندرية، ١٩٦٩م.

البيذق، كتاب أخبار المهدي بن تومرت تحقيق ليفي بروفنسال، باريس ١٩٢٨م.

(٤) حسين مؤنس، الموسوعة، ص١٩٩.

(٥) حسين مؤنس، الموسوعة، ص٢٠٠.

(٦) وادي آش هي موطن والد ابن الملقن.

(٧) حسين مؤنس، الموسوعة، ص٢٠١.

تـرك الـبلاد والهجـرة إلـى منـاطق كثيـرة مـن العـالم بعيـدة عـن هـذه الاضـطرابات والحـروب الـدائرة، أو ربمـا كانـت الرغبـة فـي نشـر العلـوم الدينيـة – كواجـب مقـدس – قـد دفـع الوالـد إلـى التوجـه إلـى بـلاد التكـرور علـى ضـفتي السـنغال[1] إلـى جانـب الرغبة في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

يرجح البحث توجه الوالد إلى بلاد التكرور لأسباب منها تسلط بني مرين على مدينة وادي آش، وكيف كان لهذه القوة السياسية دور كبير في العمل على نشر الإسلام في أفريقيا منذ عهد المرابطين والذين جاهدوا في سبيل نشر الإسلام ودفع النصارى عن البلاد وفي نفس الوقت كانت تقوم بدورها في تدعيم الإسلام في ممالك أفريقيا، خاصة في مالي والتكرور وغيرهما من المناطق الإفريقية[2]. وتمخض عن ذلك إسلام شعب التكرور الذي عمل على متابعة الدعوة إلى هذا الدين، وربما كان لاستعانة سلطان التكرور منسي موسى ١٣٢٣م بأحد أهل الأندلس لبناء القصور والمساجد حتى برز الفن العربي الأندلسي في هذه البلاد[3]. قد شجع ذلك كثير من العلماء إلى التوجه إلى بلاد التكرور.

ومن المظاهر الإسلامية إلى جانب الحج وتوطيد صلات الأخوة إحاطة سلاطين مالي، وهي مملكة التكرور بالفقهاء والعلماء خصوصا في عهد السلطان منسي سليمان ١٣٣٦-١٣٥٩م الذي بنى المساجد والجوامع والمنارات، وأقام بها الجمع والجماعات والآذان وجلب إلى بلاده الفقهاء على مذهب مالك من المغرب والأندلس[4].

تعتبر هذه الترجيحات موجبة للتصديق في سبب توجه الوالد نور الدين علي إلى بلاد التكرور ليقوم مثل غيره من علماء الأندلس بمهمة تدعيم الإسلام وإقراره في هذه البلاد خاصة "وأنه كان نحويا بارزا أخذ العربية عن ابن الزبير[5] والجبر والمقابلة وإقليدس عن ابن البناء[6] وتفرد في ذلك".

ومن الممكن أن يكون رحيله طلبا للأمن والرزق[7]. كما أن الرحلة في طلب العلم أو نشره كانت هدفا في هذه المراحلة التاريخية.

صمتت المصادر عن تحديد تاريخ وصول الوالد إلى بلاد التكرور أو تاريخ مغادرته لها والتوجه صوب مصر، لكن التاريخ الثابت لدينا أن هذه الأحداث كانت قبل مولد الابن – موضوع البحث في عام ٧٢٣هـ.

أفاد الوالد من إقامته في بلاد التكرور فائدة شخصية ومعنوية الأولى أنه "حصل مالا"[8]

---

(١) هكذا يسميهم الجغرافيون، قبيلة من السودان تنتسب إليهم البلاد الواقعة في أقصى جنوب المغرب وأهلها أشبه بالزنوج، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٤، ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٢١٦.

يذكر ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب، قال في المنهل، رحل أبوه نور الدين من الأندلس إلى بلاد الترك وأقرأ أهلها القرآن، ج٧، ص٤٤.

وهذا خطأ لأنه ذهب إلى التكرور وليس الترك وقد خلط بينهما.

(٢) حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، القاهرة، دار الفكر العربي، ط٣، سنة ١٩٨٦، ص٢١٥.

(٣) المرجع السابق، ص٢٢٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، دار الكتب، د.ت، ج٧، ص٢٩٧.

(٥) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين الثقفي الغرناطي، ت٧٠٨-١٣٨٠هـ تقريبا

ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ج١، ص٨٤-٨٦.

السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة، ج١، ت٥٣٢، ص٢٩١-٢٩٢.

(٦) هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي العدوي المراكشي، أبو العباس، ت٧٢١هـ.

ابن حجر، الدرر، ج١، ص٢٧٨، التنبكتي، نيل الابتهاج، ص٦٥-٦٨.

(٧) ابن الملقن، طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريبة، القاهرة، الخانجي، ١٩٧٣، مقدمة المحقق، ص٢٨.

(٨) السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص١٠٠.

أفاده في حياته وسهل له مهمة السفر للإقامة بالقاهرة، خاصة وأنه "كان محبوبا عندهم وأن عيشه رغيدا"[١].

أما الثانية أنه أقرأ أهل التكرور القرآن الكريم وعلمهم اللغة العربية[٢] فهي مهمة دينية لأن تعليم الإسلام للبلاد التي لم يتمكن منها إلى جانب اللغة العربية يعتبر فرض كفاية على المسلم.

لعل هذه الترجيحات لخروجه من الأندلس وقدومه إلى بلاد التكرور لأداء هذه المهمة التعليمية ترجع إلى صمت المصادر عن توضيح ذلك نهائيا.

بعد أن أنهى الوالد مهمته في بلاد التكرور "مالي" اتجه إلى القاهرة فاستوطنها[٣]، لكن لم يحدد المؤرخون لذلك تاريخا محددا، ويمكن أن يقال على وجه التقريب أنه رحل أواخر القرن السابع عن الأندلس ووصل إلى مصر أوائل القرن الثامن الهجريين، حيث أخذ عنه الإسنوي[٤] وغيره، واتخذ أصدقاء من عيون العلماء في عصره منهم ابن جماعة، وقد علل ابن خلدون توافد العلماء بالذات بقوله "ونحن لهذا العهد، نرى أن العلم والتعليم إنما هو في القاهرة من بلاد مصر، كما أن عمرانها مستبحر، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم"[٥].

دور والد ابن الملقن في نقل التراث الأندلسي إلى مصر

لقد تعدد عدد الوافدين من بلاد الأندلس إلى دولة المماليك في مصر والشام في جميع المجالات العلمية، وهؤلاء هم حملة الفكر والثقافة الأندلسية، والتي هي عبارة عن امتزاج بين العلوم العربية والإسلامية التي عبرت إليهم منذ الفتح الإسلامي وطوال العصور الإسلامية، وكذلك نتاج ما قدمه العلماء الذين وفدوا من الشرق وأقاموا هناك. وما قدمه المولدون والمستعربون[٦] وكذلك الأجانب من تراث وعلم.

فكأن الأندلس بتياراته المختلفة كون عقلية العلماء الذين أخذوا العلم عن مشايخ العصر وأئمته، وأصبح هناك سمات مميزة للدراسات الدينية واللغوية والفنون والآداب.

كان مذهب مالك هو المذهب الذي انتشر في بلاد المغرب والأندلس منذ أيام الخليفة الأموي هشام بن عبد الرحمن الداخل ١٣٩-١٨٠هـ فقد كان الإمام مالك معاصرا لهذا الخليفة يعجب بسيرته وخلاله ويشيد بعدله وتقواه، وقد رحل كثير من أهل الأندلس إلى المدينة المنورة، وتفقهوا على يد الإمام مالك، واستقوا من علمه واجتهاده، ونقلوا عن كتاب الموطأ، لذلك ذاع على يديهم مذهب مالك في الأندلس وأصبح مذهب أهل الدولة[٧].

لذلك عندما انتقل الشيخ العلامة النحوي نور الدين أبي الحسن علي والد ابن الملقن إلى مصر حمل معه هذا الفكر الأندلسي ليدرسه في مصر.

بدأ الوالد أولا بتدريس العربية "دون أن يتنزل في المدارس، فانتفع به جمع كبير من الطلبة

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٢١٦.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، وفيات سنة ٨٠٤هـ، السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص١٠٠.

(٣) ابن الملقن، نزهة النظار وقضاة الأمصار، تحقيق مديحة الشرقاوي، القاهرة، الثقافة الدينية، ١٩٩٦، مقدمة التحقيق، ص٤٩-٥٠.

ابن الملقن، طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريبة، القاهرة، الخانجي، ١٩٧٣، مقدمة التحقيق، ص٢٩.

(٤) الإسنوي، أو الإسنائي الذي أخذ عن أبي الحسن علي بن أحمد الواداشي هو عبد الرحيم بن الحسين بن علي بن إبراهيم جمال الدين صاحب طبقات الشافعية ٧٠٤-٧٧٢هـ. انظر ترجمته : ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٤٦٧، رقم ٢٢٨٦.

(٥) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ط٥، بيروت ١٩٨٤، ص٣٣٤. وقد أشار إلى رأي ابن خلدون وأكده ابن الأزرق.، أبو عبد الله ت٨٩٦هـ/١٤٩٠م، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق وتعليق علي سامي النشار، العراق، ج٢، ص١٩٧٨، ص٣٤٥.

(٦) عنهم انظر : السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، الاسكندرية، شباب الجامعات، سنة ١٩٦١، ص١٢٨، ١٣٥.

(٧) حسن أحمد محمود، في تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٨٠، ص٧٥.

– أصبحوا بعد ذلك شيوخا في مصر والشام – ومنهم ابن المرحل[١]، وابن النقيب[٢]، والجمال الأسنوي[٣]، والبهاء السبكي[٤] وذلك لأنه كان عالما نحويا فذا".

ويؤكد على ذلك السيوطي في بغية الوعاة وعلى نفس هذه الشخصيات ويضيف إليهم محمد بن علي بن يوسف الأسنوي كمال الدين ت٧٨٤هـ[٥] وكذلك صلاح الدين عبد الله بن محمد بن كثير التاجر النحوي ت٧٦٣هـ[٦] وغيرهم. ومن هؤلاء من تقلد منصب القضاء فكان بارا بهم محسنا إليهم لا يسأم الإقراء آناء الليل وأطراف النهار[٧].

ولابد أن نقف وقفة هنا لنرى هل انتفع هؤلاء الطلبة فعلا بما علمهم الوالد نور الدين أبو الحسن علي؟ هل قام بتدريسهم النحو واللغة وهو ما تخصص فيه أولا، ثم علمهم مذهب مالك الذي رأيناه يكتب لهم تعليقا ضخما على "الرسالة في مذهب الإمام مالك"[٨].

معنى ذلك أن الفكر الأندلسي انتقل مع الوالد إلى مصر، ثم قام هو بتعليمه لأبنائها، وهؤلاء سيكونون في المستقبل هم أساتذة إبنه وشيخنا ابن الملقن، الذي سيكمل دور أبيه وسيكون امتدادا للفكر الأندلسي في مصر والشام، ومما يؤكد ذلك أن شيخنا ذكر فيما بعد قائلا : "أخبرني شيخنا قاضي المسلمين بالديار المصرية والشامية أبو البقاء بهاء الدين السبكي – أبقاه الله – أن دروسه حصرت عليه في اليوم والليلة فبلغت سبعين درسا قال : ولم أنتفع بأحد من شيوخي كانتفاعي به"[٩].

تزوج الوالد خلال إقامته في مصر من أخت الفتح الزواوي[١٠]، وأنجب منها ابنه عمر، لكن هل كانت أولى زوجاته، أم كان له زوجة قبلها في الأندلس أو في بلاد التكرور، لا شئ بين أيدينا وكل ما نستطيعه هو التخمين[١١].

ولد عمر بن علي في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة للهجرة في القاهرة[١٢] وكان ذلك في عصر السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة ٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٩٠-١٣٤٠م. أي أنه نشأ في العصر المملوكي الأول وبلغ مبلغ الشباب في نهايات هذا العصر الذي شهد فوضى سياسية كبيرة في عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده.

وعند بلوغه الستين من العمر عاش أحداث العصر المملوكي الثاني الذي بدأ عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م تحت سلطنة برقوق ت٨٠١هـ/١٣٩٩م، وكذلك فترة من عصر ابنه فرج بن برقوق ت٨١٥هـ/١٤١٢م.

توفي نور الدين علي والد الشيخ "عمر بن الملقن" بعد أن أكمل ابنه سنة وأياما، وكان قد أوصى به إلى الشيخ شرف الدين عيسى المغربي ملقن القرآن الكريم بالجامع الطولوني، فتزوج من أمه بعد وفاة أبيه، وتربى عمر في حجره ونشأ في كفالته حتى نسب إليه فعرف بابن الملقن، وصار

---

(١) هو عبد الله بن عمر الشيخ زين الدين بن المرحل ت٧٣٨هـ/١٣٣٨م. محمد كمال عز الدين، ابن الملقن مؤرخا، ص١٠ حاشية ٢.

(٢) أحمد بن لؤلؤ عبد الله المعروف بابن النقيب ت٧٦٩هـ/١٣٦٨م، المرجع السابق، ص١٠، حاشية ٣.

(٣) هو عبدالرحيم بن الحسن بن علي بن عمر، ٧٧٢هـ/١٣٧٠م. المرجع السابق، حاشية ٤.

(٤) أبو البقاء بهاء الدين محمد بن عبد البر. المرجع السابق، ص١٠، حاشية ٥.

(٥) السيوطي، بغية الوعاة، ج٢، ص١٤٤.

(٦) المصدر السابق.

(٧) محمد كمال عز الدين، ابن الملقن مؤرخا، ملحق رقم ١. "إجازة من ابن الملقن برواية مصنفاته"، ص٧٥.

(٨) ابن الملقن، العقد المذهب في حملة المذهب، ص١٧٠.

(٩) ابن الملقن، العقد المذهب، ص١٧٠، ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص١٢١-١٢٣.

(١٠) محمد كمال، ابن الملقن مؤرخا، ص١٠.

(١١) ابن الملقن، طبقات الأولياء، مقدمة المحقق، ص٣٠.

(١٢) عنه انظر : السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص١٠٠، المقريزي، السلوك، ج٢، تحقيق زيادة، ص٧١، ابن فهد المكي، لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، الهند، د.ت، ص١٩٧، السخاوي، التوضيح الأبهر لتذكرة ابن الملقن في علم الأثر، تحقيق عبد الرحيم القشقري، أضواء السلف، مقدمة المحقق، ص٨.

علما عليه[١]. رغم أن السخاوي يذكر بأنه بلغه أن عمر كان يغضب من هذا اللقب "حيث لم يكتبها بخطه، إنما كان يكتب غالبا ابن النحوي، وبها اشتهر في بلاد اليمن"[٢]. ولكثرة ما رواها في تصانيفه[٣].

كانت المرحلة الأولى التي عاشها ابن الملقن في كنف الوصي هي التي شكلت شخصيته وعقليته، وحددت الملامح التي سيبرز من خلالها، كما كان لوجود التلاميذ الذين تعلموا على يد أبيه من قبل – مثل ابن النقيب والإسنوي والبهاء السبكي وغيرهم – علم النحو والمذهب المالكي، كان لهم أكبر الأثر على حياة الصبي.

بدأ تشكيل عقلية الابن من قبل زوج أمه الوصي المغربي، الذي أحسن تعليمه وتأديبه واستثمر أمواله[٤] فقام بإنشاء ربع له أنفق على عمارته قريبا من ستين ألف درهم[٥]، فكان يتحصل له من ريع الربع كل يوم مثقال ذهب مع رخاء الأسعار وعدم العيال[٦]. مما جعله يكتفي بأجرته وتوفر له بقية ماله للكتب وغيرها[٧].

أما عن الناحية العملية فقد سهل له حفظ القرآن الكريم كأبناء جيله، ولعله يكون قد حفظه على يد زوج أمه، ثم حفظ كتاب "عمدة الأحكام"[٨].

أراد الوصي أن يدرس ابن الملقن الفقيه على المذهب المالكي أسوة بأبيه حتى قيل أنه "شغله مالكيا"[٩] ولعل تأثير الأب وتلاميذه كان كبيرا حتى أن السخاوي يعدد الأساتذة الذين تعلم ابن الملقن على يديهم فكان منهم الجمال الإسنوي والسبكي[١٠] وكلاهما من الطلاب الذين تعلموا على يد الأب والد ابن الملقن.

عدل الوصي عن هذا الاختيار وذلك بناء على نصيحة أحد علماء العصر وهو العز بن جماعة وهو "أحد أصحاب أبيه"[١١] حيث طلب منه أن يعلمه الفقه الشافعي وأن يدرس كتاب "المنهاج" فحفظه، ويؤكد ابن الملقن على أنه "حصل له من ذلك خير كبير"[١٢].

---

(١) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٠، ابن فهد المكي، لحظ الألحاظ، ص١٩٧، ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٢١٧.

(٢) السخاوي، نفسه.

(٣) ابن حجر، المجمع المؤسس، ج٢، ص٣١١، ذكر المقريزي في السلوك، ج٣، قسم ١، ص٧٩ في ترجمة ابن المعزى أنه أخذ النحو بالقاهرة عن أبي الحسن والد الشيخ سراج الدين بن الملقن.

(٤) ابن الملقن، نزهة النظار في قضاة الأمصار، تحقيق مديحة الشرقاوي، القاهرة، الثقافة الدينية، ١٩٩٦، مقدمة المحققة، ص٥١.

(٥) ابن فهد، لحظ الألحاظ، ص١٩٧–١٩٨.

(٦) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٠ نقلا عن المقريزي في عقوده.

(٧) السخاوي، المصدر السابق.

(٨) السخاوي، المصدر السابق، والكتاب هو عمدة الأحكام عن سيد الأنام لتقي الدين أبي محمد عبدالله بن عبد الواحد بن علي بن سرور الجماعيلي المقدسي الحنبلي، ت٦٠٠هـ. ابن الملقن، نزهة النظار، مقدمة التحقيق، ص٥١، حاشية ٣.

(٩) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٠.

(١٠) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٠.

(١١) السخاوي، المصدر السابق، وابن جماعة هو عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن صخر الكناني الشافعي، ت٧٦٧هـ. ابن حجر، الدرر، ج٢، ترجمة ٢٤٤٣، ص٣٧٨–٣٨٢.

(١٢) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٠.

وكتاب المنهاج هو منهاج الطالبين للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ت٦٧٦هـ وهو كتاب مشهور في فقه الشافعية اختصره من كتاب "المحرر في فروع الشافعية" للإمام القزويني ت٦٢٣هـ.

ابن الملقن، نزهة النظار، مقدمة التحقيق، ص٥١، حاشية ٥، ابن الملقن، التذكرة في علوم الحديث، تحقيق علي حسن عبد الحميد، دار عمار، عمان، الأردن، ١٤٠٨هـ، مقدمة التحقيق، ص٧.

سمع ابن الملقن كتاب المنهاج على الحافظين ابن سيد الناس، والقطب الحلبي، ثم سعى لتحصيل الإجازة له من علماء مصر والشام منهم الحافظ المزي[١]، ثم قال ابن حجر[٢] : "عني في صغره بالتحصيل" وذكر ابن فهد[٣] "طلب الحديث في صغره بنفسه فأقبل عليه وعني به، لتوفر الدواعي وتفرغه". حتى قال عن نفسه سمعت ألف جزء حديثية وقد رزقه الله الحرص على التحصيل والطلب الذي لا تفتر له عزيمة ولا تنام له عين ولا يهدأ له بال[٤].

وقد اهتم ابن الملقن بجمع العلوم الأخرى كالفقه والقراءات والعربية ويظهر ذلك واضحا عند ذكر مشايخه فمنهم من كان عالما بالفقه، ومنهم من كان عالما بالقراءات، ومنهم من كان عالما بالعربية[٥].

تنقلنا هذه الأخبار إلى أن ابن الملقن عاش في العصر المملوكي الذي اتسم بالمؤلفات الموسوعية، والعلماء الموسوعيين، لذلك، فهذا العالم الأندلسي المصري، سيكون نموذجا لهذا النوع من التعليم وسنراه يشب وهو ينهل من كل فروع العلم لتخرج علينا مؤلفاته في شتى المجالات، وهذا ما سيدعونا إلى توضيح إسهاماته في كل فن من الفنون والعلوم.

شيوخه :

كان أبرز شيوخه في الفقه أعلام الشافعية وهم تقي الدين السبكي، وكمال الدين النشائي، وعز الدين بن جماعة[٦]، والثلاثة تلامذة أبيه الأندلسي، أي أنه امتدادا له، كما أخذ العربية عن أبي حيان الغرناطي، وجمال الدين بن هشام، وشمس الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الصائغ، وأخذ القراءات عن برهان الدين الرشيدي، وكتب الخط المنسوب إلى سراج الدين محمد بن محمد بن نمير الكاتب[٧].

رحلات إبن الملقن في طلب العلم

الرحلة في طلب العلم والحديث النبوي خاصة سنة متبعة لدى العلماء من سلف الأمة الصالح، إذ يندر أن تجد إماما لم يرحل في طلب العلم، لذا، نجد أن إبن الملقن رحل إلى عدة بلدان منها دمشق، وحماه، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وبيت المقدس وغيرهم من البلدان[٨].

كان هدف الرحلة أمران، الأول تحصيل علو الإسناد، وقدم السماع، والثاني لقاء الحفاظ والمذاكرة لهم، والاستفادة منهم، وكانت الرحلة عند علماء الحديث لها شأن عظيم لأنها تدل دلالة أكيدة على مواصلة الطلاب فيما ابتدأ به، وعلى تحصيله العلمي في بلده الذي انتهى منه بشهادة علمائها، وفيها ملاقاة الشيوخ والأخذ عنهم، وكذا إجازته لمروياته لتلاميذه في غير بلده[٩].

وتعتبر رحلته إلى القدس الشريف من أبرز هذه الرحلات العلمية وأهمها خاصة وأن المسلمين كانوا دائما يعملون على التبرك بزيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه لما له من فضل كبير، فهو أولى القبلتين، وثالث الحرمين، فقد سافر إلى هناك عام تسع وأربعين وسبعمائة للهجرة، حيث التقى هناك بالحافظ العلائي وقرأ عليه وأخذ عنه.

وقد أشار إلى هذه الرحلة في كتابه "البدر المنير" أثناء ترجمته للإمام الرافعي فقال عند سياقه جملة من أحاديث الرافعي "ومن حديثه، ما أخبرنا بقية الحفاظ صلاح الدين أبو سعيد خليل بن

---

(١) ابن فهد، لحظ الألحاظ، ص١٩٧-١٩٨.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٢١٧.

(٣) ابن فهد، لحظ الألحاظ، ص١٩٧.

(٤) ابن الملقن، الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، تحقيق عبد العزيز المشيقح، الرياض، دار العاصمة، ١٤١٧هـ، مقدمة التحقيق، ص٢٨.

(٥) ابن الملقن، البدر المنير في تخريج الأحاديث الواقعة في الشرح الكبير، تحقيق مصطفى أبوالغيط وآخرون، الرياض، دار الهجرة، ٣ أجزاء، ١٤١٤هـ، مقدمة المحقق، ص٩٢.

(٦) ابن الملقن، طبقات الأولياء، مقدمة المحقق، ص٩٢.

(٧) المصدر السابق.

(٨) السخاوي، التوضيح الأبهر، مقدمة التحقيق، ٦.

(٩) ابن الملقن، الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، مقدمة المحقق، ص٢٩.

كيكلدي بن عبد الله العلائي بالقدس الشريف بقراءتي عليه، قال.."[١].

وذكر أيضا في البدر عند الكلام على حديث "السواك مطهرة للفم مرضاة للرب" وعزاه غير واحد إلى صحيح الإمام أبي بكر بن خزيمة وهو كما قالوا فقد رأيته كذلك فيه بالقدس الشريف في رحلتي إليها.

وقال أيضا في البدر عند كلامه على حديث أنه عليه الصلاة والسلام تيمم بتراب المدينة وأرضها سبخة.

قال ابن الملقن : قال ابن خزيمة : وفي هذا مابان وثبت أن التيمم بالسباخ جائز. هذا لفظه ومن صحيحه في رحلتي إلى القدس نقلته[٢].

وقد قرأ في هذه الرحلة كتاب "جامع التحصيل في أحكام المراسيل" على مؤلفه الحافظ العلائي، وأشار إلى هذا السخاوي[٣].

وأثبت العلائي ذلك في طبقة السماع ووصفه بالشيخ الفقيه، الإمام، العالم، المحدث، الحافظ، المتقن، شرف الفقهاء، والمحدثين والفضلاء. وأجاز له جميع ما يجوز عنه روايته وهو ثابت بخطه على نسخة "جامع التحصيل"[٤] كما عظمه أبو البقاء السبكي ووصفه العراقي في طبقة بالشيخ الإمام الحافظ[٥].

أما عن رحلته إلى دمشق وحماه فكانت في عام سبعمائة وسبعين وكان في صحبته ابنه علي وتلميذه ابن برهان الحلبي كما ذكر ابن شهاب الدين الحجي وقرظ له ابن السبكي جزءا من "تخريج أحاديث الرافعي" مع التنويه بذكره[٦]، كما أخذ عن ابن أميلة وغيره من أصحاب الفخر بن النجاري[٧].

وكان من رحلاته توجهه إلى مكة المكرمة مرتين الأولى لتلقي العلم والدراسة وذلك في عام سبعمائة وواحد وأربعين، ودرس هناك على يد الشيخ النجم الأسواني[٨]. أما الرحلة الثانية فكانت بغرض الحج حيث زار الحرمين الشريفين وذلك عام سبعمائة وواحد وستين، ويؤكد على ذلك السخاوي في الضوء بقوله "قرأت بخطه إجازة كتبها وهو بمكة سنة إحدى وستين وسبعمائة تجاه الكعبة قال فيها : إن من مروياته الكتب الستة ومسند الشافعي وأحمد والدارمي وعبد وصحيح ابن حيان وسنن الدارقطني والبيهقي والسيرة تهذيب ابن هشام[٩].

ثم بدأ يعدد مشايخه ومؤلفاته المختلفة.

---

(١) ابن الملقن، البدر المنير، تحقيق مصطفى أبو الغيط وآخرون، ص٤٤.

(٢) ابن الملقن، البدر المنير، ص٤٤.

(٣) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠١.

(٤) البدر المنير، ص٤٥.

والإجازة لغة مأخوذة من جواز الماء الذي تسقاه الماشية والحرث، تقول استجزت فلانا فأجازني إذا سقاك ماء لأرضك أو ماشيتك، كذلك طالب العلم يسأل أن يجيزه علمه فيجيزه إياه والطالب مستجيز والعالم مجيز.

السخاوي، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، شرح السخاوي على ألفية العراقي، ط/حجر دهلي، د.ت، ج٢، ص١٨.

أما الإجازة اصطلاحا : إذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته ولو لم يسمعها منه ولم يقرأها عليه وذلك بقوله "أجزت لك أن تروي عني الكتاب الفلاني أو ما صح عندك من مسموعاتي".

انظر ابن كثير، الباعث الحثيث في اختصار علم الحديث، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة، صبيح، ط٣، ١٩٥١، ص١١٩

(٥) السخاوي، نفسه، ص١٠.

(٦) ابن الملقن، الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، تحقيق المشيقح، ص٢٨، ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٤، ص٥٦.

(٧) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠١.

(٨) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص٥٥٩.

(٩) ج٦، ص١٠١.

وهكذا نرى أن شيخنا الجليل لم يقنع بالبقاء في مكان واحد وإنما كان على دراية كبيرة بأن الرحلة في طلب العلم مطلب أساسي لكل عالم، وأنه سليل علماء مرموقين وأبوه أساسا خرج في طلب العلم وحمل معه علوم أهل الأندلس لتنتشر على يده ويد ابنه في جميع الأمصار الإسلامية، بل ليفيد ويستفيد.

أما عن توجهه للاسكندرية من أجل الاستزادة من العلم، فهذا يؤكد لنا أن هذه المدينة كانت لها مكانة كبيرة في هذا العصر فقد كانت مدينة تحوي منشآت معظمها من وحي الروح التي سادت العصر وهي روح الجهاد الديني والجهاد بالسلاح والجهاد بالعلم، لهذا امتدت الحركة التي امتاز بها العصران الأيوبي والمملوكي وهي حركة إنشاء المدارس والخوانق والربط والزوايا حتى شملت الاسكندرية، فأنشئ في الاسكندرية في العصر المملوكي عدد كبير من هذه المؤسسات العلمية التي تقوم في معظمها على أساس من التصوف وما يستتبعه من شعر صوفي ودراسات وابتهالات صوفية وفي أقلها على التفقه في العلوم الدينية المختلفة وخاصة علم الحديث(١).

لذلك حرص ابن الملقن على زيارتها فقد كانت أولى رحلاته إليها عام سبعمائة وخمس وخمسين وإلى أنه سمع بها على أبي عبد الله بن النعمان كما سمع في رحلته الثانية إليها، وإن لم يؤرخ لها على الشيخ(٢).

ومما يؤكد أنه زارها أكثر من مرة أنه أشار أنه فرغ من تأليف القسم الأول منه في رحلته الثالثة إلى الاسكندرية بالترتيب قبالة بنها العسل في الوجه البحري سنة ثمان وسبعين وسبعمائة(٣).

وهكذا نرى أن هذا العالم لم يتوقف عن الحركة والتأليف، وإنما جاب البلاد حتى تكتمل الفائدة العلمية لديه.

الأصول العلمية التي استقى منها ابن الملقن ثقافته

تعتبر الأصول العلمية الأولى والعديدة في شتى فروع المعرفة هي الأساس الأول الذي استقى منه ابن الملقن ثقافته ومعلوماته الغزيرة.

يشير ابن العماد الحنبلي إلى أن ابن الملقن كان جماعة للكتب(٤)، ويشير ابن الملقن نفسه – رحمه الله – إلى ذلك فيقول في خطبة الكتاب "ويسر الله تعالى – لنا – سبحانه وله الحمد والمنة – من الكتب التي يحتاج إليها طالب هذا الفن زيادة على مائة تأليف..." (٥).

وقد كان من أهم الأسباب التي هيأت له تكوين هذه المجموعة من الكتب يسر حاله، وقلة عياله، ذلك أنه كان له مال ثابت يتحصل عليه من الربع الذي أنشأه له وصيه، فكان يكتفي بأجرته، وتوفر له بقية مال، فكان يقتني الكتب"(٦). ولكن لم تكن جميع هذه الكتب ملكا له "فقد كان عنده من الكتب ما لا يدخل تحت الحصر، منها ما هو ملكه ومنها ماهو من أوقاف المدارس، لا سيما الفاضلية(٧).

ومما أسهم أيضا في زيادة المصادر والكتب العلمية لديه ما رواه السخاوي نقلا عن شيخه، أن مصر تعرضت في هذه الفترة الزمنية لطاعون فتاك أضر باقتصاد البلاد، حتى أن بعض العلماء اضطروا لبيع كتبهم، ويذكر في ذلك "أن وصي المحدث كان لا يبيع إلا بالنقد الحاضر، فيذكر ابن الملقن قائلا : فتوجهت إلى منزلي فأخذت كيسا من الدراهم ودخلت الحلقة فصيته، فضرت لا أزيد

---

(١) جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦، ص٨٨.

(٢) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص٥٠٠-٥٧١.

(٣) ابن الملقن، تحفة النظار، تحقيق مديحة الشرقاوي، ص٢٠٠.

(٤) شذرات الذهب، ج٧، ص٤٥.

(٥) ابن الملقن، البدر المنير، ص٤٦.

(٦) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٢١٧.

(٧) المصدر السابق، ج٥، ص٤٢.

المدرسة الفاضلية بناها القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وكاتب السر والإنشاء عام ٥٨٠هـ ونسبت إليه لتدريس المذهبين الشافعي والمالكي. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٣١٩.

في الكتاب شيئا إلا قال : بع له فكان ما اشتريت مسند الإمام أحمد بثلاثين درهما[١]. وبذلك تكونت له مكتبة كبيرة حوت نفائس الكتب، حتى أن ابن حجر يقول "لم أر عند أحد بالقاهرة أكثر من كتبه"[٢].

وهكذا نرى أن ابن الملقن اقتنى هذا العدد الضخم من الكتب والأصول العلمية مما هيأ له السبيل للاستزادة العلمية والتأليف حتى أصبح واحدا من الكتاب الموسوعيين في مصر المملوكية.

العلوم المختلفة التي تخصص فيها ابن الملقن :

كما قدمنا من قبل أن ابن الملقن برز في العصر المملوكي الذي شهد علماء أفذاذا في شتى فروع العلم والمعرفة في مصر والشام، تميز معظمهم بأنهم برزوا في جميع التخصصات بدءا من العلوم الدينية بفروعها وعلوم اللغة والتاريخ وغيرها.

وهكذا سنجد أمامنا هذا الشيخ سليل أهل الأندلس يتربع على عرش التأليف في مجالات مختلفة. ليثري المكتبة العربية بمؤلفات أضافت جديدا.

أولا : المؤلفات الدينية :

(١) في علم الحديث :

يعتبر علم الحديث أشرف العلوم بعد العلم بكتاب الله سبحانه وتعالى، إذ الأحكام مبنية عليهما ومستنبطة منهما[٣].

وكان الحديث يدرس رواية ودراية، والرواية تقوم على النقل المحرر الدقيق لكل ما أضيف إلى النبي ρ من قول أو تقرير أو صفة ولكل ما أضيف من ذلك إلى الصحابة والتابعين على الرأي المختار.

وعلم الحديث دراية مجموعة من المباحث والمسائل يعرف بها حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد، فالراوي هو الذي ينقل الحديث بإسناده سواء أكان رجل أم امرأة[٤].

فقد انقسمت علوم الحديث كما أوضحنا إلى الدراية والرواية، فكانت العلوم التي درسوها للدراسة ما يعرف بأصول الحديث، وقد تشعبت مباحث هذا العلم حتى أضحت علوما نذكر منها :

(أ) علم الجرح والتعديل : وهو الذي يبحث عن الرواة من حيث ما ورد في شأنهم مما يشينهم أو يزكيهم بألفاظ مخصوصة "وهو ثمرة هذا العلم والمرقاة الكبيرة منه"[٥].

(ب) علم رجال الحديث : وهو علم يعرف به رواة الحديث من حيث أنهم رواة للحديث وأول من عرف عنه الاشتغال بهذا العلم البخاري ت٢٥٦هـ وفي طبقات ابن سعد ت٣٣٠هـ الكثير من ذلك[٦].

(ج) علم مختلف الحديث : وهو علم يبحث في الأحاديث التي ظاهرها التعارض من حيث إمكان الجمع بينها إما بتقييد مطلقها أو بتخصيص عامها. قال النووي : "هذا من أهم الأنواع ويضطر إلى معرفته جميع العلماء من الطوائف، وهو أن يأتي حديثان متضادان في المعنى ظاهرا فيوفق بينهما أو يرجح أحدهما، وإنما يكمل له الأئمة الجامعون بين الحديث والفقه والأصوليون الغواصون على المعاني[٧].

(د) علم علل الحديث : هو علم يبحث عن الأسباب الخفية الغامضة من حيث إنها تقدح في صحة الحديث كوصل منقطع ورفع موقوف وإدخال حديث في حديث وما شابه ذلك[٨].

(هـ) علم غريب الحديث : يبحث في بيان ما خفي على كثير من الناس معرفته من حديث رسول

---

(١) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٠، ابن حجر، إنباء، ج٥، ص٤٥.

(٢) ابن حجر، المصدر السابق، ج٥، ص٤٢.

(٣) السمعاني، أدب الإملاء والاستملاء، بيروت، دار الكتب العلمية،ط١، ١٤١٠هـ، ص٣.

(٤) محمد عبد العظيم الزرقاني، المنهل الحديث في علوم الحديث، القاهرة، ١٩٤٧، ص٣٥.

(٥) الحاكم النيسابوري، معرفة علوم الحديث، نشر معظم حسين، القاهرة، ١٩٣٧، ص٥٢.

(٦) صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، بيروت، دار العلم، ١٩٨١، ص١١٠.

(٧) السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٣٩٩هـ، ج٢، ص١٩٧.

(٨) صبحي الصالح، المرجع السابق، ص١١٢.

الله ρ بعد أن تطرق الفساد إلى اللسان العربي[١].

(و) علم ناسخ الحديث ومنسوخه : وهو علم يبحث عن الأحاديث المتعارضة التي لايمكن التوفيق بينها من حيث الحكم على بعضها بأنه ناسخ وعلى بعضها الآخر بأنه منسوخ، فما يثبت تقدمه يقال له منسوخ، ما يثبت تأخره يقال له ناسخ[٢].

هذه هي الموضوعات التي يبحث فيها علم الحديث والتي عمل ابن الملقن على أن يعالجها في مؤلفاته، وأن يسمع ويحفظ أحاديث رسول الله ρ حتى أصبح معدودا واحدا من أربعة من المحدثين اشتهرت بهم مصر.

قال برهان الدين سبط بن العجمي : "حفاظ مصر أربعة أشخاص وهم من مشايخي: البلقيني وهو أحفظهم لأحاديث الأحكام، والعراقي وهو أعلمهم بالصنعة، والهيثمي – لعله يريد العسقلاني – وهو أحفظهم للأحاديث من حيث هي، وابن الملقن وهو أكثرهم فوائد في الكتابة على الحديث"[٣].

وقد سمع ابن الملقن من أبي الفتح بن سيد الناس ٦٧١-٧٢٤هـ، وقطب الدين الحلبي ٦٦٤-٧٣٥هـ، وبمصر من جماعة من أصحاب ابن عبد الدائم ٥٧٥-٦٦٨هـ، وأبي عبد الله السراج الكاتب، ومحمد بن نمالي ٦٥٠-٧٤١هـ، وزين الدين عبد الرحمن بن عبد الهادي ٦٥٠-٧٤١هـ، فقد سمع عليه صحيح مسلم وغيره، وأحمد بن كشتغدي ٦٦٣-٧٤٤هـ والحسن بن سديد الدين، وأحمد بن علي بن عمر الحلبي ٧٠٠-٧٦٥هـ، وأحمد بن علي المستولي ٦٦٤-٧٤٤هـ، ومحمد بن أحمد الفاروقي ٦٦٠-٧٤١هـ، وصدر الدين أبي القاسم الميدومي ٦٦٤-٧٥٤هـ، وإبراهيم بن علي الزرزاري ت٧٤١هـ، وزين الدين أبي بكر بن قاسم الرحبي ٦٦٦-٧٤٩هـ ولازمه فقرأ عليه صحيح البخاري وتخرج به، وبالحافظ علاء الدين مغلطاي ٦٩٠-٧٦٢هـ.

وقد أثمرت دراسة ابن الملقن لعلوم الحديث بتقديم مجموعة ضخمة من المؤلفات في هذا الموضوع نذكر بعضا منها وهي :

(١) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام عن سيد الأنام للمقدسي.
(٢) إكمال تهذيب الكمال – في رجال الحديث.
(٣) إنجاز الوعد الوفي في شرح جامع الترمذي.
(٤) البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواردة في الشرح الكبير للرافعي[٤].
(٥) البلغة في أحاديث الأحكام وما اتفق عليه الشيخان[٥].
(٦) تحفة المحتاج إلى أدلة أحاديث المنهاج للبيضاوي.
(٧) التذكرة في علوم الحديث.
(٨) تذكرة المحتاج إلى أحاديث المنهاج للبيضاوي.
(٩) تلخيص المغني عن الحفظ والكتاب بقولهم لم يصح شئ في هذا الباب لأبي حفص الموصلي في الأحاديث الموضوعة.
(١٠) تذكرة الأخبار بما في الوسيط من الأخبار[٦].
(١١) خلاصة البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواردة في الشرح الكبير للرافعي.
(١٢) شرح منتقى الأحكام للمجد بن تيمية[١].

---

(١) السيوطي، تدريب الراوي، ج٢، ص١٦٢.
(٢) الحازمي، محمد بن موسى، الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار، القاهرة، ط١، ١٣٤٦هـ، ص٥، ابن حزم الأندلسي الظاهري، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، القاهرة، ١٣٩٨هـ، ج٤، ص٦٦.
(٣) ابن فهد، لحظ الألحاظ، ص٢٠١.
(٤) الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، طبع القاهرة، ١٣٤٨هـ، ج١، ص٥٠٨.
(٥) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، سنة ١٩٦٧، ج١، ص٤٣٨.
(٦) الشوكاني، المصدر السابق، ج١، ص٥٠٨.

(١٣) شرح زوائد مسلم على البخاري.
(١٤) ما تمس إليه الحاجة على سنن ابن ماجه.
(١٥) مختصر استدراك الحافظ الذهبي على مستدرك أبي عبد الله الحاكم على الصحيحين.
(١٦) مختصر كتاب ابن الصلاح مع زيادات عليه ونفائس.
(١٧) المقنع في علوم الحديث.
(١٨) النكت اللطاف في بيان الأحاديث للصنعاني[٢].

هذه هي بعض من إسهامات ابن الملقن في مجال الحديث النبوي الشريف، وهذا يدعونا إلى عرض جهد آخر بذله في هذا المجال يختص بمجالس الإملاء.

مجالس إملاء الحديث النبوي الشريف :

كانت هناك ضرورة في العصر المملوكي إلى إيجاد درس للحديث النبوي وإن كان هذا الدرس قد لازمه في حينه النقل عن المسندين بطريقة أو بأخرى من طرق التحمل "كالسماع، والقراءة، والإجازة، والمناولة، والمكاتبة، والإعلام، والوصية، والوجادة"[٣].

كانت المجالس لا تقع إلا في يوم واحد في الأسبوع وهو يوم الجمعة بعد صلاتها استئناسا بحديث رسول الله ρ "من صلى العصر ثم جلس يملي خيرا حتى يمسي كان أفضل ممن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل"[٤].

كان ابن الملقن ممن عقد مجالس الإملاء، فأملى الحديث المسلسل[٥]، ومع ذلك أخذ عليه المحدثون أنه خالف المنهج الذي عليه عامتهم[٦].

كان ابن حجر من تلامذة ابن الملقن حيث برع كأستاذه حتى كان من أئمة أصحاب مجالس الإملاء في مصر، وأطلق عليه "حافظ" وكان الإملاء يتم من كتاب يقرأ فيه المملي أو من حفظه وإن وضع كلاهما الكتاب أو الكراسة المخرجة – حال الإملاء – أمامه أو في كمه للرجوع إليها في حال السهو والنسيان، والنسيان آفة الإنسان التي سمي إنسانا من أجلها.

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

فضلا عن الاحتياج إليهما – لا محالة – عند المقابلة في آخر المجلس[٧].

(٢) علم الفقه الإسلامي :

الفقه لغة هو الفهم والعلم بالشئ والفطنة والوصول إلى أعماقه، وغلب على علم الأحكام الشرعية لشرف هذا العلم، والفقه الفهم لما ظهر، أو خفى قولا كان أو غير قول[٨].

وقد أطلق الفقه في صدر الإسلام على فهم الأحكام الشرعية سواء كانت اعتقادية أو عملية، كما أطلق على الأحكام الشرعية ذاتها كما يشير إلى ذلك قول رسول الله ρ "رب حامل فقه إلى من

---

(١) المصدر السابق.
(٢) عن هذه المؤلفات راجع : علي الرضا بلوط، وأحمد طولون قره بلوط، معجم التاريخ، التراث الإسلامي في مكتبات العالم، المخطوطات، المطبوعات، دار العقبة، قيصري، تركيا، ج١، سنة ٢٠٠١م، ص٢٢٨٤-٢٢٨٧.
(٣) محمد كمال عز الدين، مجالس الإملاء في مصر في ظل حكم سلاطين المماليك، ندوة المدارس في مصر الإسلامية، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص٣٩٠.
وعن ذلك راجع مقدمة ابن الصلاح، تحقيق عائشة عبد الرحمن.
(٤) محمد كمال، المرجع السابق، ص٣٩٢.
(٥) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٣.
(٦) ابن فهد، لحظ الألحاظ، ص٢٠٠.
(٧) محمد كمال عز الدين، المرجع السابق، ص٣٩٢.
(٨) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٩١م، مادة فقه، ص٤٧٨-٤٧٩.

هو أفقه منه"[١].

وقد ظل هذا الإطلاق حتى عصر أبي حنيفة، فإنه عرف الفقه بأنه معرفة النفس ما لها وما عليها، وكان يسمي علم الكلام الفقه الأكبر ثم صار يطلق على "العلم بالأحكام الشرعية المستنبطة من أدلتها التفصيلية، ويسمى من اتصف بها فقيها"[٢].

كانت المذاهب الأربعة سائدة في مصر ولعل أهمها الفقه الشافعي ثم المالكي ثم الحنفي ثم الحنبلي، "وقد جرى خلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول الفقهية وجرت بينهم المناظرات في تصحيح فهم كل منهم مذهب إمامه تجري على أصول صحيحة وطرائق قديمة، يحتج كل على مذهبه الذي قلده وتمسك به وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الفقه.... وكان في هذه المناظرات بيان وأخذ هؤلاء الأئمة ومثارات اختلافهم، ومواقع اجتهادهم، كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات، ولابد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد، إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط، وصاحب الخلافيات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلته"[٣].

وهناك مذاهب أخرى تفرعت عن هذه المذاهب السنية، ومن أهمها أفكار المعتزلة[٤]، والماتريدية والكلابية[٥] التي خرجت عنها العقيدة الأشعرية، والتي تستند على أنها جزء من المذهب الشافعي.

ولعل تركيزنا على ذلك يرجع إلى أن ابن الملقن كان واحدا من الذين أخذوا بالمذهب الأشعري، وهو الذي ينسب إلى أبي الحسن الأشعري الذي كان من أتباع محمد بن سعيد بن كلاب صاحب المدرسة الفكرية التي أشرنا أنها أخذت بآراء المعتزلة، لكن الأشعري ذاع صيته أكثر من أستاذه مما جعل الذين يأخذون بآرائه ينسبون إليه ويطلق عليهم أشاعرة[٦].

ولابد أن نوضح هنا أن هذا المذهب قد ساد في مصر والشام من عصر السلاجقة والزنكيين خاصة من أيام الوزير نظام الملك الذي تولى الوزارة لسلاطين السلاجقة ٤٤٥-٤٨٥هـ[٧] والذي كان يعمل على الانتصار لمذهب السنة عند أهل الرفض والبدع، حيث يعتبر المذهب الأشعري جزء من المذهب الشافعي.

استمر هذا المذهب في عصر الدولة الأيوبية بدءا من صلاح الدين الأيوبي ويؤكد على ذلك المقريزي بقوله "فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري، وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بني أيوب، ثم في أيام مواليهم

---

(١) بدران أبو العينين بدران، تاريخ الفقه الإسلامي، بيروت، دار النهضة العربية، د.ت، ص١١.

(٢) ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، القاهرة، ١٩٦٨م، ج٢، ص٢٦٤.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، مجلد ١، ص٨١٩.

(٤) إحدى الفرق الإسلامية التي ظهرت في العصر العباسي الأول ومن علماء الكلام لهم آراء في خلق القرآن الكريم حيث وافقهم المأمون على ذلك، كانت لهم آراء في التوحيد وفي المكان والرؤية، وفي قدرة الله سبحانه وتعالى وعلمه واختلفوا في كون الله لم يزل سميعا بصيرا، وفي سائر صفات الله وكان ذلك أثر من آثار المذاهب اليونانية التي انتشرت خاصة فلسفة أرسطو، ومن أبرز متكلميهم أبو الهذيل العرف.

انظر : الشهرستاني، الملل والنحل، القاهرة، ١٣١٧هـ، ص٨٠-٨١، البغدادي، الفرق بين الفرق، القاهرة، ١٩١٠م، ص٢٦٠-٢٦١.

(٥) الكلابية تنسب إلى محمد بن سعيد بن كلاب البصري وكان من كبار الذين أخذوا ببعض آراء المعتزلة وله مدرسة فكرية كبيرة اتبعها معظم الأشاعرة.

البغدادي، الفرق بين الفرق،

(٦) عنهم انظر : عبد الرحمن صالح الحمود، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤١٦هـ، ص٤٩٥-٤٩٨.

(٧) أبو شامة، كتاب الروضتين، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، ١٩٦٢، ج٢، ص٢٥، ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، ١٣٥١هـ، ج٨، ص٦٤-٦٨.

الملوك من الأتراك"[١].

ولعل أبرز الملامح الواضحة آنذاك أن جمهرة من العلماء اعتمدوه ونصروه خاصة فقهاء الشافعية والمالكية المتأخرين[٢].

أما الحنابلة فلم يأخذوا بهذا المذهب ولذا كانوا هم أهل المعارضة والجدل مع الأشاعرة، وبما أن ابن الملقن بدأ مالكيا ثم استقر شافعيا، لذا كان واحدا ممن أخذوا بهذا المذهب ونصروه وألفوا فيه.

وقد عارض علماء الحنابلة اعتقاد ابن الملقن في الأشعرية، فنرى آراء هاجمته وهاجمت عقيدته منها "أن ابن الملقن عاصر دولة المماليك التي كانت راعية هذه المناهج التي هجرت كتاب الله وسنة نبيه ρ في الاعتقاد وبالأخص ما يخالف عقيدة السلف الصالح، وذلك بالتمسك بما كان قد اعتقده أبو الحسن الأشعري قبل انتقاله إلى مذهب أهل السنة والجماعة، فقد ساروا على نهجه ونبذوا خلافه وقهروا الناس وامتحنوهم حتى أصبحت لهذا المذهب المكانة في قلوب الناس عامهم وخاصهم، وصار هو الذي يدرس في المساجد ويخطب به على المنابر ويلقن الصغار في بيوتهم ومدارسهم"[٣].

ورأي آخر في ابن الملقن يحاول أن يثبت فيه فساد عقيدته وفساد المذهب الأشعري وهو لعالم من العلماء الحنابلة يقول "أن ابن الملقن كان يؤول اليد بالقدرة فعند كلامه على حديث : يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى..." قال بعد أن ذكر عدة معان لليد في كلام العرب : "واليد هنا : القدرة، وإحاطته بجميع مخلوقاته، يقال : ما فلان إلا في قبضتي بمعنى قدرتي، والناس يقولون : الأشياء في قبضة الله : يريدون في ملكه وقدرته[٤].

وكذا يذهب في الاستواء والعلو فهو ينفي أن يكون الله سبحانه وتعالى في جهة العلو، إذ الباري – سبحانه – لا تحويه جهة، إذ كان موجودا ولا جهة، ولأن ذلك يوجب كونه جسما، والأدلة قامت على أنه ليس بجسم وليس محتاجا إلى مكان يحله ويستقر فيه لأنه سبحانه كان ولا مكان، ثم خلق المكان، فمحال كونه غنيا من المكان قبل خلقه إياه، ثم يحتاج إليه بعد خلقه له.

وهو - مع ذلك – يرد قول المعتزلة بأن الاستواء بمعنى الاستيلاء والقهر والغلبة لأنه لا يقال استولى إلا لمن لم يكن مستوليا.

وهو يرى تأويل استولى بمعنى علا، وأنه مذهب أهل السنة والحق ولكنه يجعل هذا العلو علوا معنويا كما في قوله تعالى "تعالى الله عما يشركون"[٥].

أو يكون الاستواء بمعنى الملك للشئ والقدرة عليه، أو أنه بمعنى التمام للشئ والفراغ منه كما في قوله تعالى "ولما بلغ أشده واستوى"، فقوله سبحانه "على العرش استوى" أراد التمام للخلق كله، وإنما قصد ذكر العرش لأنه أعظم الأشياء.

ويرى ابن الملقن أن تأويل الاستواء بالمعنى الموجود في قوله تعالى "ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه" يكون حلولا، وهذا منتف عن الله جل وعلا، لأن الحلول يدل على التحديد والتناهي، فبطل أن يكون حالا على العرش بهذا الوجه[٦].

وكذا يذهب ابن الملقن في إتيان الله جل وعلا فيؤوله ويقول بأنه ليس إتيانا على الحقيقة[٧].

وكذا يذهب في الكلام مذهب الأشاعرة المعروف من أنه الكلام النفسي وأنه معنى واحد قائم بذات الله لا يتجزأ، وأن القرآن الكريم عبارة عنه[٨].

ويرى محقق البدر المنير وهو من الحنابلة أيضا أن مذهب ابن الملقن مختلف عن مذهب أهل

---

(١) الخطط، القاهرة، طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ، ج٢، ص٣٥٨.

(٢) عبد الرحمن صالح، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، ص٥٥٢.

(٣) عبد العزيز المشيقح، مقدمة تحقيق كتاب الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن، ص٣٤.

(٤) ابن الملقن، شرح صحيح البخاري، ج٤، ق١٣٦-١٣٨.

(٥) مصطفى أبو الغيط وآخرون، مقدمة تحقيق كتاب البدر المنير في تخريج الأحاديث لابن الملقن، ص٤٨.

(٦) ابن الملقن، شرح البخاري، ج٤، ق٨٣٩/ب.

(٧) المصدر السابق، ج٤، ق٨٤٥.

(٨) مصطفى أبو الغيط، تحقيق البدر المنير، مقدمة المحقق، ص٤٩.

السنة والجماعة فيقول : "ومذهب أهل السنة خلاف ذلك كما هو معروف، والله أعلم"[١].

وقد أثمرت مؤلفات ابن الملقن في مجال الفقه الشافعي الأشعري عن مجموعة كبيرة من المؤلفات تركت أثرها علي الحياة العلمية في مصر والشام، فكانت مادة علمية للدراسة والتعليم ومن أبرزها :

(١) الأشباه والنظائر في الفقه الشافعي "جعل كتابه مرتبا على الأبواب" [٢]
(٢) الإشارات إلى ما وقع في المنهاج النووي من الأسماء والأماكن واللغات
(٣) تحرير الفتاوى الواقعة في الحاوي "في الفقه"
(٤) تلخيص كتاب الوقوف على الموقوف
(٥) خلاصة الفتاوى في تسهيل أسرار الحاوي للقزويني
(٦) شرح منهاج الطالبين وعمدة المتقين للنووي[٣]
(٧) شرح مختصر الوجيز
(٨) عجالة المحتاج إلى توجيه المنهاج للنووي
(٩) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب "طبقات الشافعية"
(١٠) عمدة المحتاج إلى كتاب المنهاج، شرح منهاج الطالبين في الفقه الشافعي
(١١) عمدة المفيد وتذكرة المستفيد في الفقه
(١٢) جمع الجوامع، جمع فيه بين كتب الفقه المعتمدة في عصره للشافعية ونبه على ما أهملوه.
(١٣) غنية الفقيه في شرح التنبيه في الفقه الشافعي
(١٤) مختصر الوقوف على الموقوف
(١٥) هادي النبيه في تدريس التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي[٤]

هذه نماذج فقط لمؤلفات ابن الملقن في الفقه الشافعي والتي أثرت الحياة العلمية في هذه المرحلة التاريخية، وشجعت الكثيرين على البحث، والرد، والجدل مما جعله من أئمة العلماء في هذا الفرع من العلوم الدينية.

ثانيا : الدراسات اللغوية :

(١) النحـــو :

رأينا كيف كان والد ابن الملقن عالما نحويا كبيرا اكتسب هذا العلم من علماء الأندلس وحمله في عقله وصوره إلى بلاد التكرور ثم إلى مصر، وتتلمذ على يديه طلاب العلم حيث ذاعت شهرته حتى أنه بعد موته اشتهر إبنه باسم ابن النحوي، وهو اللقب المحبب إلى قلبه دون لقب ابن الملقن.

لذلك رأينا أن الابن عمر سار على نهج أبيه في الاهتمام بالدراسات العربية والنحوية حيث إن علم النحو يعتبر من أسمى العلوم وأنفعها أثرا به يستقيم البيان ويتثقف أود اللسان، وبه يسلم الكتاب والسنة من عادية اللحن والتحريف وهو موئل الدين وذخيرة المسلمين وبه يستبين سبيل العلوم على تنوع مقاصدها وتفاوت ثمارها فهو ذخيرة كل متعلم وعماد من ينبغي لنفسه السداد والرشاد في كل العلوم التي يزاولها[٥].

"إذن به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة"[٦].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) ابن الملقن، الأشباه والنظائر، ص١٦٣.
(٣) علي الرضا قره بلوط، معجم التاريخ "التراث الإسلامي"، دار العقبة، قيصري، تركيا، ج١، ٢٠٠١م، ص٢٢٨٦.
أطلق عليه ابن الملقن في كتاب العقد المذهب، عجالة المحتاج إلى توجيه المنهاج، محمد كمال عز الدين، ابن الملقن مؤرخا، ملحق رقم ١، ص٦٩.
(٤) علي الرضا قره بلوط، معجم التاريخ، تركيا، ص٢٢٨٦-٢٢٨٧، الشوكاني، البدر، ج١، ص٥٠٩.
(٥) محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاه، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ص٩-١٠.
(٦) ابن خلدون، المقدمة، ص١٠٥٦.

إذا لا يتسنى فهم أي من العلوم الدينية دون معرفة بعلم النحو.

ومن مؤلفاته في هذا المجال :

(١) شرح ألفية ابن مالك. وهي منظومة من ألف بيت في النحو لابن مالك النحوي الأندلسي[١]. ولعل هذا المؤلف هو أثر من آثار الثقافة الأندلسية على مصر والشام.

(٢) كتاب فيه ثلاثة فنون ألغاز، وتخريج فروع على أصول وتخريج "فروع على العربية".

وقد كان لأساتذته في هذا المجال الدور الكبير في تثقيفه ومنهم أبي حيان الغرناطي ٦٥٤-٧٤٥هـ وهو أندلسي الأصل[٢]. وجمال الدين هشام ٧٠٨-٧٦١هـ[٣]، وشمس الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الصائغ ٧٠٨-٧٧٦هـ[٤].

ثالثا : علم التاريخ والطبقات :

لقد أشرت من قبل إلى أن ابن الملقن يعتبر من العلماء الموسوعيين لذا فقد تعددت مواهبه وبرز ذلك في التخصصات المختلفة التي تناولها بالبحث والتأليف، وكان علم التاريخ والطبقات والتراجم مجالا رحبا برزت فيه مواهبه، وخرجت لنا مجموعة كبيرة من المؤلفات التي تعتبر مصادر مهمة للدارسين في هذا المجال.

وقد قدم الدكتور محمد كمال عز الدين دراسة متخصصة تحت عنوان "ابن الملقن مؤرخا" قدم فيها مؤلفاته التي تعد من المؤلفات الداخلة في نطاق الكتابة التاريخية حيث عالجها في دراسة منهجية متخصصة[٥].

لذا سنعرض هنا فقط للأعمال التاريخية التي لم ترد في هذا المؤلف، إضافة إلى ما قدمه فيه.

(١) تهذيب ابن هشام[٦].

(٢) غاربة السؤل في خصائص الرسول ρ، قرأها عليه البرهان الحلبي[٧]. ويسميه بروكلمان – خصائص أفضل المخلوقين – وقد ألفه ابن الملقن سنة ٧٥٨هـ وهو في الخصائص النبوية[٨].

(٣) مختصر دلائل النبوة للبيهقي ت٤٥٨هـ[٩].

(٤) نزهة العارفين في تواريخ المتقدمين، ويسمى كذلك "تاريخ ابن الملقن" لما يسمى "تاريخ الدولة التركية" وموضوعه أخبار الدولة التركية[١٠].

(٥) طبقات المحدثين من زمن الصحابة "حتى زمن ابن الملقن"[١١].

(٦) طبقات القراء[١٢].

(٧) طبقات الصوفية أو ما عرف بطبقات الأولياء، وهو كتاب جمعه في تراجم مشايخ الصوفية منذ منتصف القرن الثاني الهجري إلى أيام تدوينه هذه المجموعة في العقد التاسع من القرن الثامن الهجري، وهو بذلك يهتم بالصوفية بعد القرن الخامس، وأهميته ترجع إلى أنه في تراجم الصوفية في القرنين السابع والثامن ينقل عنهم مباشرة أو عن الجيل الذي

---

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون، ص١٥٣.

(٢) ابن حجر، الدرر، ج٥، ص٧٠-٧١.

(٣) ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٤١٥-٤١٨.

(٤) ابن حجر، الدرر، ج٢، ص١١٩.

(٥) ارجع إلى محمد كمال عز الدين، ابن الملقن مؤرخا، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٦) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠١.

(٧) المصدر السابق، ص١٠٢.

(٨) حاجي خليفة، كشف الظنون، ص٧٠٦.

(٩) المصدر السابق، ص٧٦٠.

(١٠) المصدر السابق، ص٧٨٠.

(١١) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠١.

(١٢) حاجي خليفة، كشف الظنون، ص١١٠٦.

عاصرهم[١].

ويعلق أحد الباحثين الناقمين على ابن الملقن قائلا : "أما صوفيته فكيفي أنه له مؤلف سماه "طبقات الأولياء" ساق فيه العجب العجاب من الاطلاع على المغيبات وإحياء الموتى، وإظهار ما غيب في النفوس فكل هذا أثر من آثار دولة المماليك"[٢].

(٨) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب وذيله. في طبقات الشافعية من زمن الشافعي إلى عام سبعمائة وسبعين فاشتمل على نحو ألف ومائتي ترجمة وزعت على ثلاث طبقات رئيسية أخذ من طبقات الأسنوي وابن كثير والسبكي فلخص وزاد وحرر[٣].

ولعل أهم ما في هذا المؤلف أن صاحبه اتبع أصل الكتاب إجازة عامة منه لمن أدرك حياته من المسلمين برواية مؤلفاته.

"وقد أجزت لمن أدرك حياتي من المسلمين رواية هذا التأليف المبارك مع الذيل الآتي عليه أيضا، وما يسره الله على يدي من التصانيف"[٤].

(٩) درر الجواهر في ذكر شئ من مناقب سيدي عبد القادر. والمقصود به الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهذا يرتبط ارتباطا وثيقا بشيوخ المتصوفة ومدى ارتباط ابن الملقن بهم.

(١٠) نزهة النظار في قضاة الأمصار.

ويسميه حاجي خليفة أخبار قضاة مصر[٥].

ويؤرخ فيه ابن الملقن كما ورد في كتابه "فمعرفة قضاة مصر وأخبارها وطبقاتهم على تباين أنواعها وأجناسها وفوائدها المهمة وفرائدها من الطرف الجليلة ومهماتها ومن يرحل إليه إلى البلاد الشاسعة سهلها وأوعارها، وقد اعتنى الأئمة بذلك لشرحها وإفصالها كأبي عمر الكندي، وأبي محمد الفرغاني، وأبي الحسن بن زولاق فيما ذيلاه وقبلهم سعيد بن أبي مريم.... وقد لخصت ما ذكروه مهذاب ما فعلوه محررا مايسطرونه، مذيلا عليهم قرنا كاملا وتيفا موصلا ذلك إلى سنة عاشر وسبعمائة"[٦].

رتب ابن الملقن القضاة طبقة بعد طبقة، وأورد في آخره منظومة في أسماء القضاة.

ولعل أهم ما يميز هذا المؤلف أنه موجز سريع ومقتضب لسير قضاة مصر من الشافعية وأخبارهم، وإن أسقط منه ترجمات الكثير من قضاتها مما جعله لا يشفي غليلا على حد قول ابن حجر العسقلاني فيه[٧].

ابن الملقن متصوفا

قبل أن نعرض لانغماس ابن الملقن في حركة التصوف، لابد لنا من وقفة تاريخية نعرض فيها للتصوف كظاهرة دينية بدأت في مصر والشام في صورة فردية محدودة حتى كان عصر صلاح الدين الأيوبي الذي بنى منازل لهم عرفت بالخانقاوات وأولها خانقاه سعيد السعداء سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م، وولى عليها شيخا عرف بشيخ الشيوخ[٨].

ولا يخفى علينا أن التصوف ليس مجرد ظاهرة دينية وإنما هو أيضا ظاهرة اجتماعية خطيرة، وكان أن وفد على مصر في العصرين الأيوبي والمماليكي كثير من زعماء المتصوفة ومشايخهم – وبخاصة من بلاد المغرب والأندلس – وهؤلاء أشاعوا حياة الزهد والتقشف[٩].

---

(١) نور الدين شريبة، مقدمة تحقيق طبقات الأولياء، ص٦٨.

(٢) عبد العزيز المشيقح، مقدمة تحقيق "الإعلام بفوائد عمدة الأحكام لابن الملقن"، ص٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص٦١.

(٤) المقصود كتاب العقد المذهب في طبقات حملة المذهب وقد وردت هذه الإجازة تلوه متوسطة بينه وبين ذيله. محمد كمال عز الدين، المرجع السابق، ملحق رقم ١، ص٦٩.

(٥) كشف الظنون، ت٢٧.

(٦) انظر : ابن الملقن، نزهة النظار، تحقيق مديحة الشرقاوي، ص٩٢-٩٣.

(٧) محمد كمال، ابن الملقن مؤرخا، ص٦٣.

(٨) سعيد عاشور، الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٠م، ص١٣٨.

(٩) المرجع السابق.

معنى ذلك أن التصوف وافد من بلاد الأندلس بدليل مشايخ الصوفية المشهورين الكبار أمثال أبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي، وأبي القاسم القباري، ياقوت العرش، وغيرهم وكلهم لعبوا دورا كبيرا في مصر في هذه المرحلة[١].

لذلك ليس بمستغرب أن تسيطر هذه الحالة الدينية على عقل وقلب ابن الملقن، وهو أولا سليل الأندلسيين، وثانيا يعيش بكل طاقته الفكرية والدينية والعقائدية في عصر المماليك وعاصر أبناء الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده، وتزامن أيضا مع السلطان برقوق الذي رتب للمدرسة التي أنشأها بين القصرين عددا من الصوفية "وقدر لهم مرتبات وفيرة"[٢]، أما عامة الشعب المصري في عصر سلاطين المماليك فقد آمنوا بالصوفية إيمانا راسخا فقصدوهم لقضاء حوائجهم ومشاركتهم في أذكارهم ووصفوا الصوفية بأنهم "ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء"[٣].

ويذكر أن ابن الملقن كان ممن لبسوا خرقة التصوف وألبسوها وهو يذكر في آخر كتاب "طبقات الأولياء" سلاسل خرقة بأسانيد كأسانيد الحديث، فمرة ينتهي السند إلى أويس القرني عن عمر وعلي عن رسول الله ρ، ومرة إلى عائشة رضي الله عنها موقوفا، وثالثة إلى علقمة عن ابن مسعود عن رسول الله ρ[٤].

ولا ريب في وهاء هذه الأسانيد وبطلانها. قال السخاوي[٥] : حديث لبس الخرقة الصوفية وكون الحسن البصري لبسها من علي، قال ابن دحية وابن الصلاح : إنه باطل. وكذا قال شيخنا، أي ابن حجر : إنه ليس في شئ من طرقها ما يثبت، ولم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أن النبي ρ ألبس الخرقة على هذه الصورة المتعارفة بين الصوفية لأحد من أصحابه، ولا أمر أحدا من أصحابه بفعل ذلك، وكل ما يروى في ذلك صريحا فباطل.... الخ[٦].

وكان ابن الملقن رحمه الله من المؤمنين بوجود الخضر لله، ويذكر في طبقات الأولياء[٧] قصتين في اجتماعه بالخضر وكل هذا من آثار تصوفه، وفي كتابه المشار إليه من هذا القبيل، عجائب وغرائب[٨].

ومما يؤكد تعلقه بمشايخ الصوفية ما قدمه في الغاية من تأليفه لكتاب "طبقات الصوفية" أو الأولياء "جمعتهم لأقتدي بمآثرهم، وأقتفي بآثارهم رجاء أن أنظم في سلكهم، فالمرء مع من أحب، وأحيا بذكرهم ويزول عني النصب"[٩].

وبذلك أصبح هذا المؤلف معبرا تماما عن فكر ابن الملقن وما اعتقده، حتى أصبح عبارة عن موسوعة صوفية يتعرف من خلالها على الجانب الصوفي من الفكر العربي الإسلامي في هذه الفترة، إذ لا يخفى أن الصوفية كانوا مشاركين في مادته بالكثير من الآراء[١٠]. حتى نراه يقدم أمثلة لخرافات كثيرة دون تمحيص أو نقد مثل : ".. قال أبو عبد الرحمن الزهري : قبره معروف لقضاء الحوائج يقال إنه من قرأ عنده مائة مرة "قل هو الله أحد" وسأل الله ما يريد قضى حاجته[١١]... إلى غير ذلك من الأمثلة.

وهكذا نرى أن ابن الملقن كان صورة لعصره وللثقافة والفكر السائد آنذاك، كما كان امتدادا

---

(١) عن هؤلاء المتصوفة. انظر : عفاف صبره، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية "دور الفقهاء وعلماء المسلمين في جهاد الصليبيين"، القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٥.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٢، ص١١٣، المقريزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٩٤٦.

(٣) عاشور، المرجع السابق، ص٣٢١.

(٤) ابن الملقن، البدر المنير، مقدمة المحقق، ص٤٩. فلقد صرح ابن الملقن أنه لبس الخرقة أو الطاقية عن بعضهم وزيارته لهم أحياء وأموات والامتثال لنصائحهم. راجع صفحات ٤٩٤ – ٥١٠ – ٥٤٧ وغيرها.

(٥) السخاوي، المقاصد الحسنة، ص٣٣١.

(٦) ابن الملقن، البدر المنير، ص٤٩.

(٧) انظر ص٥٥٩.

(٨) راجع طبقات الأولياء.

(٩) ابن الملقن، طبقات الأولياء، تحقيق شريبة، ص٣.

(١٠) محمد كمال، ابن الملقن مؤرخا، ص٢٨.

(١١) نفسه، ص٣٠.

لآبائه وأجداده الأندلسيين الذين نقلوا إلى مصر أولا والشام ثانيا حركة التصوف والزهد التي اختلفت حولها آراء العلماء والفقهاء، ونالت دراسات عديدة قديم وحديثة.

أثر مؤلفات ابن الملقن على الحركة الفكرية في العصر المملوكي

ازدهرت الحركة العلمية في مصر في عصر سلاطين المماليك ازدهارا واسعا فغدت هذه الدولة محورا لنشاط علمي متعدد الأطراف، ويرجع ذلك إلى ما أصاب العالم الإسلامي في المشرق على أيدي التتار وفي الأندلس على أيدي الصليبيين من كوارث فضلا عما أصاب بلاد الشام بسبب هجمات الصليبيين والتتار جميعا، وفي وسط تلك الغمة التي ألمت بالوطن الإسلامي لم يجد علماء المشرق والمغرب بلدا إسلاميا آمنا سوى مصر التي غدت منذ القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي مركزا للخلافة العباسية "وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء"[١].

وإذا أردنا أن نثبت مدى إسهام ابن الملقن كواحد من علماء هذا العصر على هذه الحركة الفكرية نرى أنه "ألف حوالي ثلثمائة مجلدة ما بين كبير وصغير وعنده من الكتب ما لا يدخل تحت الحصر"[٢]. كما ذكر البرهان الحلبي "كان فريد وقته في كثرة التصنيف وعبارته فيها جلية جيدة وغرايبه كثيرة"[٣].

وقد عرضنا من قبل نموذجا فقط لبعض المؤلفات في مجالات العلوم الدينية والعربية وعلم التاريخ، وهي العلوم التي شكلت السمة الثقافية الأساسية للعصر المملوكي فرأيناه في علم الحديث مصححا ومرتبا ومختصرا لمؤلفات من سبقوه ومضيفا إليها ومعلقا عليها كما كان شارحا كبيرا لها حيث نجح في توصيل هذه المعلومات إلى أبناء جيله ومن جاءوا بعده، وفي كتب الفقه الإسلامي قام بنفس الدور حيث كان للفقه الشافعي المكانة الأولى عنده رغم أنه بدأ مالكيا كما أوضحنا من قبل.

وقد عرضنا لمؤلفاته النحوية، التي كانت أقرب العلوم إلى قلبه لأنها تخصص والده – رحمه الله – وكذلك المؤلفات التاريخية وكتب الطبقات وهي من العلوم الإسلامية الأولى حتى أننا سنجد أثر ذلك الواضح على تلاميذه الذين سيتتلمذوا على يديه وسيكونوا أعلاما كبارا في جميع هذه العلوم.

أبرز تلاميذ ابن الملقن :

عادة ما تكون شهرة العالم سببا في كثر التلاميذ ورحلتهم إليه من أقطار كثيرة، وقد حظى ابن الملقن بالشئ الكثير من ذلك، ومن أهم الأسباب[٤] :

(١) شهرة ابن الملقن، فكانت شهرته وعظمته من أسباب إقبال الطلاب عليه.

(٢) دماثة أخلاقه ورحابة صدره.

(٣) كثرة مصنفاته واشتهارها في زمن مبكر من عمره حيث اشتغل بالتصنيف وهو شاب.

(٤) رحلاته إلى بلاد الشام والقدس الشريف والحرمين الشريفين، فاشتهر أمره.

ومن أبرز هؤلاء التلاميذ على سبيل المثال، إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي المعروف بسبط ابن العجمي حافظ بلاد الشام، كتب عنه شرحه للبخاري وهو من أبرز علماء بلاد الشام، وقرأ في الفقه على ابن الملقن والبلقيني، وزار مصر مرتين والتقى بالعلماء[٥]. وكذلك ابن حافظ العراقي أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الولي أبو زرعة الحافظ المشهور ت٨٢٦هـ، وقد قدم به أبوه إلى مصر بعد أن كان ببلاد الشام "واجتهد في استيفاء شيوخ الديار المصرية، وكان ابن الملقن أحد العلماء الذين أذنوا له بالإفتاء والتدريس"[٦].

ومن التلاميذ الذين برزوا وتعلموا على يد ابن الملقن أحمد بن عثمان بن محمد الشهاب الريشي القاهري المعروف بالكوم الريشي، عرض عمدة الأحكام على ابن الملقن[٧].

أما أبرز تلاميذ ابن الملقن فهما المقريزي الإمام والعالم والمؤرخ المشهور، وكذلك ابن

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٨٦.

(٢) ابن حجر، الشوكاني، البدر، ج١، ص٥١٠.

(٣) البرهان الحلبي

(٤) ابن الملقن، الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، تحقيق عبد العزيز المشيقح، مقدمة التحقيق، ص٣٠.

(٥) الشوكاني، البدر، ج١، ص٢٨، ترجمة ١٦.

(٦) الشوكاني، نفسه، ج١، ص٧٣، ترجمة ٤١.

(٧) ابن الملقن، الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، ص٣١.

حجر، الإمام الكبير، خاتمة الحفاظ.

أما المقريزي فهو تقي الدين، ولد سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م العالم والمؤرخ الكبير الذي ذاع في الآفاق صيته، ودرس على أئمة هذا العصر وشيوخه ومنهم ابن الملقن[١]، الذي يذكر "أنه كان أعذب الناس ألفاظا وأحسنهم خلقا وأعظمهم محاضرة، صحبته سنين وأخذت عنه كثيرا من مروياته ومصنفاته"[٢].

وكذلك ابن حجر الذي تفقه على ابن الملقن وقرأ عليه في الحديث أيضا، وقد ذكر الحافظ ابن حجر ما قرأه على شيخه في معجمه فقال : "قرأت على الشيخ قطعة كبيرة من شرحه الكبير على المنهاج وأجاز لي، وقرأت عليه الجزئين السادس والسابع من أمالي المخلص" ثم قال : "وسمعت منه المسلسل بالأولية والجزء الخامس من مشيخة النجيب تخريج أبي العباس بن الطاهري". وقد استفاد منه ابن حجر في دروسه وانتفع بكتبه[٣].

ويذكر السخاوي أن أخص أساتذته كان منهم "ابن الملقن في كثرة التصانيف"[٤].

نضيف إلى تلامذة ابن الملقن الذين أثروا الحياة العلمية في العصر المملوكي ونقدم تلميذه العالم الكبير محمد بن علي التقي أبو عبد الله الحسني الفاسي شيخ الإسلام وصاحب الكتاب المشهور "شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام" ت٨٦٤هـ وكان شيخا للحرم ونشأ بمكة والمدينة المنورة،... ودخل القاهرة غير مرة فقرأ على البلقيني وابن الملقن والعراقي والهيثمي وغيرهم[٥].

أما الآخر فهو محمد بن موسى بن عيسى الكمال أبو البقاء الدميري صاحب كتاب "حياة الحيوان" ت٨٠٨هـ، والذي ولد ونشأ بالقاهرة، وأقبل على العلم فقرأ على التقي السبكي وأبي الفضل النويري والجمال الإسنوي وابن الملقن والبلقيني[٦].

وعندنا العالم الحافظ أحمد بن نصر الله بن أحمد التستري.

وكذلك أحمد بن عماد بن يوسف، أبو العباس الأقفهسي ثم القاهري. يعرف بابن العماد ت٨٠٨هـ، قرأ على الأسنوي والبلقيني والباجي وابن الملقن[٧]. حتى أنه ذكر عن أستاذه أنه "تفقه وبرع وصنف وجمع وأفتى ودرس وحدث وسارت مصنفاته في الأقطار، وقد لقينا خلقا ممن أخذ عنه دراية ورواية"[٨].

هؤلاء صفوة من العلماء والطلاب الذين درسوا على يد ابن الملقن، وكانوا مع أساتذتهم الشعاع الذي أضاء مصر والشام فكريا في العصر المملوكي.

نقد شخصية ابن الملقن إيجابا وسلبا

تعرضت أعمال ابن الملقن – كأي إنسان لآراء نقدية كثيرة تنوعت ما بين الثناء والمديح ورفع شأنه بين أقرانه، وبين التقريظ والهجوم والنيل منه.

والواقع أن هذا ليس بغريب وخاصة بين أبناء المهنة الواحدة والذين تختلف طباعهم وأخلاقهم ونوازعهم، فأحيانا يحكم الإنسان على غيره حكما عادلا بعيدا عن الحسد والغيرة والتنافس الغير شريف، وأحيانا أخرى نرى من يقذف أحكاما بعيدة عن الحقيقة لتنال من شخصية العالم وتهوى به تعبيرا عما يجيش في صدره ضده من حسد وحقد، لذلك كانت هذه هي السمة البارزة بين علماء العصر المملوكي وغيره من العصور، وربما ظهرت واضحة بصورة أكبر في المرحلة التالية على زمان ابن الملقن والتي برزت فيها العداوة الكبيرة من قبل ثلاثة من العلماء وهم شمس

---

(١) انظر ترجمته في السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٢١-٢٥.

(٢) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٥.

(٣) ابن الملقن، الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، مقدمة المحقق، ص٣١.

(٤) الضوء، ج٢، ص٣٧-٣٨.

(٥) عن التقي الفاسي ارجع إلى الشوكاني، البدر، ج٢، ص١١٤، السخاوي، الضوء، ج٧، ص١٨-٢٠، ابن حجر، إنباء، ج٣، ص٤٢٩، ابن فهد المكي، لحظ الألحاظ، ص٢٩١-٢٩٢.

(٦) الشوكاني، البدر، ج٢، ص٢٧٢.

(٧) الشوكاني، البدر، ج١، ص٩٣.

(٨) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٥.

الدين السخاوي، والقسطلاني أحمد بن محمد أبي بكر، وبرهان الدين بن الكركي[١] ضد العالم جلال الدين السيوطي والتي تعتبر معاركهم معه من أبرز المعارك على الساحة الثقافية.

معنى ذلك أن المعارك الدائرة بين العلماء قائمة ومستمرة، لذلك سنجد أمامنا نقدا إيجابيا يمثل كما ذكرت ثناء وآخر قدحا وتقريظا.

الآراء التي امتدحت ابن الملقن :

كان العلماء يعظموه وقد ترجم له جماعة من أقرانه، فقد وصفه الحافظ العلائي بقوله "الشيخ الإمام العالم المحدث الحافظ المتيقن سراج الدين شرف الفقهاء والمحدثين وقدوة المصنفين"[٢].

وذكر القاضي محمد بن عبد الرحمن العثماني قاضي صفد في كتابه "طبقات الفقهاء" أنه أحد مشايخ الإسلام صاحب المصنفات التي ما فتح على غيره بمثلها في هذه الأوقات"[٣].

وصفه الغماري في شهادة عليه "بالشيخ الإمام علم الأعلام فخر الأنام، أحد مشايخ الإسلام، علامة العصر بقية المصنفين علم المفيدين والمدرسين، سيف المناظرين مفتي المسلمين"[٤].

أما البرهان الحلبي قال فيه "أنه كان فريد وقته في التصنيف وعبارته فيها جلية جيدة وغرائبه كثيرة وشكالته حسنة، وكذا خلقه مع التواضع والإحسان"[٥].

أما الشيخ ابن حجر فقال عنه "أنه كان مديد القامة حسن الصورة يحب المزاح والمداعبة مع ملازمة الاشتغال والكتابة، حسن المحاضرة، جميل الأخلاق، كثير الإنصاف، شديد القيام مع أصحابه موسعا عليه في الدنيا، مشهورا بكثرة التصانيف"[٦].

وقد عرضنا من قبل لرأي الصلاح الأقفهسي والمقريزي وكلاهما أثنى عليه ثناء بالغا.

أما أبو البقاء تاج الدين السبكي فقد عظمه ووصفه أبو الفضل العراقي في طبقاته بالشيخ الإمام الحافظ[٧].

وقد شهد له المؤرخ الكبير جلال الدين السيوطي بأنه "الإمام الفقيه ذو التصانيف الكثيرة، برع في الفقه والحديث"[٨].

أما ابن قاضي شهبة فذكر في طبقاته للشافعية "الشيخ الإمام العالم العلامة عمدة المصنفين"[٩].

وهكذا تتوالى أمامنا هذه الآراء والأحكام الإيجابية على شخص وعلم ابن الملقن والتي نضم صوتنا إليهم مؤيدين إسهاماته الكبيرة في عالم الفكر والمعرفة في العصر المملوكي.

لكن تتراءى أمامنا الآن آراء أخرى حاولت النيل منه ومن علمه، والغريب أن من هذه الشخصيات التي تهاجمه كانوا ممن أثنوا عليه ومدحوه وتعلموا على يديه أمثال تلميذه ابن حجر العسقلاني، الذي قال عنه : "أنه كان يكتب في كل فن سواء أتقنه أم لم يتقنه، قال : ولم يكن في الحديث بالمتقن ولا له ذوق أهل الفن"[١٠].

ومما أخذ عليه أنه في رواية الحديث "عدل من عال إلى نازل وعن متفق عليه إلى مختلف

---

(١) الغزي، الكواكب السائرة، ج١، ص١٢٦، ١٢٧، ٢٥٩، السخاوي، الضوء، ج٨، ص١٤.

(٢) انظر ابن الملقن، الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، مقدمة المحقق، ص٣٦، ابن فهد، لحظ الألحاظ، ص٢٠٥.

(٣) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٤.

(٤) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٢١٨.

(٧) ابن فهد، لحظ الألحاظ، ص٢٠٠.

(٨) ابن الملقن، الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، مقدمة المحقق، ص٣٦.

(٩) السخاوي، التوضيح الأبهر لتذكرة ابن الملقن في علم الأثر، تحقيق عبد الله البخاري، مقدمة المحقق، ص١١.

(١٠) السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٣.

فيه فهذا مما ينتقد عليه"[١].

كما يأخذ المحدثون عليه أيضا أنه خالف المنهج الذي عليه عامتهم فقد "عقد مجلسا للإملاء – إملاء الحديث – فأملى المسلسل بالأولية ثم عدل إلى حديث خراش وأضرابه من الكذابين فرحا بعلو الإسناد وهذا مما يعيبه أهل الإسناد، يرون أن الهبوط أولى من العلو إذا كان من رواية الكذابين لأنه كالعدم"[٢].

ومن النقد اللاذع الذي وجه إلى شيخنا قول السخاوي "إنا لما شاهدناه لم يكن بالحافظ بل الذين قرأوا عليه ورأوه من سبعين فما بعدها قالوا أنه لم يكن بالماهر في الفتوى ولا التدريس، وإنما كانت تقرأ عليه مصنفاته غالبا فيقرر ما فيها"[٣].

ويضيف السخاوي قائلا : "إن كتابته أكثر من استحضاره، ولهذا كثر الكلام فيه من علماء الشام ومصر حتى قال ابن حجر : كان لا يستحضر شيئا ولا يحقق علما وغالب تصانيفه كالسرقة من كتب الناس، زاد غيره نسبته للعجز عن تقرير ما لعله يضعه فيها ونسبته إلى المجازفة وكلاهما غير مقبول من قائله ولا مرضي"[٤].

وهكذا نرى هذا النقد نقدا غير موضوعي يتضح فيه التضارب في القول والهجوم الغير مدروس على هذه الشخصية التي لا ندافع عنها إلا بما قدمته من نتاج علمي وفكري ما زال يعتبر زادا يتزود منه طلبة العلم ويجدون فيه جهدا مشكورا لعالم تعلم وتتلمذ على أئمة الفكر، إلى جانب أنه نهل من تلامذة أبيه الأندلسي الوافد بشخصه وعلمه ليسهم في المجال الثقافي والفكري بمصر والشام.

المناصب العلمية والإدارية التي تقلدها ابن الملقن

لم تكن المؤلفات العلمية والإسهام الثقافي وحدهما هما محور شيخنا، لكنه لعب دورا متواضعا في مجالات أخرى حيث تولى مناصب علمية ودينية.

نبدأ بالمناصب التعليمية وهي مناصب التدريس والتي تعتبر من أجل الوظائف لأن مهنة التدريس مهنة مهمة وخطيرة لما تحمله في طياتها من تأثير على الجيل، وبالتالي تؤثر على المجتمع بأسره. فالتلميذ يتأثر بأستاذه فيعلمه وأدبه وعمله ومهارته وأخلاقه وتصرفاته[٥].

وقد عدد ابن جماعة الشروط الواجبة في المعلم "أن لا ينتصب للتدريس إلا إذا كان أهلا له ولا يذكر الدرس من علم لا يعرفه سواء شرطه الواقف أو لم يشرطه، فإن في ذلك لعب في الدين وازدراء بين الناس"[٦].

إذن فالمعلم لابد وأن يتصف (... بسعة العلم والتضلع في الفنون والأخذ من كل منها بحظ وافر، وطول الباع في البحث والمناظرة والوقوف مع الحق فيها، وعدم الجدال في الباطل) [٧].

لاشك أن ابن الملقن توافرت فيه جميع هذه الشروط التي تؤهل للتصدي للتدريس في المدارس المملوكية، وكان كما وصفه معاصروه حجة في العلم وذاع صيته مما سهل له القيام بالتدريس في المدارس التالية :

(١) المدرسة السابقية :

بنى هذه المدرسة الطواشي الأمير سابق الدين مثقال الأتوكي ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م مقدم المماليك السلطانية الأشرفية، وجعل بها دروسا للفقهاء الشافعية، "قرر في تدريسه شيخنا شيخ الشيوخ سراج الدين عمر بن علي الأنصاري المعروف بابن الملقن الشافعي"[٨] وجعل فيها تصدير قراءات وخزانة كتب وكتابا يقرأ فيه أيتام المسلمين.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه.

(٣) نفس المصدر.

(٤) المصدر السابق، ص١٠٤.

(٥) محمد عطية الإبراشي، المدرسة الإسلامية وفلاسفتها، القاهرة، دار الفكر العربي، ط٣، د.ت، ص٢٩٤-٢٩٥.

(٦) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٥٤هـ، ص٤٧-٤٨.

(٧) المصدر السابق.

(٨) المقريزي، الخطط، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت، ج٣، ص٣٦٦.

(٢) التدريس بدار الحديث الكاملية :

تعتبر دار الحديث واحدة من المؤسسات التعليمية في مصر والشام، حيث كان يطلق عليها دور السنة النبوية أو السنة المحمدية لأن سنة الرسول ρ من أقواله وتقريراته كانت تدرس فيها[١].

وقد بدأت دور الحديث كمراكز علمية مستقلة عن المدارس منذ العصر الزنكي، لذلك قام السلطان الملك الكامل الأيوبي ت٦٣٥هـ/١٢٣٨م بإنشاء دار للحديث أوقفت على فقهاء الشافعية.

تقلد ابن الملقن وظيفة التدريس بهذه الدار بعد سفر الشيخ الزين العراقي إلى المدينة النبوية لتولي قضائها سنة ثمان وثمانين وسبعمائة للهجرة مع كون "الزين" قد رغب عن تدريسها لولده "الولي" فنازعه الوالي قائلا : "يخرج حديثنا وأخرجه ليظهر المستحق منا" فتوسل ابن الملقن بالسراج البلقيني والبرهان الأنباسي حتى كف الولي عنه، وندم بعد دهر عن منازعته[٢].

وهذه المنازعة من ولي الدين لأستاذه ابن الملقن تبين أن طريق الأستاذ لم تكن ميسرة له في كل حال حتى في آخر عمره، وأن المنافسين له على المناصب كانوا يكرهون أن يروه يتمتع بجاه المال وجاه المنصب[٣].

(٣) التدريس بجامع الحاكم بأمر الله :

تم تأسيس هذا المسجد في العصر الفاطمي على يد الخليفة العزيز بالله، وأتم بنيانه ابنه الحاكم بأمر الله عام ثلاث وتسعين وثلثمائة، وتم بعد ذلك تدريس الفقه فيه على المذاهب الأربعة،وجعل لكل مدرس طلبة.

وقد تقلد ابن الملقن منصب التدريس بهذا الجامع والميعاد به في عام سبعمائة وثلاث وستين بعد موت الشهاب أبي سعيد الهكاري.

(٤) التدريس بقبة الصالح نجم الدين أيوب :

تقع قبة الصالح بجوار المدرسة الصالحية قامت ببنائها شجر الدر – لأجل مولاها الملك الصالح نجم الدين أيوب، ليدفن بها، وهي مجاورة لإيوان المالكية[٤].

تم تعيين ابن الملقن في التدريس بهذه القبة يوم الخميس السابع والعشرين من رجب سنة تسع وتسعين وسبعمائة للهجرة عوضا عن القاضي الشافعي عماد الدين الأزركي الكركي بحكم استقراره في خطابة القدس الشريف[٥].

(٥) التصدير بالمدرسة الحسامية :

بنى هذه المدرسة الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري نائب السلطنة بديار مصر ت٦٨٩هـ/١٢٩٠م إلى جانب داره وجعلها "برسم الفقهاء الشافعية"[٦] لذلك نال ابن الملقن شرف التدريس بهذه المدرسة والتصدير بها وذلك بعد وفاة ابن النقيب أحمد بن لؤلؤ بن عبد الله ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م[٧].

هذه هي الوظائف التعليمية التي شغلها ابن الملقن كشيخ للفقه الشافعي والتي أجاد فيها ودرس فيها مؤلفاته، وما أوجزه وصححه وشرحه وأضافه على مؤلفات غيره.

المناصب الدينية :

نيابة القضاء :

القضاء في الإسلام من المناصب المهمة والتي لابد لمن يتولى هذا المنصب أن تتوافر فيه شروط خاصة منها العقل والحرية والإسلام والعدل، وسلامة الحواس والمعرفة بالأحكام

---

(١) ناجي معروف، نشأة المدارس المستقلة في الإسلام، بغداد، ١٣٨٥هـ، ص١٥.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٣١٦، السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٤.

(٣) ابن الملقن، طبقات الأولياء، مقدمة المحقق، ص٣٨.

(٤) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٣٣٣-٣٣٤.

(٥) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٥٢٧.

(٦) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٣٥٣.

(٧) محمد كمال عز الدين، ابن الملقن مؤرخا، ص١٦، حاشية ٥.

الشرعية[1].

وقد كانت وظيفة القضاء في العصر المملوكي من أخطر الوظائف شأنا وأرفعها منزلة، وكان القاضي يعتبر من أجل أرباب الوظائف وأعلاها شأنا وأرفعهم قدرا[2].

وقد تولى ابن الملقن نيابة قضاء الشرقية عن قاضي القضاة الشافعي بدر الدين بن أبي البقاء، لكنه رغب في أن يتولى منصب القضاء الرسمي في البلاد في وقت كانت فيه هذه الوظيفة قد تعرضت لما عرف عن هذه الفترة من العصر المملوكي الثاني من البذل والبرطلة[3]، أي الحصول على المنصب ببذل المال والرشوة.

وقد تعرض شيخنا لمحنة ألمت به نتيجة للرغبة في الحصول على وظيفة القضاء الشافعي في البلاد.

فقد حدث أن قرر قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة عزل نفسه من وظيفة قضاء القضاة الشافعية، وخرج إلى تربة كوكاي بنية العودة إلى القدس تورعا واحتياطا لدينه، لما دهم الناس من تغير الأحوال وحدوث ما لم يعهد وتهاون القائمين بالدولة بالأمور الدينية، فرغب الأمير طشتمر العلائي في إقامة سراج الدين عمر البلقيني قاضي العسكر في هذا المنصب، إلا أن عدم محبة بعض الأمراء له جعلته يصرف النظر عنه إلى بدر الدين محمد بن أبي البقاء على مال يقوم به. وفعلا تم تعيين بدر الدين بن أبي البقاء في هذا المنصب بدلا من برهان الدين بن جماعة[4] وذلك عام ٧٧٩هـ.

كان لعدم رضاء الناس على ابن أبي البقاء أن قرر الأمير برقوق[5] عزله في يوم الخميس سابع عشر من عام سبعمائة وثمانين وتعيين شيخنا ابن الملقن مكانه دون أن يطلب منه بذل المال، وذلك لأن الأمير برقوق كان يصحبه ويسمع عنده صحيح البخاري وذلك عام تسع وسبعين وسبعمائة، وكان الناس يشيدون به، فاجتمع به وصارت بينهما صداقة، كانت نية الأمير برقوق ألا يأخذ مالا من ابن الملقن، لكن الأخير استبطأ تعيينه في الوقت الذي أشار عليه أن يجتمع بالأمير بركة الزيني، فتوجه إليه، فتكلم معه إستاداره أن يبذل للأمير مالا، فكتب له خطه بألفي دينار أو أكثر[6]، فلم يكن من الأمير بركة الزيني إلا أن بعث بهذه الورقة إلى الأمير برقوق الذي ثارت ثائرته واستدعى ابن الملقن في جمع من القضاة بالحراقة من الاسطبل في يوم الثلاثاء ثاني عشرينه وأهانه إهانة شديدة رغم أنه لم يكتب هذه الورقة إنما زورت عليه، في الوقت الذي أنكر فيه الشيخ أن يكون ذلك خطه، فزاد حنق الأمير برقوق عليه وأمر به فسلم إلى الحاج محمد بن يوسف مقدم الدولة ليستخلص منه الأربعة آلاف دينار بعد أن رسم بهذه الوظيفة للقاضي برهان الدين بن جماعة[7].

أما عن مصير شيخنا فنجد أنه تعرض لموقف سئ للغاية، واتهم اتهاما لعب فيه بركة الزيني والشيخ ابن أبي البقاء دورا لكي يوقع به عند الأمير، لذلك شفع فيه محمد بن يوسف مقدم الدولة عند شاد الدواوين، لأن الشيخ كان قد أسدى إليه جميلا من قبل[8]. وطلب منه عدم التعرض للشيخ بمكروه.

وبعدها توجه كل من الشيخ سراج الدين عمر البلقيني والشيخ أبو عبد الله محمد الركراكي المغربي ومعهما مجموعة من الفقهاء إلى الأمير برقوق وطلبوا منه أن يقوم بالإفراج عن الشيخ ابن

---

(١) عن ذلك راجع : الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، ص٨٣-٨٤، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ط/بغداد، تحقيق بولس راويس، ص٩٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، ج٣، ص٤٨٢.

(٣) عن البذل والبرطلة ومعناها اللغوي والاصطلاحي وتطبيقاتها المختلفة. انظر : أحمد عبد الرازق أحمد، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك "دراسة عن الرشوة"، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٩م.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٣٢٠.

(٥) كان السلطان آنذاك هو السلطان علاء الدين علي – حفيد الناصر محمد بن قلاوون ٧٧٨-٧٨٣هـ/١٣٧٦-١٣٨١م، المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٤١.

(٦) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص١٧٣.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٣٣٤.

(٨) كان محمد بن يوسف قد اتهم اتهاما من قبل قبل يوجب إراقة دمه عند المالكية، فحكم ابن الملقن بحقن دمه لذلك حفظ له الجميل وساعده في محنته هذه. المقريزي، نفسه، ص٣٣٤.

الملقن، فأصر الشيخ البلقيني على طلبه وأقسم ثلاث مرات بأنه لن ينصرف إلا والشيخ ابن الملقن معه، فوافق الأمير وسلمه إليه[١].

ومع ذلك ورغم هذه المحنة التي وقع فيها ابن الملقن، واقتصاره على بعض ما كان في يده، فإنا نجد أبا المحاسن بن تغري بردي يذكره في حوادث سنة إحدى وتسعين وسبعمائة فيقول "ثم في حادي عشرينه ذي القعدة من السنة المذكورة – اجتمع الأمراء وأهل الدولة مع الأمير منطاش، واتفقوا على استبداد الملك المنصور حاجي بالأمر، وأثبتوا رشده بحضرة القضاة والخليفة... وحضر الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة والشيخ سراج الدين عمر البلقيني وولده جلال الدين عبد الرحمن قاضي العسكر وابن خلدون وابن الملقن، وقاضي القضاة بدر الدين محمد بن أبي البقاء"[٢].

ولقد كان توليه منصب الصدارة بقبة الصالح نجم الدين أيوب في العام التالي أي سبعمائة وست وسبعين[٣]، أي أنه مارس عمله العلمي بعد الأزمة الكبيرة التي مر بها في منصب القضاء، وشارك في أحداث عصره رغم محنته.

أما المحنة التي جعلته يبعد عن ممارسة مهامه العلمية ويحتجب عن الاتصال بالناس، فتمثلت في حدوث حريق عام جاء على جميع محتويات هذه المكتبة من المراجع ومصنفاته مما كان له الأثر الكبير على ضياع وفقدان مسودات مصنفاته، فقد فقد مؤلفه الضخم جمع الجوامع فحزن ابن الملقن عليه أشد الحزن وتأسف غاية الأسف مما كان سببا في تغير حاله وقلة تعليمه وتدريسه في آخر عمره، وقد صور ابنه ذلك في رثاء وتعزية لأبيه في هذا الحريق[٤].

ولا يزعجنك يا سراج الدين أن ... لعبت بكتبك السن النيران
لله قد قربتها فتقبلت ... والنار مسرعة إلى القربان

فبعد الحريق ساءت حال ابن الملقن، وأصيب بالذهول وحجبه ابنه نور الدين علي إلى أن توفي عالمنا الكبير رحمه الله في ربيع الأول سنة أربع وثمانمائة للهجرة عن إحدى وثمانين سنة، ودفن بحوش سعيد السعداء بالخانقاه الصلاحية ٠

وبذلك أسدل الستار على شخصية علمية أسهمت بدور كبير في الحركة الفكرية في مصر والشام في العصر المملوكي مؤكدين على أن جذوره الأندلسية كانت لها أثر كبير على تكوينه العلمي.

---

(١) المقريزي، نفسه.

(٢) النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٦٠.

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٥٢٧.

(٤) عن هذه الأحداث : راجع ابن حجر، إنباء، ج٢، ص٢١٨–٢١٩، السخاوي، الضوء، ج٦، ص١٠٥، ابن فهد المكي، لحظ الألحاظ، ص٢٠٢، ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص١٢٢. ويذكر ابن حجر أنه هو الذي قال في ذلك الشعر.

قائمة المصادر المطبوعة

(١) ابن الأزرق أبو عبد الله، ت ٨٩٦ هـ ٨٩٦ /١٤٩٠ م
بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، العراق، ج٢، ١٩٧٨م
(٢) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن أحمد ت٥٧٨هـ/١١٨٢م
كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم، تحقيق كوديرة، مدريد ١٨٨٢م.
(٣) ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم ت٧٢٣هـ/١٣٣٢م.
تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٥٤هـ.
(٤) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أ؛مد بن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م.
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦م.
إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٩-١٩٧٢م.
المجمع المؤسس بالمعجم المفهرس، ت دار الكتب المصرية رقم ٧٥ مصطلح.
(٥) ابن حزم الأندلسي الظاهري، أبو محمد علي بن سعيد ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م.
جمهرة أنساب العرب، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٤٨م.
الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ.
(٦) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد المغربي، ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م.
المقدمة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٧٩م.
(٧) ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد ت٦٨١هـ/١٢٨٢م.
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م.
(٨) ابن عذارى المراكشي ت٦٩٥هـ/١٢٩٥م
البيان المغرب في أخبار المغرب،ج٢، بيروت، ١٩٥٠م.
(٩) ابن العماد الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحي ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، د.ت.
(١٠)ابن فهد المكي، تقي الدين أبو الفضل محمد بن محمد ت٨٧١هـ/١٤٦٧م
لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، الهند، دائرة المعارف العثمانية، د.ت.

(١١)ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر محمد ت٨٥١هـ/١٤٤٨م
طبقات الشافعية، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، الهند، دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٨-١٩٨٠.
(١٢)ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ت٧٥١هـ/١٣٥٠م
إعلام الموقعين عن رب العالمين، القاهرة، ١٩٦٨م.
(١٣)ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م
البداية والنهاية، بيروت، دار المعرفة، ط٢، ١٤١٧هـ.
الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة، صبيح، ط٣، ١٩٥١م.
(١٤)ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد ت٨٠٤هـ/١٤٠١م
نزهة النظار في قضاة الأمصار، تحقيق مديحة محمد الشرقاوي، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٦م.
طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريبه، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٣م.
البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، تحقيق مصطفى أبو الغيط عبد الحي وآخرون، دار الهجرة للنشر، الرياض، ١٤١٤هـ.
الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، تحقيق عبد العزيز بن أحمد بن محمد المشيقح، المملكة العربية السعودية، دار العاصمة، ١٤١٧هـ.
العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، نشر بيروت، ١٤١٧هـ.
شرح صحيح البخاري.
(١٥)أبو عبد الله البكري ت٤٨٧هـ/١٠٩٧م
المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر نشره البارن دي سلان، ١٩١١م.
(١٦)أبو المحاسن، يوسف بن تغري بردي ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ.

(١٧)البغدادي، أبو منصور عبد القادر بن طاهر ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م
الفرق بين الفرق، القاهرة ١٣٢٨هـ.
(١٨)البيذق، أبو بكر الصنهاجي
كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق ليفي بروفنسال، باريس، ١٩٢٨م.
(١٩)التنبكتي، أحمد بن أحمد بن عمر ت١٠٣٦هـ/١٦٢٧م
نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٣هـ.
(٢٠)الحازمي محمد بن موسي
الاعتبار في بيان الناسخ والمسوخ من الآثار، القاهرة، ط، ١٣٤٦هـ
(٢١)حاجي خليفة، مصطفى كاتب شلبي ت١٠٦٧هـ/١٦٥٧م
كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، بيروت، دار الفكر ١٤١٤هـ.
(٢٢)الحاكم النيسابوري
معرفة علوم الحديث، القاهرة، نشر معظم حسين، ١٩٣٧م.
(٢٣)السخاوي، محمد بن عبد الرحمن ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م
التوضيح الأبهر لتذكرة ابن الملقن في علم الأثر، تحقيق عبد الله محمد عبد الرحيم البخاري، مطبعة أصول السلف، الرياض، ١٤١٨هـ.
فتح المغيث بشرح ألفية الحديث في شرح السخاوي على ألفية العراقي، ط/حجر دهلي، ج٢، د.ت.
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، مكتبة الحياة، د.ت.
المقاصد الحسنة.
(٢٤)السبكي، عبد الوهاب بن علي ت٧٧١هـ/١٣٧٠م
معيد النعم ومبيد النقم، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٧هـ.
(٢٥)السلاوي، أحمد بن خالد الناصري، ت١٢٥٠هـ/١٨٣٥م
الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، القاهرة، ١٣١٠هـ.
(٢٦)السمعاني، تاج الإسلام عبد الكريم بن محمد ت٥٦٢هـ/١١٦٧م
أدب الإملاء والاستملاء، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ.
(٢٧)السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد ت٩١١هـ/١٥٠٥م
الإتقان في علوم القرآن، مصر، البابي الحلبي، ط٤، ١٣٩٨هـ.
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، ١٣٨٤هـ.
تدريب الراوي في شرح تقريب النووي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٣٩٩هـ.
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٦٧م.
(٢٨)الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت٥٥٨هـ/١١٥٣م
الملل والنحل، ٥ أجزاء، القاهرة، ١٣١٧هـ.
(٢٩)الشوكاني، محمد بن علي ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، بيروت، دار المعرفة، ١٣٤٨هـ.
(٣٠)الغزي، شمس الدين محمد
الكواكب السيارة، مصر، المطبعة الأميرية، ١٣٢٥هـ.
(٣١)الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي ت٨٣٢هـ/١٤٢٩م
ذيل التقييد بمعرفة رواة السنن والأسانيد، مخطوط، دار الكتب المصرية ١٩٨ مصطلح.
(٣٢)القلقشندي، أبو العباس أ؛مد بن علي بن أحمد ت٨٢١هـ/١٤١٨م
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ.
(٣٣)الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي ت٤٥٠هـ/١٠٥٧م
الأحكام السلطانية، القاهرة ١٢٩٨هـ.
(٣٤)المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م
الخطط المقريزية "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، بولاق ١٢٧٠هـ.
السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١-ج٣ تحقيق محمد مصطفى زيادة، ١٩٥٦م.
(٣٥)ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م
معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

قائمة المراجع العربية

(١) أحمد عبد الرازق أحمد
البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك "دراسة عن الرشوة"، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م.
(٢) بدران أبو العينين بدران
تاريخ الفقه الإسلامي، بيروت،دار النهضة العربية، د.ت.
(٣) جمال الدين الشيال
تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الإسلامي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧م.
(٤) حسن أحمد محمود
في تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٨٣م.
الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، القاهرة، دار الفكر العربي، ط٣، سنة ١٩٨٦م.
قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٥٧م.
(٥) حسين مؤنس
موسوعة تاريخ الأندلس، فكر وحضارة وتراث، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٦م.
(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور
الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٠م.
(٧) السيد عبد العزيز سالم
تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، الاسكندرية،مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٦١م.
المغرب الكبير، ج٢، المغرب الإسلامي، الاسكندرية، ١٩٦٦م.
(٨) صبحي الصالح
علوم الحديث ومصطلحه، بيروت، دار العلم، ١٩٨١م.
(٩) عبد الرحمن صالح المحمود
موقف ابن تيمية من الأشاعرة، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤١٦هـ.
(١٠)عفاف سيد محمد صبره
دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٥م.
(١١)محمد عبد الله عنان
دولة الإسلام في الأندلس، المرابطون والموحدون، القاهرة، ١٩٦٤م.
(١٢)محمد عبد العظيم الزرقاني
المنهل الحديث في علوم الحديث، القاهرة، ١٩٤٧م.
(١٣)محمد الطنطاوي
نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، القاهرة، دار المعارف، د.ت.
(١٤)محمد عطية الإبراشي
التربية الإسلامية وفلاسفتها، القاهرة، دار الفكر العربي، ط٣، د.ت.
(١٥)محمد كمال عز الدين
ابن الملقن مؤرخا، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٧م.
مجالس الإملاء في مصر في ظل حكم سلاطين المماليك، بحث ضمن ندوة المدارس في مصر الإسلامية، القاهرة، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.
(١٦)علي الرضا بلوط وآخر
معجم التاريخ، التراث الإسلامي في مكتبات العالم، دار العقبة، قيصري، تركيا، ط١، ٢٠٠١م.
(١٧)ناجي معروف٠
نشأة المدارس المستقلة في الإسلام، بغداد، ١٣٨٥هـ.
(١٨)يوسف أشباخ ٠
تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، جزءان، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٨م.

مختصر السيرة الذاتية (c.v.)
للأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع

(أ) البيانات الشخصية :

الاســـــم :دكتور حسنين محمد ربيع الجنسية : مصــري

تاريخ ومكان الميــلاد والوفاه:٢ / ٢ / ١٩٣٨م -٢٠١٩/١/٨ - القاهرة جمهورية مصر العربية

الوظيفــة الحاليــة:استاذ غير متفرغ بكلية الاداب جامعة القاهرة - عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

الوظائف السابقــة : – عميد كلية الاداب جامعة القاهرة

– نائب رئيس جامعة القاهرة لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة

– مدير فرع الجامعة العربية المفتوحة في مصر

البريد الإلكتــروني: hmrabie@yahoo.com

التخصص الاكاديمــي : تاريخ العصور الوسطى

١- التخصص العــام:التاريخ

٢- التخصص الدقيــق:تاريخ اقتصادي في العصور الوسطى

الممارســة المهنيــة:أستــاذ

(ب) الدرجات العلميـــــة :

١- درجة الليسانس في الآداب – قسم التاريخ بتقدير عام جيد جداً، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٥٩

٢- دبلوم في التربية وعلم النفس بتقدير عام جيد جداً، كلية التربية، جامعة عين شمس، ١٩٦٠.

٣- الماجستير في الآداب – قسم التاريخ (شعبة تاريخ عصور وسطى) بتقدير ممتاز كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٤

٤- الدكتوراه في تاريخ العصور الوسطى، جامعة لندن، ١٩٦٩

(ج) الجـــوائز وشهـــادات التقديـر :

١٩٩٩ جائزة جامعة القاهرة التقديرية في مجال العلوم الاجتماعية (قرار مجلس الجامعة ١٩٩٩/١٢/٢٩).

٢٠٠٢ جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠١م.

٢٠٠٤ جائزة "السلطان الظاهر بيبرس" ووسام الاستحقاق من جمهورية كازاخستان لبحوثه ودراساته الأكاديمية عن تاريخ السلطان بيبرس.

٢٠٠٦ جائزة جامعة القاهرة للتميز لعام ٢٠٠٦ في مجال العلوم الإنسانية.

(د) التاريخ الوظيفـــي :

١٩٦١ - ١٩٦٩ معيد بقسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

١٩٦٩ - ١٩٧٤ مدرس تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

١٩٦٩ - ١٩٩٨ أستاذ **Outsider** بقسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

Visiting Professor,The Middle East Institute,Cloumbia University and Department of Near Eastern Studies, Princeton University, U.S.A.

١٩٧٤ - ١٩٨٣ أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

١٩٧٨ - ١٩٨٢ أستاذ مشارك (مساعد) ورئيس قسم التاريخ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القري بمكة المكرمة - المملكة العربية السعودية.
١٩٨٣ - ١٩٩٨ أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب - جامعة القاهرة.
١٩٨٥ - ١٩٨٩ وكيل كلية الآداب - جامعة القاهرة.
١٩٨٩ - ١٩٩٣ عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة.
١٩٨٩ - ١٩٩٣ مشرف علي كلية الآداب جامعة القاهرة (فرع الخرطوم).
١٩٩٣ - ١٩٩٨ نائب رئيس جامعة القاهرة لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة.
١٩٩٥ - ١٩٩٨ مدير مركز التعليم المفتوح بجامعة القاهرة بالإضافة إلي منصب نائب رئيس جامعةالقاهرة.
١٩٩٨ - ٢٠٠٣ رئيس لجنة قطاع الآداب والعلوم والدراسات الإنسانية بالمجلس الأعلي للجامعات.
٢٠٠٣- ٢٠٠٧ عضو لجنة قطاع الآداب والعلوم والدراسات الإنسانية بالمجلس الأعلي للجامعات.
١٩٩٨-٢٠١٩ أستاذ (غير متفرغ) بكلية الآداب جامعة القاهرة
٢٠٠٢- ٢٠٠٦ مدير فرع الجامعة العربية المفتوحة فى مصر

هـ) الخبرات والاهتمامات المهنية :

مارس ١٩٧٤، مايو ١٩٧٧ ألقي محاضرات عامة في التاريخ بجامعات ميتشجان، آن آربور وبرنستون وهارفارد.

Public Lectures : Michigan Ann Arbor, Princeton and Harvard Universities, U.S.A.

فبراير ١٩٧٦- مارس١٩٧٧أستاذ زائر بقسم التاريخ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض المملكة العربية السعودية.
إبريل ١٩٧٦أستاذ زائر بجامعة الفردوسي - مشهد - إيران.
١٩٨٣ عضو بالمجالس القومية المتخصصة (شعبة التراث الحضاري والأثري، المجلس القومي للثقافة والفنون والآداب والإعلام).
١٩٨٣ عضو بالمجلس القومي للثقافة والفنون والآداب والإعلام.
١٩٩٨ مقرر شعبة التراث الحضاري والأثري بالمجلس القومي للثقافة والفنون والآداب والإعلام (المجالس القومية المتخصصة).
١٩٨٣ - ٢٠٠٣عضو ومقرر اللجنة العلمية الدائمة للترقيات (وظائف أعضاء هيئة التدريس تخصص التاريخ) المجلس الأعلى للجامعات.
١٩٨٣ - ١٩٩٥عضو ومقرر اللجنة العلمية الدائمة للترقيات (وظائف أعضاء هيئة التدريس - تخصص المكتبات والوثائق) المجلس الأعلى للجامعات.
١٩٨٣ - ١٩٨٥ خبير بلجنة التاريخ بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.
١٩٨٨ - ١٩٩٣ عضو اللجنة الدائمة لتطوير مناهج المواد الاجتماعية، وزارة التربية والتعليم.
١٩٨٩ - ١٩٩٨ أمين لجنة قطاع الآداب والعلوم والدراسات الإنسانية بالمجلس الأعلى للجامعات.
١٩٩٨ - ٢٠٠٣ رئيس لجنة قطاع الآداب والعلوم والدراسات الإنسانية بالمجلس الأعلى للجامعات..
١٩٨٩ عضو اللجنة الدائمة للآثار الإسلامية والقبطية-المجلس الأعلى للآثار (وزارة الثقافة).
١٩٩٠ عضو لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة (وزارة الثقافة).
١٩٩١ - ١٩٩٦ عضو ومقرر اللجنة العلمية العليا للإشراف علي نظام العمل في مركز تحقيق التراث بالهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية.
١٩٩٢ - ٢٠٠٥ أمين عام اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.
١٩٩٣ - ١٩٩٨ رئيس مجلس شئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة بجامعة القاهرة.

١٩٩٣ ـ ١٩٩٨ المشرف علي المراكز والوحدات ذات الطابع الخاص بجامعة القاهرة(١١٥ مركزاً ووحدة)
١٩٩٣ عضو المؤتمر القومي لتطوير التعليم الابتدائي، وزارة التربية والتعليم.
١٩٩٤ عضو المؤتمر القومي لتطوير التعليم الإعدادي، وزارة التربية والتعليم.
١٩٩٥ عضو في اجتماع خبراء التعليم المفتوح والتعليم عن بعد
١٩٩٧ عضو اللجنة العليا لتخطيط التعليم المفتوح بالمجلس الأعلى للجامعات (١٩٩٧/١٠/٢٢).
١٩٩٧ عضو مجلس إدارة رابطة خريجي جامعة القاهرة.
١٩٩٨ ـ ٢٠٠٠ عضو في محكمة القيم - وزارة العدل- جمهورية مصر العربية.
١٩٩٧ ـ ٢٠١٨ عضو مجلس إدارة معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة
١٩٩٨ عضو اللجنة القومية لتطوير التعليم الجامعي والعالي برئاسة الأستاذ الدكتور وزير التعليم العالي والدولة للبحث العلمي .
١٩٩٨ ـ ٢٠٠٠ مدير مركز البحوث والدراسات التاريخية بكلية الآداب بجامعة القاهرة.
١٩٩٨ ـ ٢٠٠٢ عضو مجلس إدارة مركز البحوث والدراسات المستقبلية بجامعة القاهرة.
١٩٩٨ عضو مجلس إدارة مركز التراث العلمي بكلية العلوم بجامعة القاهرة.
١٩٩٩ زيارة مركز الوثائق والدراسات والمجمع الثقافي في أبو ظبي (٢٦-٢٨ فبراير) لبحث أوجه التعاون الثقافي والعلمي مع اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.
١٩٩٩ عضو فريق عمل من أعضاء اللجنة القومية لتطوير التعليم الجامعي والعالي سافرت إلي كل من استراليا ونيوزيلندا
١٩٩٩ مقرر المؤتمر القومي لتطوير التعليم العالي (قرار وزاري رقم ١١٤٧ بتاريخ ١٩٩٩/٩/٢٠.
٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤ عضو مجلس إدارة مركز جامعة القاهرة للتعليم المفتوح.
٢٠٠٠ ـ ٢٠١٤ عضو اللجنة العلمية لمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية .
٢٠٠١ عضو مجلس إدارة مركز جامعة القاهرة لرعاية المسنين بجامعة القاهرة.
٢٠٠٢ عضو لجنة فحص البحوث المقدمة إلي رابطة الجامعات الإسلامية للحصول على جوائز الرابطة لعام ٢٠٠٢ فى موضوع (الحوار بين الإسلام والحضارات المعاصرة).
٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٧ عضو لجنة قطاع الآداب والعلوم والدراسات الإنسانية بالمجلس الأعلى للجامعات
٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٧ عضو لجنة فحص الإنتاج العلمى المقدم لنيل جوائز الدولة للتفوق (العلوم الاجتماعية) – وزارة الثقافة – جمهورية مصر العربية.
٢٠٠٤ عضو لجنة المحكمين لجائزة جامعة القاهرة التقديرية فى مجال العلوم الاجتماعية (إبريل ٢٠٠٤) (قرار رئيس الجامعة رقم ١٤٠ لسنة ٢٠٠٤).
٢٠٠٥ – ٢٠١٨ رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.
٢٠٠٥ عضو ورئيس اللجنة الفنية لذاكرة العالم باللجنة الوطنية للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو – اليسكو – ايسيسكو) قرار وزير التعليم العالى رقم ٢٤٩٩ بتاريخ ٢٠٠٥/٨/٢٣، (انتخب رئيسا للجنة فى اجتماعها الأول في ٢٠٠٥/١٢/٦). وصدر القرار الوزاري رقم ٣٠٧ بتاريخ ٢٠٠٨/٢/٢١ بإعادة تشكيل اللجنة الفنية لذاكرة العالم .
٢٠٠٦ مقرر لجنة المحكمين لجائزة جامعة القاهرة التقديرية في مجال العلوم الاجتماعية .
٢٠٠٨ ـ ٢٠١٠ عضو لجنة فحص الترشيحات المقدمة لنيل جائزة مبارك في الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠٨ ولعام ٢٠١٠.
٢٠٠٨ – ٢٠١١ عضو اللجنة العلمية الدائمة للترقيات (وظائف أعضاء هيئة التدريس – تخصص التاريخ) الدورة العاشرة ٢٠٠٨-٢٠١١ (القرار الوزاري رقم ٣٠٩٢ بتاريخ ٢٠٠٨/٩/٢٩).

(و) الإسهامات العلمية والمجتمعية

١٩٩٥ زيارة الأكاديمية القازاقية للعلوم في جمهورية قازاقستان في آسيا الوسطى، لبحث أوجه التعاون الممكنة في مجالات التاريخ والآداب والأثنوجرافيا.

١٩٩٥-١٩٩٨ قام بتكليف من صندوق الكومنولث للدول الإسلامية المستقلة حديثاً عن الاتحاد السوفيتي بوزارة الخارجية بزيارة بعض الجامعات والمعاهد في جمهوريات آسيا الوسطي وإلقاء سلسلة من المحاضرات عن تاريخ الحضارة الإسلامية في آسيا الوسطي، والفتوحات العربية في بلاد ما وراء النهر وغير ذلك من الموضوعات في كل من :

١- قازاقستان ١٠-٢٠ يونيه ١٩٩٥.

٢- أوزبكستان (طشقند - سمرقند - بخاري) ١٠-٢٣ يناير ١٩٩٦.

٣- أذربيجان ٢٥-٣٠ يونيه ١٩٩٧.

٤- جامعة تبليسي في جمهورية جورجيا ٢١-٢٩ سبتمبر ١٩٩٨.

وقدم تقارير علمية عن أوجه النشاط بين هذه الجامعات والمعاهد العلمية في آسيا الوسطي والجامعات المصرية وأوجه التعاون الثقافي والعلمي تمهيداً للتعاون الاقتصادي.

مقرر اللجنة التنظيمية للمؤتمر القومي الأول لتسويق الخدمات الجامعية بالمجلس الأعلي للجامعات، عقد بجامعة القاهرة ١٨-١٩ مارس ١٩٩٨.

١٩٩٦ ألقي محاضرات في جامعات طشقند وسمرقند وبخاري في جمهورية أوزبكستان بتكليف من صندوق التعاون الفني المصري مع جمهوريات الكومنولث والجمهوريات الإسلامية في الموضوعات التالية :

- الفتوحات العربية في بلاد ما وراء النهر وإنتشار الإسلام.
- الأمير تيمور : نشأته، حروبه، انجازاته الحضارية.
- مدينة سمرقند في عصر تيمور.

دور علماء آسيا الوسطي في الحضارة الإسلامية وأثرها علي أوربا في العصور الوسطي.

- الإمام البخاري

١٩٩٧ زيارة جمهورية أذربيجان لبحث أوجه التعاون الثقافي والعلمي مع جامعاتها ومراكزها العلمية بتكليف من صندوق الكومنولث للدول الإسلامية

١٩٩٧ زيارة جامعة إدارة الأعمال الدولية والاقتصادية بالصين الشعبية لتدعيم العلاقات الثقافية والعلمية بينها وبين جامعة القاهرة، والتمهيد لإنشاء قسم اللغة الصينية بكلية الآداب جامعة القاهرة (٧-١٣ ديسمبر ١٩٩٧).

١٩٩٨ زيارة جامعة تبليسي في جمهورية جورجيا لبحث أوجه التعاون الثقافي والعلمي مع جامعة القاهرة.

٢٠٠٠ زيارة جامعة تبليسي في جمهورية جورجيا مع وفد جامعة القاهرة لبحث أوجه التعاون العلمي والثقافى مع جامعة القاهرة.

٢٠٠٠ الاشتراك في وقائع وأعمال الاجتماع المشترك للجنة الاقليمية المكلفة بتطبيق الاتفاقية الخاصة بالاعتراف بدراسات التعليم العالي وشهاداته ودرجاته العلميه في الدول العربية ولخبراء تطوير التعليم العالي، مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في الدول العربية UNESCO، بيروت ١-٢ تشرين الثانى / نوفمبر ٢٠٠٠م وانتخبت اللجنة بالاجماع الدكتور حسنين محمد ربيع، ممثل جمهورية مصر **العربية رئيساً للاجتماع وللدورة العاشرة للجنة الإقليمية، كما تم اختياره في لجنة الصياغة**

٢٠٠١ (ابريل) زيارة وزارة التعليم العالي في الجمهورية العربية السورية مرافقا لمعالى أ.د.وزير التعليم العالى لبحث سبل تطبيق تجربة التعليم المفتوح في الجامعات السورية (قرار وزارى رقم ٤٧٠ بتاريخ ٢٠٠١/٤/٩).

٢٠٠١ (مايو) زيارة الجمهورية العربية السورية مع وفد جامعة القاهرة لمناقشته للإتفاق علي تنفيذ بروتوكول التعاون العلمي في مجال برامج التعليم المفتوح بين جامعة القاهرة والجامعات السورية (١٦-٢٠ مايو ٢٠٠١) (قرار رئيس الجامعة رقم ٧٩٩ لسنة ٢٠٠١).

٢٠٠١ إلقاء محاضرة بعنوان (القدس : مدينة عربية إسلامية) في معهد إعداد القادة بحلوان -

وزارة التعليم العالي يوم ٢٤ يوليو ٢٠٠١ وقام المعهد بطبع المحاضرة وتوزيعها

٢٠٠١ زيارة الجامعة المفتوحة في المملكة المتحدة (في برمنجهام Birmingham وميلتون كنيس Milton Kenes للاطلاع علي آليات تنفيذ برامج التعليم المفتوح في المملكة المتحدة، المتطلبات التكنولوجية (البث المرئي، الانترنت والشبكة الدولية للمعلومات ..الخ) وعوامل النجاح الرئيسية للتجربة البريطانية في مجال برامج التعليم المفتوح.

٢٠٠٥ المشاركة فى اجتماعات الدورة الثامنة والعشرين للجنة اختيار الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية لعام ٢٠٠٥ وموضوعها: (الدراسات التى تناولت دفاع المسلمين عن ديارهم فى القرنين الخامس والسادس الهجريين) عقدت الاجتماعات فى مدينة الرياض فى الفترة من ٨-١١ يناير ٢٠٠٥.

٢٠٠٧ المشاركة في اجتماعات الدورة الثلاثين للجنة اختيار الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية لعام ٢٠٠٦، وموضوعها : " الدراسات التي عُنيت بالعلوم البحتة أو التطبيقية عند المسلمين".

عضو هيئة تحرير مجلات

- عضو هيئة تحرير مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القري بمكة المكرمة، العدد الرابع (١٣٩٩-١٤٠٠هـ/١٩٧٨-١٩٧٩م)، والعدد الخامس (١٤٠٠-١٤٠١هـ/١٩٧٩-١٩٨٠م).
- عضو هيئة تحرير مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٨٩ - ١٩٩٣.
- عضو هيئة تحرير مجلة المؤرخ المصري التي يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة من سنة ١٩٨٨ حتي الآن.
- مستشار تحرير مجلة Journal of Islamic Studies التي يصدرها مركز أكسفورد للدراساتالإسلامية،اكسفورد - انجلترا Oxford Centre for Islamic Studies

(ز) المؤلفات :

- **كتب مؤلفة** :

١ - النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤م.

The Financial System of Egypt (A.H. 564 -741/A.D. 1169-1341), Oxford University Press, 1972. (In English).

٣- دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٨٣م (الطبعة السادسة ١٩٩٨م).

4- (In English) Fifty Documents in Medieval History, edited with Dr. Said Ashour, Cairo, 1971

٥- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب تأليف جمال الدين بن واصل، حققه ووضع حواشيه د. حسنين محمد ربيع، الجزءان الرابع والخامس، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٧٢، ١٩٧٧، الجزءان السادس والسابع تحت الطبع. وتمت ترجمة الجزء الرابع إلي اللغة الفارسية (تاريخ أيوبيان)، ترجمة بروين اتابكي، ط. طهران ١٩٩٠م.

٦- الجزء الثالث من(الموسوعة المصرية)،أصدرتها الهيئة العامة للاستعلامات بالقاهرة، عنوان الجزء الثالث : (تاريخ وآثار مصر الإسلامية) اشترك في تحرير هذا الجزء وكذلك في الإشراف والمراجعة، ط. **IMPADS، London 1977**.

٧- دليل وثائق الجنيزا الجديدة (بالاشتراك)، مطبوعات مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة ١٩٩٣.

٨- محاضرات في علم التاريخ، ط. القاهرة ١٩٩٨.

٩- الموسوعة العربية الميسرة (الطبعة الثانية) أصدرتها الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العلمية، ط. دار الجيل ٢٠٠١. اشترك في تحرير بعض المواد العلمية الجديدة، وكذلك أشرف وراجع المعلومات الخاصة بتاريخ الوطن العربي.

١٠- كتاب (تاريخ العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية)، مطبوعات المعهد العالي للدراسات الإسلامية، القاهرة ٢٠١٠م.

١١- فصل بعنوان (مصر والحروب الصليبية إلى سقوط عكا عام ١٢٩١ م) في كتاب بعنوان (تاريخ مصر في العصور الوسطى) إصدارات لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة (تحت الطبع) .

بحوث ودراسات ومقالات علمية (باللغتين العربية والإنجليزية) :

(ح) الإشراف على رسائل علمية :

أولاً : رسائل ماجستير

م	عنوان الرسالة	اسم الطالب	سنة الإجازة
١	العلاقات بين القوى الإيطالية وبيزنطة في القرن الثانى عشر الميلادى	عادل سليمان زيتون	١٩٧٥
٢	التعليم في مصر زمن الايوبيين والمماليك	عبد الغنى محمود عبد العاطى	١٩٧٥
٣	فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر	نبيلة إبراهيم مقامى	١٩٧٥
٤	إقليم الشرقيه في عصرى سلاطين الايوبيين والمماليك	محمد فتحى عوض الشاعر	١٩٧٦
٥	علاقة الايوبيين في مصر والشام بالخلافة العباسية في بغداد	محمد الحاج محمود خليل فليفل	١٩٧٧
٦	علاقات المغول بسلطنة المماليك في مصر والشام	محمد إبراهيم شلبيه	١٩٧٩
٧	الإسكندريه في العصر الايوبي	فاطمة مصطفي الحكيم	١٩٨٠
٨	السياسة الخارجية للمملكة اللاتينية في القسطنطينية (١٢٠٤-١٢٦١م)	ليلي عبد الجواد إسماعيل	١٩٨٠
٩	علاقة ا دولة التيموريه بسلطنة المماليك (٧٨٤-٨٥٠هـ/١٣٨٢-١٤٤٧م)	محم احمد علي	١٩٨٦
١٠	علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطيه في عصر أسرة كومنين (١٠٨١-١١٨٥م)	محمد نجيب زكى محمد الوسيمى	١٩٨٨
١١	العلاقات التجاريه بين فلورنسا وسلطنة المماليك في القرن الخامس عشر الميلادى	بافة رشيد	١٩٨٩
١٢	إمارة إنطاكيه الصليبيه (١٠٩٨-١٢٦٨م)	كمال امين محمد حسب الله	١٩٩٠
١٣	بنو ارتق وسياستهم الخارجيه في عصر الحروب الصليبية	محمد رمضان البطران	١٩٩٩
١٤	علاقة الدولة الحمدانيه في حلب بالامبراطوريه البيزنطية (٣٣٣-٣٩٤هـ/٩٤٥-١٠٠٤م)	عبير بنت ماجد ال سعود	١٩٩٩
١٥	مدينة القسطنطينة في القرن العاشر الميلادى	نجلاء مصطفي عبدالله شيحه	١٩٩٩
١٦	دور القوى الاوربيه في الحصار الاقتصادي علي سلطنة المماليك (١٢٩١-١٥١٧م)	محمد فتحى الزامل	٢٠٠٠

- بيان برسائل ماجستير أشرف عليها أ.د. حسنين محمد ربيع خارج جامعة القاهرة

- **أ. رسالة ماجستير في الجامعة الأمريكية بالقاهرة :**
- The History of The Abbasid Caliphate in Egypt During The Mamluk Period (659-923 A.H. / 1261-1517 A.D.). Ben Ndike Tong-Nsangou 1973

ب.رسائل ماجستيرقسم التاريخ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى- مكة المكرمة/المملكة العربية السعودية :

عنـوان الرسـالة	اسـم الطالب	سنة الإجازة
النفوذ البرتغالي في الخليج العربي	نوال حمزة يوسف الصيرفي	١٩٨٠م
بلاد الحجاز في العصر الايوبي (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م)	عائشـة عبد الله بافاسـي	١٩٨٠م
جهاد العثمانيين ضد البيزنطيين حتى فتح القسطنطينية(٧٥٥-٨٥٧هـ/١٣٥٤-١٤٥٣م)	المعتصم بالله إبراهيم شعوط	١٩٨٠م
مكة المكرمة كما جاءت في كتب الرحالة المسلمين منذ القرن السادس الهجرى حتى نهاية القرن التاسع الهجرى	فريـال عبد المجيد الشريف	١٩٨١م
بلاد الشام قبل الغزو الصليبي(٤٦٣-٤٩٠هـ/١٠٧٠-١٠٩٧م)	علي محمد علي عودة الغامدى	١٩٨١م
استرداد بيت المقدس في عصرصلاح الدين الايوبي	عبد الله سعيد محمد الغامدى	١٩٨٢م
الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عصر الأسرةالزنكية (٤٩١-٥٦٩هـ/١٠٩٧-١١٧٣م)	مسفر سالم الغامـدى	١٩٨٣م

- **ثانياً : رسائل الدكتـوراه :**

عنـوان الرسـالة	اسـم الطالب	سنة الإجازة
المجتمع الإسلامى في بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٧-١٢٩١)	احمد رمضان احمد محمد	١٩٧٦
علاقة البندقية بمصر والشام من بداية القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلاديين	عفاف سيد محمد صبرة	١٩٧٧
النشاط التجارة للمدن الايطاليه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين	عادل سليمان زيتون	١٩٧٨
جهاز العروس في مصر في عصر سلاطين المماليك (إشراف مشترك مع أ.د. صلاح البحيري)	فايزة محمود الوكيل	١٩٨٩
سلطنة سلاجقة الروم (٥٨١-٦٤١هـ/١١٨٥-١٢٤٣م)	محمد نجيب زكى الوسيمى	١٩٩٤
السياسة الخارجيه للدوله البيزنطيه في عهد الامبراطور اندرونيقوس الثانى باليولوجوس(١٢٨٢-١٣٢٨م)	ناهد عمر صالح	١٩٩٩
دور الفرنسيين في الحروب الصليبية علي بلاد الشام ١١٤٥-١٢٤٠م.	محمد رمضان احمد بطران	٢٠٠٦
الجاليات الاوربية في مصر فى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧ م)	نجلاء مصطفى شيحة	٢٠٠٧
الاوضاع الإقتصادية في مصر اواخر عصر سلاطين المماليك الجراكسة (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م – ٩٢٣هـ / ١٥١٧ م)	محمد فتحي علي الزامل	٢٠٠٧

بيان برسائل الدكتوراه أشرف عليها أ.د. حسنين محمد ربيع خارج جامعة القاهرة

م	عنوان الرسالة	اسم الطالب	سنة الإجازة
١	سياسة الدولة البيزنطيه تجاه القوى الصليبيه في بلاد الشام (٤٩٠-٥٨٨هـ/١٠٩٦-١١٩٢)	اميرة مصطفي امين يوسف	١٩٩٠م
٢	جهاد المسلمين ضد البيزنطيين في العصر لعباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ/٤٧٩-٨٤٧م)	امال حسن عبد الحافظ	١٩٩٠م
٣	بيت المقدس في العصر الايوبي (٥٨٣-٦٤٨هـ/١١٨٧-١٢٥٠م)	ثريا محمد عطيه الغانمى	١٩٩١

(ط) المشاركة في ندوات ومؤتمرات علمية :

م	عنوان المؤتمر	تاريخ ومكان الانعقاد	عنوان البحث
١	مؤتمرالتاريخ الاقتصادي	بمدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن في المدة من ٤-٦ يوليو ١٩٦٧	“Size and value of the IQTA in Egypt 1169-1341 A.D.”.
٢	مؤتمر تاريخ الحرب والتكنولوجيا	بجامعة لندن في المدة من ٢٢-٢٤ سبتمبر ١٩٧٠	"The training of the Mamluk FARIS”.
٣	مؤتمر التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط	بجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية في المدة من ١٦-٢٠ يونيو ١٩٧٤	“Some technical aspects of agriculture in Medieval Egypt".
٤	ندوة عن جلال الدين السيوطى	بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة في المدة من ٦-١٠ مارس ١٩٧٦	"منهج السيوطي في كتابة التاريخ
٥	الندوة العالمية الاولي لدراسات تاريخ الجزيرة العربية	بجامعة الرياض بالمملكة العربية السعودية، في المدة من ٢٣-٢٨ ابريل ١٩٧٧	وثائق الجنيزه واهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانيء الحجاز واليمن في العصور الوسطي
٦	مؤتمر"تاريخ وحضارة مصر	عقد بمدينة ديترويت بالولايات المتحدة الأمريكية في المدة من ٢٩ ابريل- ٧ مايو ١٩٧٧	“Political relations between the Safavids of Persia and the Mamluks of Egypt and Syria in the sixteenth century.
٧	سمنار عن الإسلام بناء علي دعوة من مركز دراسات البحر المتوسط	، عقد في جزيرة رودس باليونان في المدة من ١٧-٢٠ ابريل سنة ١٩٧٨	(الحملات المملوكية ضد رودس ١٤٤٠-١٤٤٤م). “TheMamluk Campaigns againstRhodes,1440-1444 A.D.”
٨	ندوة حطين	عقدت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخيةبالقاهرة ٧-٩ مارس ١٩٨٨	(دبلوماسية صلاح الدين تجاه بيزنطه في ضوء معركة حطين).
٩	المؤتمر الدولي بمناسبة العيد المئوي لميلاد طـه حسين (١٨٨٩-١٩٨٩م	الذي عقد في مدينة غرناطة بأسبانيا من ٥ إلي ١٠ مارس ١٩٩٠	(طه حسين ومعالجة قضايا التاريخ الإسلامي).
١٠	ندوة من معركة انقرة حتي حصار فيينا). (From The Battle of	مدينة سالزبورج بالنمسا في الفترة من ٢٢-٢٨ مارس ١٩٩٠	

	Ankara to the Siege of Vienna		
١١	المؤتمر الدولي الثاني(مفهوم العمران في الإسلام) (Urbanism In Islam)	عقد في مدينة طوكيو باليابان في الفترة من ٢٧-٢٩ نوفمبر ١٩٩٠	(Financial Aspects of the Waqf System).
١٢	مؤتمر : الاندلس ملتقي ثلاثة عوالم : العالم العربي - العالم الأوربي - العالم الأمريكي	عقد في مدينة اشبيليه بأسبانيا في الفترة من ٢٥-٣٠ نوفمبر ١٩٩١	"اضواء جديدة علي فتح الأندلسيين لجزيرة أقريطش (كريت) سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م".
١٣	ندوة (تحديث الدراسات التاريخية) نظمتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلي للثقافة وكلية الآداب جامعة القاهرة	عقدت الندوة في كلية الآداب في الفترة من ١١-١٣ ابريل ١٩٩٢	"انماط جديدة في تحديث الدراسات التاريخية".
١٤	ملتقي تكريم العلماء المصريين والأسبان المتخصصين في الدراسات الأسبانية والعربية	عقد في مدينة مدريد باسبانيا من ٢٧-٢٩ مايو ١٩٩٣.	
١٥	مؤتمر "ترميم وحفظ الآثار الإسلامية في مصر" (Restoration and Conservation of Islamic Monuments in Egypt	الجامعة الامريكية بالقاهرة ١٢-١٣ يونيو ١٩٩٣	(دار القاضي ابن لقمان في المنصورة)Dar al-Qadi Ibn Luqman at Al-Mansura"
١٦	ندوة (عمان في التاريخ)	عقدت في مسقط - عمان ٢٤-٢٧ سبتمبر ١٩٩٤.	
١٧	سمنار في مدينة سالزبورج التعليم العالي لأطر التنظيمية للقرن الحادى والعشرين). Higher Education: Institutional Structures for the Twenty-First Century	بالنمسا في الفترة من ١-٨ إبريل ١٩٩٥	
١٨	المؤتمر الدولي لتاريخ الحروب الصليبية	عقد في مدينة استانبول بتركيا في الفترة من ٢٥-٢٧ يونيو ١٩٩٧	(صلاح الدين وبيزنطه) (Saladin and Byzantium
١٩	مؤتمر (مصادر تاريخ القدس)	بكلية الآداب - جامعة القاهرة ٢١-٢٣ مارس ١٩٩٨	
٢٠	ندوة (الوسائط المتعددة والاعلام التقليدي	عقدت في مدينة العين بدولة الامارات العربية المتحدة ١٤-١٥ إبريل ١٩٩٨	
٢١	ندوة (سواحل مصر الشمالية عبر العصور)	لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلي للثقافة بمدينة الإسكندرية ٢٢-٢٣ إبريل ١٩٩٨،	(حصار الصليبيين لمدينة دمياط، يونيو ١٢١٨م).
٢٢	المؤتمر الدولي عن (العلوم الاجتماعية ودورها في مكافحة جرائم العنف والتطرف في المجتمعات الإسلامية)	القاهرة، ٢٨-٣٠ يونيو ١٩٩٨	
٢٣	المؤتمر العلمي لكلية الآداب بجامعة القاهرة في الذكري الخامسة والعشرين لرحيل د. طـه حسين	٢٨-٢٩ اكتوبر ١٩٩٨:	"الوعي التاريخي عند طـه حسين".

٢٤	ندوة (اضواء جديدة علي تاريخ العرب)	٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨ عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة	(وثائق الجنيزه مصدرا من مصادر تاريخ العرب).
٢٥	ندوة (جامعة القاهرة وافاق المستقبل)	عقدت بمناسبة احتفال الجامعة بمرور ٩٠ عاماً علي إنشائها، ٧ ديسمبر ١٩٩٨	البحث العلمي الجامعي وخدمة المجتمع).
٢٦	مؤتمر (معايير الاعراف والقيم الجامعية)	عقد في كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٥-١٦ مارس ١٩٩٩	الاعراف والقيم الجامعية في التراث
٢٧	وقائع واعمال ندوة (الدور الوطني للكنيسة المصرية عبر العصور)	لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلي للثقافة ١٨-١٩ إبريل ١٩٩٩	
٢٨	ندوة (دور الوحدات ذات الطابع الخاص بجامعة حلوان	الملتقي الثاني لتشغيل خريجي جامعة حلوان، ٢٧ أكتوبر ١٩٩٩	المعوقات التي تحول دون تطوير الوحدات ذات الطابع الخاص في الجامعات المصرية).
٢٩	وقائع واعمال ندوة (العرب وأوربا عبر عصور التاريخ)	عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ١٦-١٨ نوفمبر ١٩٩٩،	
٣٠	وقائع واعمال ندوة (علاقات مصر مع دول كومنولث الدول المستقلة)	نظم الندوة الصندوق المصري للتعاون الفني مع دول الكومنولث بوزارة الخارجية ومركز الدراسات الآسيوية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة في يومي ٢٥-٢٦ مارس سنة ٢٠٠٠	الفتوحات الإسلامية في بلاد ما وراء النهر والقوقاز وانتشار الإسلام والحضارة الإسلامية).
٣١	وقائع واعمال الندوة العلمية الدولية التى عقدت بمناسبة اجتفال جمهورية قازقستان بذكرى مرور ٧٧٥ عاماً علي ميلاد السلطان الظاهر بيبرس	عقد الندوة في مدينة " أتيراو " خلال المدة ١٦-١٧ سبتمبر ٢٠٠٠م.	السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي) تمت ترجمته إلي اللغة الروسية وإلي اللغة الكازاخية،
٣٢	الندوة العلمية الدولية القي أ.د. حسنين ربيع محاضرة في الأكاديمية الدبلوماسية لوزارة الخارجية بجمهورية كازاخستان	في مدينة الماطى يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر ٢٠٠٠	:(الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام والحضارة الإسلامية في بلاد ما وراء النهر "آسيا الوسطى").
٣٣	وقائع واعمال ندوة (طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي علي مر عصور التاريخ	عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ٢١-٢٣ نوفمبر ٢٠٠٠م	
٣٤	ندوة (التحليل الاستراتيجي والعلاقات بين مصر وقازاقستان).	عقدها مركز الدراسات الآسيويه بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ٢٤ يناير-٤فبراير ٢٠٠١،	
٣٥	وقائع واعمال احتفالية جامعة القاهرة العلمية الثانية بالألفية الميلادية تحديث مصر: رؤى مستقبلية.	نظمها مركز البحوث والدراسات المستقبلية جامعة القاهرة ٢٤-٢٧ ديسمبر ٢٠٠١.	(التراث الحضاري والاثري والتنمية السياحية نشر ضمن مطبوعات المركز.
٣٦	وقائع احتفالية تكريم الاستاذ الدكتور سعيد عاشور عميد	مقررا للاحتفالية بالمجلس الأعلي للثقافة يوم ٢٤	(سعيد عاشور مؤرخا) نشرت ضمن بحوث الاحتفالية

	مؤرخي تاريخ العصور الوسطي	ديسمبر ٢٠٠١.	
٣٧	وقائع احتفالية تكريم الاستاذ الدكتور حسين نصار أستاذ الأدب العربي	- المجلس الاعلي للثقافة ٢- ٣ مارس ٢٠٠٢	(منهج تحقيق التراث التاريخي عند د. حسين نصار) نشرت ضمن بحوث الاحتفالية.
٣٨	وقائع وأعمال المؤتمر الدولي للعلاقات المصرية المغربية عبر التاريخ	عقد بكلية الاداب جامعة حلوان بالتعاون مع جامعة حسن الثاني بالمغرب ١٦- ١٨ فبراير ٢٠٠٢	
٣٩	اعمال ندوة (اثار القدس عبر العصور)	نظمتها لجنة الآثار بالمجلس الأعلي للثقافة ٥ مارس ٢٠٠٢	عروبة القدس) نشر ضمن بحوث الندوة.
٤٠	ندوة جامعة القاهرة عن العلاقات المصرية - الكازاخية	عقدت بمركز المؤتمرات بجامعة القاهرة يوم ٦ مارس ٢٠٠٢.	انتشار الإسلام والحضارة الإسلامية في كازاخستان
٤١	وقائع احتفالية تكريم الاستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف عميدة المؤرخات المصريات	المجلس الاعلي للثقافة يوم ١٩ مارس ٢٠٠٢	(القيم والاعراف الجامعية عند الدكتورة سيدة كاشف) نشرت ضمن بحوث الاحتفالية.
٤٢	واعمال ندوة (العلاقات بين مصر وأذربيجان : الرؤي المشتركة وآفاق التعاون).	عقدت في مركز الدراسات الآسيوية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة يوم ٢٤ مارس ٢٠٠٢	انتشار الإسلام والحضارة الإسلامية في أذربيجان).
٤٣	مؤتمر مكة الثالث (العلاقات الدولية بين الإسلام والحضارة المعاصرة	عقد في مدينة مكة المكرمة في الفترة من ١١/٢٩- ١٤٢٣/١٢/٢هـ / ١-٣ فبراير ٢٠٠٣م، واشترك	(علاقات الدولة الايوبية ودولة سلاطين المماليك مع أوربا فى عصر الحروب الصليبية)
٤٤	"اللقاء الثقافى"	عقد فى دار الكتب المصرية يوم ١٧ مارس ٢٠٠٣).	دور جمال الدين الشيال فى تحقيق التراث
٤٥	فعاليات المؤتمر الاول لجامعة القاهرة عن تحديث محافظة الجيزة	يوم الاحد ١٨ إبريل ٢٠٠٤، "	تطوير ميت رهينة : متحف بلا حدود
	مؤتمر الشراكة بين الجامعة العربية المفتوحة والجامعة البريطانية المفتوحة: Conference on The Partnership between The Arab Open University and The Open University, U.K.	عقد المؤتمر فى الكويت خلال الفترة من ١٠-١٢ يناير ٢٠٠٥.	
٤٦	(حوارات الاداب)	عقدت في كلية الاداب جامعة القاهرة، يوم الأحد ٢٠ مارس ٢٠٠٥،	"دراسة التاريخ فى عالم متغير
٤٧	ورشة عمل إقليمية حول (التعليم المفتوح والتعليم عن بعد)	عقدتها اللجنة الوطنية المصرية للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو – اليكسو – ايسيسكو) في القاهرة في يومي ٥-٦ يونيو ٢٠٠٦	واشترك د. حسنين ربيع بدراستين هما • التعليم المفتوح والتعليم عن بعد (التجربة المصرية). • واقع التعليم المفتوح والتعليم عن بعد في الوطن العربي.
٤٨	ندوة (المدرسة المصرية فى الكتابة التاريخية خلال القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى)	عقدتها لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة يوم ١٢ إبريل ٢٠٠٧.	الفكر الاقتصادى عند جلال الدين السيوطى).
٤٩	الندوة السادسة من (	عقدت في كلية الاداب	(الاتجاهات المعاصرة في البحث

	حوارات الآداب)	جامعة القاهرة يوم الأحد ١٧ فبراير ٢٠٠٨,	التاريخي : انماط جديدة
٥٠	احتفالية دار الكتب والوثائق القومية بمناسبة ادراج مجموعة مقتنيات الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية من المخطوطات الفارسية المصورة ضمن سجل ذاكرة العالم.	في يوم ١٨ فبراير ٢٠٠٨	(مجموعة المخطوطات الفارسية المصورة بدار الكتب المصرية) وعرضها بصفته رئيسا للجنة الفنية لذاكرة العالم باللجنة الوطنية المصرية لليونسكو
٥١	احتفال اللجنة الوطنية المصرية للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو – اليسكو – ايسيسكو) باليوم العالمي للغة الأم	في, يوم ٢١ فبراير ٢٠٠٨,	التحديات التي تواجه اللغة الام في عالم متغير
٥٢	مؤتمر قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة (أثر مؤرخي جامعة القاهرة في الدراسات التاريخية في مائة عام)	يوم ٢٦ مارس ٢٠٠٨	(سطور من حياة المؤرخ الجليل أ.د. عزيز سوريال عطية
٥٣	الاشتراك في (صالون الجبرتي)	نظمته لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة يوم ٢٧ مارس ٢٠٠٨	(الوضع الحالي للدراسات التاريخية
٥٤	مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة للدورة الرابعة والسبعين بعنوان (اللغة العربية وتحديات العصر)	٢١ ابريل – ٥ مايو ٢٠٠٨,	(اللغة العربية: هوية وانتماء
٥٥	ندوة (الجامعة المصرية بعد مائة عام .... إلى أين ؟)	عقدتها لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة في يومي ٧,٨ مايو ٢٠٠٨	الجامعة المصرية واستشراف المستقبل
٥٦	ندوة المنتدي الإسلامي (المدخل إلي علم التاريخ	عقدت في إمارة الشارقة – دولة الإمارات وألقي يوم ٢٠١٠/٢/١٧	• بعض الاتجاهات الحديثة في الدراسات التاريخية • (ماهية التاريخ وفائدته اليوم وغدا). وقام المنتدي الإسلامي بنشر البحثين.
٥٧	ندوة مركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية	يوم ٢٠١٠/٣/٧	(كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه
٥٨	ملتقى "القيروان وإشعاعها عبر العصور"	نظمه المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة". عقدت الندوة فى مدينة القيروان بتونس فى المدة من ٢٠-٢٥ أبريل ٢٠٠٩	التأثيرات الثقافية المتبادلة بين مدرستي الفسطاط والقيروان حتى قدوم الفاطميين إلى مصر). وقام المجمع التونسي (بيت الحكمة) بنشر البحث ضمن وقائع الندوة – قرطاج تونس ٢٠١٠م
٥٩	ندوة (الشرق والغرب : تجربة الحروب الصليبية)	عقدتها لجنة التاريخ بالمجلس الأعلي للثقافة في القاهرة يوم ٢٩ إبريل ٢٠١٠	(رسالة الصليبيين إلي الإمبراطور فردريك الثاني أثناء حصار دمياط في ١٥ يونيه ١٢١٨م).
٦٠	ندوة مركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة التى	عقدت في قاعة المؤتمرات بدار الكتب المصرة يوم ٥ يونيه ٢٠١٢م	علم مصطلح الحديث وعلم التاريخ"